سلسلة كتب
السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني
الحسني الحسيني
« قدس سره »

بحث وتحقيق
السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني
الحسيني التيلاني الجمزرقي

الجزء السادس

مركز الجيلاني للبحوث العلمية
اسطنبول

تفسير الجيلاني

المركز الرئيسي استنبول
مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر
ت: ٠٠٩٠٢١٢٥١١٧٣٤٠
جوال: ٠٠٩٠٥٣٣٤٨٦٦٦١٠
E-mail: algeylani@msn.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

يطلب من :

سوريا
هاتف : ٨٨٣٥١٥٥
جوال:٠٩٩٩٨٩٩٧٤٦
دمشق ـ سوريا
enfo@windowslive.com

الإمارات العربية المتحدة
دار الفقيه
أبو ظبي ـ الأمارات
هاتف : ٢٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١+
فاكس : ٢٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١+
E mail: alfaqih@emirates.net.ae

لبنان
شركة التمام
بيروت ـ لبنان
هاتف :٧٠٧٠٣٩ ٩٦١+

مصر
دار الركن والمقام
مصر ـ القاهرة
هاتف : ٠٨١٤٤١٧٠ ٢٠١+
E mail: alrokn-walmaqam.com

سلسلة كتب

السيّد الشريف الشيخ
محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني
« قدّس سرّه »

تفسير الجيلاني

لمولانا ذي النور الرباني والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني
إمام العارفين .. تاج الدين .. القطب الكامل
السيّد عبد القادر الجيلاني (قدّس سرّه)

بحث وتحقيق
السَّيِّد الشَّريف الدّكتور مُحمَّد فاضِل جيلاني الحَسنِي
التَّيلاني الجمزرقي

الجزء السّادس

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ....

فاتحة سورة الحديد

لا يخفى على من تحقق بوحدة الحق وانكشف بفضاء صمديته وسعة مملكته واستيلاء سلطنته العالية: أن عموم ما ظهر وبطن غيباً وشهادةً، إنما هي من شؤونه الذاتية وتجلياته الجمالية والجلالية، المترتبة على أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية، لذلك نطقت بوحدته ألسنة عموم مظاهره ومصنوعاته، ونزَّهته عما لا يليق بشأنه كما أخبر سبحانه عن تسبيحهم تنبيهاً وإرشاداً لعباده، وحثاً لهم إلى التوجه والرجوع نحوه، فقال بعدما تيمن باسمه الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بمقتضى التجلي الحبي ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليها لسعة رحمته ووفور جوده وإحسانه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواص عباده، يوصلهم إلى فضاء توحيده.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المستقل بالبقاء والقيومية، المتفرد بالتحقق والثبوت على وجه الديمومية، الحي الحقيق بالألوهية والربوبية مظاهرُ ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الكوائن العلوية والسفلية، الغيبية والشهادية، ونزَّهَهُ عن مطلق النقائص المنافية لصرافة وحدته الذاتية، بعد ما اعترفت[1]

(١) في المخطوط (اعترف).

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ....

ألسنة استعدادات الكل بربوبيته طوعاً، واشتغلوا بلوازم عبوديته رغبةً ﴿وَ﴾ كيف لا يسبِّحونه ولا يعظِّمونه، والحال أنه ﴿ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ المتقن في إيجادها وإظهارها على وفق الارادة والاختيار.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مؤثرات الأسماء والصفات العلوية المعتبرة بالأعيان الثابتة ومتأثرات القوابل السفلية واستعدادات الطبائع والهيولى المنفعلة منها، إذ هو سبحانه باستقلاله وتوحده ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي يتصرف فيها بالإحياء والإماتة، والخلع واللبس، حسب إرادته ومشيئته بالاختيار، وبالجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دخلَ في حيطة حضرة علمه ولوح قضائه ﴿قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ بالقدرة التامة الكاملة، مع أنه لا يعزب عن حيطة علمه الحضوري ذرةٌ مما لمع عليه برق وجوده الوحداني الفرداني.

وكيف لا يقدر سبحانه على التصرف بالاستقلال والاختيار في ملكه وملكوته

إذ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الأزلي السرمدي السابق في الوجود ﴿ وَٱلْءَاخِرُ ﴾ الأبدي الدائم المستمر فيه بمقتضى الجود حق ﴿ وَٱلظَّٰهِرُ ﴾ المتحقق في العيان ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ المكنون في عموم الأكوان، فانظر أيها المعتبر الناظر، هل بقي لغيره وجودٌ ولسواه عينٌ وشهودٌ؟ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ ظهر من امتداد أظلاله وانعكاس أشعة نور وجوده ﴿ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ بذاته

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ....

وحضوره، غير مغيبٍ عنه مطلقاً.

ومن كمال علمه وإرادته ووفور حكمته وقدرته:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقدَّر ظهور ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المتطابقة المتعلقة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ المفترشة الممهدة ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ حسب الأقطار والجهات الست ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما كمل الكل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وتمكن ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ أي على عروش مطلق المظاهر بالاستيلاء التام، والاستقلال الكامل بحيث ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحبَّات أو في أراضي الاستعدادات من بذور المعارف والحقائق ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات أو المكاشفات والمشاهدات المترتبة على بذور المعارف والأعمال الصالحات ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عالم الأسباب من الأمطار، أو من سماء الأسماء من مياه العلوم اللدنية والإدراكات المحيية لأراضي الاستعدادات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾ من الأبخرة والأدخنة أو الكلمات الطيبة الصاعدة الجالبة لفيضان اليقين والعرفان من المبدأ الفياض ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ أيتها المظاهر ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ لا معيةً ذاتيةً ولا زمانيةً، ولا بطريق المقارنة والمخالطة، ولا بطريق الحلول والاتحاد، بل بطريق الظهور والظِّلية، والحضور وَرَشِّ النور ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المحيط بكم المظهِر لأشباحكم بمد ظله عليكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مطلق الأعمال

بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ....

﴿بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ فيجازيكم عليها على مقتضى بصارته وعلمه في يوم الجزاء.

إذ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً وخلقاً أولاً، وإعداماً ثانياً، وإعادةً ثالثاً ﴿وَ﴾ بعد الإعادة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ أي رجوعُ مطلق الأمور إليه سبحانه في المعاد والمآل، كما أن ظهوره منه في المبدأ والمنشأ، إذ منه الابتداء وإليه الانتهاء.

ومن تصرفاته المتقنة في ملكه على وفق حكمته أنه:

﴿يُولِجُ﴾ ويدخل ﴿ٱلَّيْلَ﴾ أي بعض أجزائه ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ في فصل الربيع والصيف ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي بعض أجزائه ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ في فصل الخريف والشتاء مصلحةً لمعاش عموم الحيوانات، ومحافظةً لها من كِلا طرفي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ أي بمكنونات ضمائركم ومقتضيات استعداداتكم وبعدما علم واطلع سبحانه منكم ومن استعداداتكم وقابلياتكم، ما ليس لكم به علمٌ.

﴿ءَامِنُوا۟﴾ أي انقادوا وأطيعوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ المطلع على عموم مصالحكم ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ النائبِ عنه المبعوثِ من لدنه لإرشادكم وتكميلكم ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ بمقتضى الأمر الإلهي المنبئ عن محض الحكمة والمصلحةِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي من أموالكم التي استخلفكم الله عليها، إذ هي كلها لله حقيقةً، لا لكم كما زعمتم.

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ....

فعليكم أن تمتثلوا بأوامر الله سبحانه بالإنفاق والإيثار الذي يزكّي أنفسكم من الميل إلى مزخرفات الدنيا العائقة عن الوصول إلى جنة المأوى التي هي مقام التسليم والرضا ﴿ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ﴾ وأكدوا إيمانهم بالإخلاص في عموم الأعمال والأفعال والأخلاق ﴿ وَأَنفَقُوا ﴾ بلا شوب المن والأذى، وشين السمعة والرياء ﴿لَهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وإنفاقهم على وجه الإخلاص ﴿ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ لا أجر أكبر منه وأعلى.

ثم قال على طريق الحث والإلزام المشعر بالوعيد:

﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ أي أيّ شيءٍ عَرض لكم وطرأ عليكم ﴿ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الواحد الأحد الصمد المستحق للإطاعة والإيمان ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿ الرَّسُولُ ﴾ المبلغ الكامل في الهداية والتكميل ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي المنزَّل من عنده ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ مع تأييده بالمعجزات الساطعة والحجج القاطعة الدالة على صدقه في دعوته للإيمان، ورسالته إلى كافة الأنام ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿ قَدْ أَخَذَ ﴾ الله العليم العلام باستعداداتكم ﴿ مِيثَاقَكُمْ ﴾ وعهدكم بالإيمان والعرفان في مبدأ فطرتكم ومنشأ جبلتكم، مع أنه جبلكم حين قدَّر خلقَكم وأنشأ فطرتكم على جبلة التوحيد والإيمان فماذا يمنعكم عنه ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ بسببٍ وموجبٍ، فهذا موجب لا مزيد عليه .

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾

إذ ﴿هُوَ﴾ سبحانه الحكيم العليم ﴿ٱلَّذِى يُنَزِّلُ﴾ من مقام فضله وجوده ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد ﷺ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ مبيناتٍ واضحاتٍ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله ورسولُه ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ المتراكمة المتكاثفة من لوازم الطبيعة ولواحق الحصول ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أي نور الوجود البحت الخالص عن مطلق القيود ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ﴾ بإرادة إخراجكم من ظلمات الجهل إلى نور اليقين ﴿لَرَءُوفٌ﴾ مشفقٌ عطوفٌ ﴿رَّحِيمٌ ۝٩﴾ متناهٍ في الرحمة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ أي أيّ شيءٍ يمنعكم عن الإنفاق ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تقرباً إليه، وطلباً لمرضاته، وامتثالا لأوامره ﴿وَلِلَّهِ﴾ الغني بذاته، المستغني عن مطلق مظاهره ومصنوعاته ﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي العلويات والسفليات والممتزجات، وهو في ذاته غنيٌّ عن إنفاقكم وبذلكم، إلا أنه ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ أي أنفق قبل فتح مكة، ممتثلاً لأمر الله، مجهداً في تقوية دين الإسلام وترويجه وظهوره على الأديان الباطلة وتكثير أهل الحق وتغليبه ﴿وَ﴾ مع إنفاقه على المقاتلين في سبيل الله لإعلاء كلمة توحيده ﴿قَٰتَلَۚ﴾ أيضاً بنفسه، وسعى ببذل المال والروح في طريق الحق وترويجه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المنفقون المقاتلون لهم ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأكرمُ مثوبةً

مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ
﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ
تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ....

ومقاماً عند الله ﴿ مِّنَ ﴾ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ أي بعد فتح مكة وغلبة المسلمين وظهور دين الإسلام ﴿وَقَٰتَلُواْۚ﴾ بعده مع كثرة المقاتلين ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي وعد الله كلاً من المسلمين المبادرين، أو المبطئين الوعد الحسنى، والدرجة العليا، والمثوبة العظمى حسب سعيهم واجتهادهم في تقوية الشرع وترويج الدين القويم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المطلع بسرائر عباده ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي بعموم أعمالكم وأحوالكم، خالصِها ومشوبِها، صالحِها وفاسدِها ﴿خَبِيرٞ ﴿١٠﴾﴾ بصيرٌ، لا يعزب عن حضرته شيءٌ منها، يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثم قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ ﴾ وينفق في سبيله مِن أكرم أمواله ﴿ قَرۡضًا حَسَنٗا ﴾ بلا شوب المن والأذى، وشين السمعة والرياء، طَلباً لمرضاته سبحانه ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ أي يضاعف له إخلافه وإعواضه في الدنيا كرامةً عليه وفضلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾﴾ وفوزٌ عظيمٌ، لا فوز أعظم منه وأكرم، وهو التحقيق بمقام الرضا والتسليم، والاستغراق بمطالعة وجه الله الكريم.

اذكر يا اكرم الرسل على سبيل التبشير :

﴿يَوۡمَ تَرَى ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الموحدين الموقنين المخلصين

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ....

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أيضاً كذلك ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي نور يقينهم وعرفانهم ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي أمامهم وقدّامهم ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ إذ إتيان الكرامة، إنما هو من هاتين الجهتين، فيقول لهم حينئذٍ من يتلقاهم من الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ دخول ﴿جَنَّٰتٌ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق لا بحسب وقتٍ دون وقت، بل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الخلود في الجنة الموعود ة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ لا فوز أعظم منه عند المكاشفين.

ثم عقّب سبحانه وعد المؤمنين بوعيد المنافقين، فقال أيضاً على وجه التذكير:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ المبطلون المستمرون على النفاق مع أهل الحق ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ أيضاً كذلك ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حين يرونهم يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أيها السعداء المحقون، والتفتوا نحونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ إذ نحن في ظلمةٍ شديدةٍ ﴿قِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قِبَل الحق على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي إلى دار الاعتبار والاختبار ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ واقتبسوا من مشكاة النبوة والولاية بامتثال الأوامر والنواهي الموردة من عنده سبحانه على رسله، وبالحِكم والأسرار الصادرة من ألسنة أولي العزائم

فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ
أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ

الصحيحة، المنجذبين نحو الحق من طريق الفناء فيه بالموت الإرادي.

واعلموا أن اقترافه واقتباسه، إنما هو في دار العبرة والغرور، لا في دار الحضور والسرور.

وبعدما جرى ما جرى ﴿فَضُرِبَ﴾ وحِيل حينئذٍ ﴿بَيْنَهُم﴾ أي بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ حائطٍ حائلٍ ﴿لَّهُۥ﴾ أي للسور ﴿بَابُۢ﴾ مفتوحٌ يدخل منه المؤمنون ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ أي باطنُ الباب ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ النازلة من قِبَل الحق بمقتضى اسم الرحمن على أهل الإيمان والعرفان ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ أي ظاهر الباب ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ سبحانه بمقتضى اسمه المنتقم ﴿ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ النازل على أهل النفاق والطغيان.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي المنافقون المؤمنين حين سُتروا عن أعينهم وبقوا في الظلمة والعذاب محرومين قائلين متضرعين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أيها الرفقاء في دار الدنيا مسلمين منقادين لأحكام الإسلام، ممتثلين لأوامر الكلام ونواهيه أمثالكم ﴿قَالُوا۟﴾ أي المؤمنون في جوابهم من وراء الحائل: ﴿بَلَىٰ﴾ أنتم معنا ظاهراً ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق والشقاق حسب باطنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ وانتظرتم بالمؤمنين المقتَ والدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ ترددتم وشككتم في حقية الدين القويم وظهوره على الأديان كلها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿غَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ والأهوية الفاسدة والآراء الباطلة مدى العمر،

حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ ....

فانتظرتم بالمؤمنين ريبَ المنون، وكنتم على أمانيكم هذه وتطيّراتكم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الموت، فمتم منافقين مخادعين ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿غَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ الذي هو شياطين أمّارتكم وأمانيكم وتسويلات نفوسكم وقواكم.

وبعدما وقع ما وقع ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ الذي تبلى السرائر فيه ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون المخادعون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها لتخليصكم من العذاب لا منكم أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ﴾ إخوانكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مجاهرين مصرين على ما هم عليه بلا مبالاة إلى الدين والدعوة وبالجملة ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ أي محل رجوعكم وقراركم اليوم جميعاً أي ﴿ٱلنَّارُ﴾ المعدةُ المسعرة لكم أيها المنافقون بالكفر والمجاهرون به ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي النار أولى بكم وأليق بحالكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ والمرجع النار المعدة للكفار الأشرار.

ثم قال سبحانه على سبيل الحث والترغيب والتمنن والتشويق:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي لم يقرب الوقت ولم يحضر الأوان ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بوحدة الحق وبكمالات أسمائه وصفاته ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ وتخضع وتلين وترق ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ التي هي وعاء الإيمان والعرفان ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المستجمع لعموم الأسماء والصفات، المسقط لجميع الإضافات ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ سبحانه في كتابه المبين

مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ....

لطريق توحيده ﴿ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الحقيق بالامتثال والاتباع من الأوامر والنواهي الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن والرموز والإشارات المصفية للسر عن التفاتٍ إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ لَا يَكُونُوا۟ ﴾ [التفسير جرى على رواية رويس]: ﴿ وَلاْ تَكُوْنُوْا﴾ أيها المؤمنون في الإعراض عن كتاب الله والانصراف عما فيه من الحكم والمصالح ﴿ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي مضى الزمان بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عن الإيمان، مع أن الكتب بين أظهرهم ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ خارجون عن دينهم تاركون ما في كتابهم من الأحكام من فرط قساوتهم وغفلتهم، فلكم أن لا تكونوا أمثالهم مع نبيكم ودينكم وكتابكم.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ ﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلع على قابليات عباده واستعداداتهم الفطرية ﴿ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أراضي استعداداتكم بماء المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل والغفلة الناشئة من ظلمات الطبيعة والهيولى، وبالجملة ﴿ قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدالة على هدايتكم وتكميلكم في القرآن العظيم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ رجاء أن تتأملوا فيها، وتتعظوا بها، وتفهموا إشاراتها، وتعتبروا منها، وتتفطنوا بما فيها من السرائر المرموزة والحِكم المكنونة.

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ....

ومن علامات تعقلكم واتعاظكم: التصدق بمزخرفات الدنيا، والتقرب بها نحو المولى.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ ﴾ أي المتصدقين ﴿ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ أي المتصدقات ﴿وَ﴾ هم الذين ﴿ أَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ خالصاً عن شوب المن والأذى طالباً لمرضاته سبحانه ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ صدقاتهم في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ ﴾ وأخلصوا في إيمانهم وأكدوه بصوالح أعمالهم وإحسانهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون ﴿ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ ﴾ المتبالغون في الصدق، المقصورون على الإخلاص، المتمكنون في منهج حق اليقين ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ الكاشفون المشاهدون الحاضرون ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿ لَهُمْ ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ ﴾ الموعودُ لهم من قبل الحق على وجهٍ لا مزيد عليه ﴿وَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بوحدة ذاتنا ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ الدالة على استقلالنا في تصرفاتنا عتواً وعناداً ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ أي ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها.

ﵟٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ ....

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المكلفون المعتبرون ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ما الحياة المستعارة الدنيوية وما حاصلها وجلّ متاعها إلا ﴿لَعِبٞ﴾ مزخرفٌ باطلٌ في نفسها، يلعب بها أهل الغفلة والحجاب، ويتعبون بها أنفسهم بلا طائل ﴿وَلَهۡوٞ﴾ يلهيهم عما يهمهم ويعينهم من الحياة الأزلية الأبدية ولوازمها ﴿وَزِينَةٞ﴾ زيَّنها لهم شياطين قواهم وأمانيهم من المطاعم الشهية والملابس البهية واللذات الوهمية والشهوات البهيمية ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ بالمال والجاه والثروة والسيادة بالأنساب والأحساب ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ بالمظاهرة والمعاونة وتكثير العَدد والعُدد والعقارات والتجارات والمواشي والزراعات، إلى غير ذلك من المزخرفات الفانية التي لا قرار لها ولا مدار، بل مَثَلُهَا ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ نزل وأنبت إنباتاً ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي الزرَّاع ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ من كثرته ونضارته وكثافته ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجفُّ وييبسُ[1] بآفةٍ وعاهةٍ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بعد ما كان مخضراً في كمال البهجة والنضارة ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ هشيماً تذروه الرياح حيث شاءت بلا فائدةٍ ولا عائدةٍ ﴿وَ﴾ مع هذه الخسارة والحرمان في النشأة الأولى لأهل الغفلة والخذلان، يكون لهم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ المعدة للجزاء ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وما فيها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَغۡفِرَةٞ﴾ سترٌ ومحوٌ لذنوب أصحاب المعاملات ناشئةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

(١) في المخطوط (يبس).

وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ

الغفور الرحيم بمقتضى لطفه وسعة رحمته وجوده ﴿وَرِضْوَٰنٌۚ﴾ منه سبحانه لأرباب القلوب والمكاشفات خيرٌ من الدنيا وما فيها بأضعافها وآلافها، عند مَن تحقق تربية الإنسان وسعة قلبه المصور على صور عرش الرحمن ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ عند الأحرار البالغين بدرجة الاعتبار والاستبصار ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ ومخائل الخديعة والزور، ومن اغتر بها ولعب بما فيها، فقد استحق الويل والثبور، وحَرُم عليه الحضور والسرور.

ومتى سمعتم أيها المؤمنون المعتبرون حال الدنيا ومآلها وحال العقبى وما يترتب عليها:

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ سارعوا وبادروا بوفور الرغبة والرضا ﴿إِلَىٰ﴾ تحصيل أسباب ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ مرجوةٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة الهداية والتوحيد ﴿وَ﴾وسائل دخول ﴿جَنَّةٍ﴾ وسيعةٍ فسيحةٍ ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بحسب متفاهم العرف، وإلا فلا يكاد سعة الجنة وعرش الرحمن قلب الإنسان الكامل كما يشهد به قلب العارف المحقق المتحقق بمقام القلب الذي هو وعاء الحق المنزه عن مطلق المقادير والتقادير ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ على وجه الإخلاص وأكدوا إيمانهم وإخلاصهم بالرضا والتسليم بعموم ما جرى عليهم من القضاء، وفوضوا أمورهم كلها إلى المولى حتى صار علمهم منتهياً إلى العين، وعينهم إلى الحق ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحقق والانتهاء

فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ ....

﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ بلا سبقِ شيءٍ يوجبه ويجلبه، وعبودية يستحقه،بل ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ عنايةً منه سبحانه وإحساناً ناشئاً عن محض الإرادة والاختيار كيف ﴿وَٱللَّهُ﴾ الغني في ذاته المستغني مطلقاً عن عبادة مظاهره وأظلاله ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ والكرم العميم، يمنُّ على من يشاء من عباده بمقتضى سعة رحمته وجوده، حسب علمه المحيط باستعداداتهم وقابلياتهم،

إذ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ﴾ أي ما حدث من حادثة مفرحةٍ أو موحشةٍ كائنةٍ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي في أقطار الآفاق من الخصب والرخاء والزلزلة والوباء إلى غير ذلك من المفرحات والموحشات الحادثة في الأنحاء والأرجاء ﴿وَلَا﴾ كائنةٍ ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من العوارض المسِرَّة والشهوات الملذة، أو من الأمراض والملمات المؤلمة ﴿إِلَّا﴾ ثبت حدوثها في ساعة كذا في آنٍ كذا على وجه كذا ﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ أي في حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه على اختلاف العبارات ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ نخلقها ونظهرها، أي ثبت حدوث الحادثة في وقتها في كتابنا، قبل أن تُخلق الحادثة[1] بزمانٍ لا يعلم أحدٌ مقداره إلا نحن، ولا تستبعدوا من قدرتنا أمثال هذا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الثبت والتقدير السابق، وإن كان عندكم عسير ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر الغالبِ على عموم المقدورات ﴿يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ سهلٌ في جانب قدرته وإرادته.

(١) في المخطوط (قبل أن يخلق الحادثة).

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ﴾

والسر في ثبتها قبل خلقها

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ولا تحزنوا أيها المجبولون على فطرة الكفران ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من اللذات والشهوات المرغوبة ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ منها، ليكون فرحكم سبباً لكبركم وخيلائكم على ضعفاء الأنام وفقراء الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿اللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده من النخوة والاستكبار ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ ذو كبر وخيلاء منهم ﴿فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ مفاخرٍ مباهٍ بسبب المال والجاه والثروة والسيادة على أقرانه[1] وأبناء زمانه.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تُسندوا الأمور إلى أنفسكم، بل فوضوا أموركم كلها إلى الله، وأسندوها إليه سبحانه بالأصالة، فلا تفرحوا، ولا تحزنوا، بل افنوا في الله وابقوا[2] لتتمكنوا في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

والمختالون المفتخرون هم:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ ويمسكون أنفسكم عن التصدق والإنفاق ويجمعون من حطام الدنيا مقدار ما يفتخرون بها، ويتفوقون على أقرانهم بسببها ﴿وَ﴾ مِن غاية بخلهم وإمساكاهم ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضاً ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصةً، وليعرضوا ويصرفوا ضعفاء الأنام عن امتثال أمر الله بالإنفاق، حتى لا ينالوا بالمثوبة العظمى والكرامة الكبرى في النشأة الأخرى من عنده سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله ولم يشكر لنعمه

(١) في المخطوط (على قرانه).

(٢) في المخطوط (بل تفنوا في الله وتبقوا).

فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ....

ولم يواظب على أداء حقوق كرمه، فلا يضره سبحانه ولا ينقص من علوٍّ شأنه وسموٍّ برهانه ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ بذاته عن إطاعة عباده وإنفاقهم وشكرهم وكفرانهم ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ حسب أسمائه وصفاته الذاتية، بلا افتقارٍ له إلى محامد مظاهره ومصنوعاته.

ثم قال سبحانه على سبيل الامتنان لعموم عباده، وإرشاداً لهم إلى سبل السلامة والسلام وحثاً لهم إلى الطاعات والعبادات:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿ رُسُلَنَا ﴾ المبعوثين إلى هداية العباد وإرشادهم إلى سبيل الرشاد وأيدناهم ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الواضحات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المشتملَ على الآيات الدالة على وحدة ذاتنا وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿وَ﴾ أنزلنا معهم ﴿ ٱلْمِيزَانَ ﴾ الموضوع للقسط والعدالة، كل ذلك ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿ بِٱلْقِسْطِ ﴾ والعدل، فيصيرون مستقيمين على صراط الله الأعدل الأقوم الذي هو الشرع القويم والدين المستقيم المنزلُ على الرسول المبعوث بالخُلق العظيم ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ لزجر المنحرف العنيد، إذ ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ للمائلين عن جادة الشريعة، والمتمردين عن الدين القويم ﴿وَ﴾ إن كان أيضاً فيه ﴿ مَنَٰفِعُ ﴾ كثيرةٌ ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ لتوقف عموم الحِرف والصنائع

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ....

عليه ﴿وَ﴾ إنما أرسل سبحانه من أرسل، وأنزل معه ما أنزل ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي يظهر ويميز من عباده ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ سبحانه ﴿وَ﴾ ينصر ﴿رُسُلَهُۥ﴾ المرسلين من لدنه، أي مَن ينصر دينه المنزل على كل واحدٍ من رسله، المبعوثين من عنده لإظهاره وترويجه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي قبل قيام الساعة وانكشاف السرائر، وما ذلك الإرسال والإنزال منه سبحانه إلا لابتلاء العباد واختبارهم، وإلا فهو منزهٌ في ذاته عن إعانتهم ونصرهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على أنواع الإنعام والانتقام ﴿قَوِىٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه ﴿عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ غالبٌ على عموم مقدوراته بلا مظاهرةٍ ومعاونةٍ.

وإنما أمر سبحانه عباده بالجهاد؛ لينالوا بامتثاله أعظم المثوبات.

ثم قال سبحانه على سبيل التخصيص بعد التعميم للاعتناء والاهتمام بشأن المذكورين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم، وشاع انحرافهم عن المنهج القويم ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ حين ظهر الشرك وعبادة الأوثان والأصنام بين قومه ﴿وَ﴾ من كمال تعظيمنا وتكريمنا إياهما ﴿جَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أبداً ﴿فَمِنْهُم﴾ أي بعضٌ قليلٌ من ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ وَ﴾ بعضٌ ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ خارجون عن جادة العدالة

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

والقسط الإلهي.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ وعقَّبنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي بعد انقراضهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ وأيدناهم بالكتب والصحف وأنواع الآيات والمعجزات ﴿وَ﴾ بعد ما انقرضوا أيضاً ﴿قَفَّيْنَا﴾ الكل ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وأيدناه بروح القدس ﴿وَ﴾ من كمال صفوته ونجابة عرقه وطينته ﴿جَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وآمنوا له، وتدينوا بدينه ﴿رَأْفَةً﴾ عطفاً وليناً إلى حيث يعفون عن القاتل، ولا يضربون الشاتم والضارب ﴿وَرَحْمَةً﴾ يترحمون بها عموم عباد الله ﴿وَ﴾ من شدة محبتهم ومودتهم بالنسبة إلى الله ابتدعوا ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ يبالغون بها في العبادات إلى حيث لا يَطعمون ولا يَشربون أياماً ولا يَنكحون قط، ولا يختلطون مع الناس، بل يوطِّنون نفوسهم في شِعبَ الجبال والكهوف، وإنما ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ من تلقاء أنفسهم بلا رخصةٍ منا إياهم إذ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ أي الرهبانية، وما فرضناها وقدَّرناها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في دينهم وكتابهم، بل ما اختاروها ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي ما وافقت رهبانيتهم بدينهم وكتابهم، إذ كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وهو من أعظم معتقدات دينهم وكتابهم، فتركوه، وأنكروا عليه جهلاً وعناداً ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد ﷺ

مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا
بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ

....

﴿مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي أجر إيمانهم وأعمالهم بأضعاف ما استحقوا بأعمالهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خارجون عن مقتضى دينهم وكتابهم، بإنكار محمد ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله على مقتضى دين الرسل الماضين صلوات الرحمن عليهم وسلامه المبعوثين؛ لتبيين طريق توحيد الصفات والأفعال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه بمخالفة أمره ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ المرسل من عنده بطريق التوحيد الذاتي ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ سبحانه، نصيباً عظيماً لإيمانكم بمحمد ﷺ، ونصيباً آخر لإيمانكم لمن قبله من الرسل ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ سبحانه ببركة إيمانكم بمحمد ﷺ ﴿نُورًا﴾ مقتبساً من مشكاة النبوة والرسالة، المخصوص بالحضرة الختمية المحمدية ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ بذلك النور إلى المحشر ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ سبحانه ببركته ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لذنوب عباده، يرحمهم ويقبلُ منهم توبتهم إن أخلصوا فيها.

وإنما يفعل بهم سبحانه ما يفعل من الكرامات المتضاعفة:

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي ليعلم يقيناً ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ ولا يستطيعون ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ وثوابه، بأن يجلبوه[1] بإيمانهم وأعمالهم، لو لم يرد

(١) في المخطوط (تجلبوه).

وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

سبحانه إتيانه إياهم تفضلاً وإحساناً ﴿وَ﴾ يعلمون أيضاً يقيناً ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ المطلق والإنعام والإحسان الكامل ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته وتحت حكمه وحكمته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده إرادةً واختياراً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ والطَّول العميم، والكرم الجسيم على أرباب العناية من عباده.

جعلنا الله ممن تفضل علينا بمقتضى كرمه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترقب للفضل الإلهي وسعة لطفه وجوده: أن تلازم على أداء ما افتُرض عليك من الطاعات والعبادات، وتداوم على الاتصاف بالآداب السنيّة والأخلاق المرضية المقتبسة من كتابِ الله المنزلِ من عنده لإرشاد منهج الرشاد وعموم السعادات، ومن سنن سيد السادات وسند أرباب الولاية والكرامات، وتقتفيَ بآثار السلف المجتازين في مضمار المعارف والمكاشفات والمشاهدات، وإياك إياك الالتفات إلى مزخرفات الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات العائقة عن التوجه إلى المولى والوصول إلى سدرة المنتهى، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

سورة المجادلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المجادلة

لا يخفى على الموحدين المتحققين بمقام الرضا والتسليم: أن من توكل على الله وفوّض الأمور كلها إليه، ورجع في عموم الخطوب والملمات نحوه سبحانه، متضرعاً إليه خاضعاً خاشعاً متذللاً سائلاً منه سبحانه مطلوبه، داعياً إليه لأجله أن يجيب له ويصيبه إلى مطلوبه، إن كان سؤاله منبعثاً عن محض العزيمة وخلوص النية، إذ السؤال والدعاء على هذا المنوال إنما هو من أمارات الإجابة وإنجاح المأمول، إذ جريان الحوادث كلِّها بتوفيق الله وتيسيره وصدور السؤال عن كمال الحضور إنما هو من علامات القبول، كما صدر مثل هذا عن المرأة المجادِلة مع رسول الله ﷺ حين بسطت شكواها إلى الله متضرعةً راجيةً للإنجاح منه سبحانه، ومِن غاية إخلاصها وخضوعها أجاب الله دعاءها، فأوحى سبحانه إلى حبيبه ﷺ في شأنها ما أوحى بعد ما تيمن باسمه الأعلى فقال:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على قلوب المخلِصين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم يوفقهم على الإخلاص في مطلق العزائم المهمة لهم المتعلقة بدينهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى ما وفقهم عليه.

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ....

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ السميعُ المجيبُ لمناجاة خلَّص عباده العليمُ بحاجاتهم ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي﴾ أي دعاء الامرأة التي ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي﴾ حق ﴿زَوْجِهَا﴾ حين وقع بينهما ظهارٌ.

روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها أوس بن الصامت، وكان الظهار والإيلاء حينئذٍ من عداد الطلاق، فاستفتتْ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ» فكررها، فأجاب ﷺ كذلك[1]، ﴿وَ﴾ بعد ما أيست أخذت ﴿تَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ متضرعةً خاشعةً فجيعةً، إذ لها أولادٌ صغارٌ ولا متعهدَ لهم سواها، فقالت مناجيةً إلى الله مشتكيةً: اللهم إني أشكو إليك وأتضرع نحوك، فأنزلْ على نبيك ما يؤلّف بيني وبين زوجي، وتَرَحَّم على أولادي المعصومين؛ وهي على هذا، فأوحى سبحانه إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ على ما جرى بينكما ﴿يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ وتراجعكما في الكلام، وكيف لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ العليمَ بالسرائر والخفايا ﴿سَمِيعُۢ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ بأحوالهم ونياتهم.

ثم بين سبحانه حكم الظهار فقال:

---

(١) مذكورة بطولها ومختصرها في كتب الصحاح والسنن والتفاسير البخاري والنسائي وابن ماجه وغيرهم، ينظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٨٣٥، ورقم: ٥٨٢٢، ورقم: ١٣٦٨٨، ورقم: ١٨٥٧٣ وغيرها، وينظر أيضاً حسب الموسوعة: جامع الأصول في أحاديث الرسول ٢/٣٧٨-٣٧٩.

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ ....

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ والظهار هو أن يقول الرجل لامرأته عند الخصومة: أنت علي كظهر أمي، أي شبهها بأمه المحرَّمة عليه، فكانت هي أيضاً محرمةٌ على زوجها في عادة الجاهلية؛ لأن الحرمة سرت إليها بمجرد التشبيه، فصارت بمنزلة الأم؛ ردَّ الله عليهم أمرهم هذا بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ بمجرد هذا القول الباطل ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي ما أمهاتهم ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ فلا يشبَّه بهن في الحرمة غيرهن، إلا ما ورد الشرع بتحريمهن، مثل أمهات الرضاع وأزواج النبي ﷺ اللاتي هن أمهات المؤمنين ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ من شدة إفراطهم وطغيانهم ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مردوداً في الشرع ﴿وَزُورًاۚ﴾ باطلاً منحرفاً عن الحق في نفسه، إذ لا يشبه الزوجة بالأم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ لضمائر عباده ونياتهم ﴿لَعَفُوٌّ﴾ لفرطات القائلين ﴿غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ لذنوبهم، لو تابوا واستغفروا.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتلافي والتدارك مناقضين ﴿لِمَا قَالُواْ﴾ نادمين عنه مسترجعين ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي يلزمهم في الشرع تحرير رقبةٍ في كل مرةٍ؛ ليكون كفارةَ قولهم المنكر الباطل ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي يستمتعا ويجتمعا أي المظاهِر والمظاهَر عنها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي إلزام الكفارة

تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ ....

عليكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ وترتدعون عنه خوفاً من الغرامة، إذ ليس هو من شيم أهل الإيمان، بل من ديدنة الجاهلية الأولى ﴿وَٱللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالكم وأعمالكم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾﴾ أي بجميع أعمالكم ونياتكم فيها.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ ولم يقدر على تحرير الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ أي كفارة ظهاره صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ متصلين متوالي الأيام، فإن فَصَلَ وأفطرَ يوماً استأنف، واشتراط التتابع والتوالي؛ لتنزجر نفسه وترتدع عنه، ولا يفعله قط ولا يتكلم به مرة أخرى، ذلك أيضاً ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ ويتجامعا ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ ولم يقدر للصوم لهرمٍ أو مرضٍ أو شبقٍ مفرطٍ ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ يُعطى كل مسكين مُدّاً من الطعام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي لزومُ الصوم والإطعام عند فقدان التجريد المذكور ﴿لِتُؤۡمِنُواْ﴾ وتصدِّقوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ في أصول أحكام الشرع والأوامر والنواهي الإلهية الجارية فيه، وتتركوا ما أنتم عليه من الرسوم والعادات الجاهلية بينكم في جاهليتكم الأولى ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تِلۡكَ﴾ الحدود المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۗ﴾ المصلح لأحوالكم، إنما وضعها بينكم؛ لتصلحوا بها ما أفسدتم على أنفسكم بمقتضى أهويتكم الفاسدة وآرائكم الباطلة ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجاحدين الخارجين

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ ....

عن مقتضى الحدود الإلهية والأحكام الشرعية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم قال سبحانه على سبيل الوعيد والتهديد:

﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفرطين ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ويعادون ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يضعون حدوداً مخالفة لحدود الله ورسوله، ويختارونها مراءً ومجادلةً ومعاداةً مع الله ورسوله ﴿كُبِتُوا۟﴾ أي أكب وأحاط عليهم العذاب النازل من الله فهلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية ﴿وَ﴾ كيف لا نُهلكهم ولا نستأصلهم إذ ﴿قَدْ أَنزَلْنَآ﴾ لإصلاح أحوالهم وأخلاقهم وعموم أطوارهم ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ مشتملاتٍ على حكم ومصالح لا تخفى، فأبوا عنها ولم يقبلوها بل كذبوها وأنكروا عليها وعلى من أُنزلت عليه عتواً وعناداً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المستكبرين بما عندهم من الثروة والرئاسة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾ بحيث يبدل عزّهم ذُلّاً، ونخوتهم لعنةً وطرداً، اذكر لهم يا أكمل الرسل:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ من قبورهم ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يشذُّ أحدٌ منهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي بجميع أعمالهم تفضيحاً وتشهيراً لهم على رؤوس الأشهاد بحيث ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وفصّله عليهم على وجهٍ لا

﴿وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ ....

يغيب عن حيطة علمه وإحصائه سبحانه من عملهم ﴿وَ﴾ هم قد ﴿نَسُوهُ﴾ لكثرته أو تهاونهم عليه ﴿وَ﴾ كيف لا يُحصي سبحانه عليهم أعمالهم إذ ﴿ٱللَّهُ﴾ بمقتضى ألوهيته وحيطة ظهوره ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من مظاهره ﴿شَهِيدٌ ۝٦﴾ حاضرٌ غير مغيب.

﴿أَ﴾ تُسْتَبْعَدُ شهادته سبحانه وحضوره عند عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿لَمۡ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ولم تعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المحيطَ بالكل بالألوهية والظهور ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري عموم ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الكائنات العلوية ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي الكائنات السفلية كلياتِها وجزئياتِها، محسوساتِها ومعقولاتِها بحيث ﴿مَا يَكُونُ﴾ ويقع ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾ وسرٍ معهودٍ بين ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ يسرون بها ويضمرونها في نفوسهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿رَابِعُهُمۡ﴾ بل هو أعلم منهم بنجواهم وأعرف بما في ضمائرهم منهم، بل هو العالِم حقيقةً ﴿وَلَا خَمۡسَةٍ﴾ أي وكذا لا يقع نجوىً بين خمسةٍ مكنونةٍ في ضمائرهم، مصونةٍ عن غيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿سَادِسُهُمۡ﴾ بل علمه بها أتم وأكمل من علمهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَآ﴾ يقع ﴿أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ الجمعِ ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ منه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَعَهُمۡ﴾ بل العالم العارف هو سبحانه بذاته ووحدته، إلا أنه ظهر في أشباحهم، وهو يأتيهم لا على سبيل المقارنة الذاتية والزمانية، ولا على سبيل

أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ

الحلول والإتحاد، بل على طريق معيَّة الظل مع ذى الظل، ومعيَّة الأمواج مع الماء، والصور مع ذي الصورة، ولا يقيد أيضاً معيته بالمكان، بل ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ كان معهم لاستواء عموم الأمكنة دونه سبحانه، وتنزهه عن المكان مطلقاً.

وبالجملة يعلم سبحانه منهم جميع ما صدر عنهم، لكن لم يطلعهم بعلمه إياهم؛ لئلا يبطل حِكمة التكاليف الواقعة منه سبحانه بالنسبة إلى عموم عباده ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء أوان التكليف وانقراض نشأة الاختبار ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ سبحانه ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي يُخبرهم بجميع أعمالهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المعدَّة لتنقيد الأعمال وترتُّب الجزاء الموعودة عليها تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحق ويليق بهم من العذاب والنكال؛ لئلا يكون لهم على الله حجةٌ، ولا ينسبوه إلى الظلم، إذ الإنسان جُبل أكثر شيءٍ جدلاً، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على عموم ما كان ويكون غيباً وشهادةً ظاهراً وباطناً ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ لمع عليه برق الوجود ﴿عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ بعلمه الحضوري، لا يعزب عن حيطة علمه شيء.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمنافقين:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ نُهُواْ﴾ ومُنعوا ﴿عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ والتغامز فيما بينهم بالعيون والحواجب، حين جلسوا في مجلس رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فمنعهم ﷺ عن ذلك ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ إصراراً ومكابرةً ﴿وَ﴾ هم حينئذٍ ﴿يَتَنَاجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ﴾ الموجب للحدِّ الشرعي، أو

وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ....

ظهروا به وأفشوه ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ عن الأوضاع الشرعية ﴿وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ وتكذيبه والإعراض عنه وعن دينه مهما أمكن لهم ﴿وَ﴾ بالجملة هم من جملة شكيمتهم وغيظهم ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿حَيَّوْكَ﴾ على وجه النفاق ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون: السام عليك، أو أنعم صباحا؛ مع أن الله سبحانه يقول: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [٢٧-النمل:٥٩]، ﴿وَ﴾ بعدما حيَّوك على مقتضى أهويتهم، وقصدوا مقتك في تحيتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ حينئذٍ ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ونجواهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي هلا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ لو كان محمدٌ نبياً؟! فظهرَ من عدم تعذيب الله إيانا أنه ليس بنبيٍ، قيل لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلونها ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ مصيرهم جهنم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عليكم ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ﴾ فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ مثل مناجاة أولئك الأشقياء المردودين، بل ﴿وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ﴾ الموجب لأنواع الخيرات، الجالب لأكرم المثوبات ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ عن محارم الله، ولا سيما عن عصيان الرسول المستلزم لأنواع الحرمان والخسران ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ الغيورَ ﴿ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ وتُرجعون

إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟
فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ

في يوم البعث والجزاء.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ والإسرار بالإثم والعدوان ومعصية الرسول إنما نشأ ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المضلِّ المغوي، إنما يحملهم عليها ﴿لِيَحْزُنَ﴾ نجواهم بهذه الأوزار ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويتغمموا بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَيْسَ﴾ الشيطان وما يلقِّنهم من التناجي بالسوء ﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ أي المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومقتضى مشيئته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المراقب لعموم أحوال عباده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ وأنه سبحانه يكفي لهم مؤنة شرور أعدائهم ونجواهم بالسوء والعدوان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مقتضى أخلاقكم الحسنة الموروثة لكم عن إيمانكم وعرفانكم ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ وقت تضيِّقكم وتحسبكم ﴿تَفَسَّحُوا۟﴾ وتوسعوا ﴿فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي مطلق المجالس والمحافل ﴿فَٱفْسَحُوا۟﴾ ووسِّعوا مبادرِين بلا مطلٍ وتحرجٍ وتضجرٍ ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾ ويوسّع عليكم في عموم ما تريدون الوسعة فيه بل ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم ﴿ٱنشُزُوا۟﴾ وانهضوا واخرجوا من المضائق والمجالس ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ طائعين راغبين، مريدين الثواب من الله بتوسيعكم على إخوانكم، ولا تتوهموا الإذلال بالنشوز، بل ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾ القادرُ المقتدرُ على وجه الإنعام

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ....

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ ونشزوا عن المضائق لمصلحة إخوانه طوعاً درجاتٍ من القرب والمكانة.

إذ المؤمن العارف المتمكن في مرتبة اليقين الحقي لا يتفاوت عنده المدح والذم، والإعزاز والإذلال، والمضرة والمسرة، والمنح والمحن مطلقاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ من حضرة العلم الالهي ﴿ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ لا يُكتنه وصفها ولا حصرها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المطلع بضمائركم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الاستكبار والاستكراه وتوهم الإذلال والاستنكاف عن الامتثال ﴿خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ يجازيكم على مقتضى خبرته.

ثم أشار سبحانه إلى تعظيمِ رسوله ﷺ وتأديبِ من تَبِعَه من المؤمنين المسترشدين منه فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم بالله وتصديقكم برسوله أنكم ﴿ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ ﴾ وأردتم المناجاة معه والاستفادة منه ﷺ ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ ﴾ أي قدَّام مناجاتكم وعرضِ حاجاتكم إليه ﴿صَدَقَةًۚ ﴾ تصدقاً لفقراء الله ﴿ذَٰلِكَ ﴾ أي التصدق لمحبة رسول الله ﷺ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَأَطْهَرُۚ ﴾ لنفوسكم من الميل إلى زخارف الدنيا ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ ﴾ ما تنفقون ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلعَ على نيّاتكم ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ على من فقد وجه الصدقة.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ ....

ثم قال سبحانه على سبيل الرخصة:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ وخفتم الفقر والفاقة من ﴿أَن تُقَدِّمُوا۟﴾ وتصدقوا ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾ أي قدَّام مناجاتكم مع رسول الله ﷺ ﴿صَدَقَٰتٍ﴾ أي لكل نجوىً صدقاتٍ ولو كلمة طيبة منبئة عن كمال المحبة والوداد ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ ولم تصدقوا بسبب الإشفاق عن الفقر ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي قَبِلَ منكم توبتكم إن صدرتْ عنكم على وجه الندم والإخلاص عن جريمة الإشفاق والتحسر على ما فوَّتم، وبالجملة عفى الله عنكم وتجاوز عن جريمتكم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المؤقتة المكتوبة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة المقدرة ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في عموم الأوامر والنواهي على وجه الإخلاص ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع على ضمائركم ونياتكم ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي بعموم أعمالكم وإخلاصكم فيها.

ثم أشار سبحانه إلى تفضيح المبالغين وتوبيخهم فقال:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي والوا وتحابّوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهود، واختاروا موالاتهم، وصاحبوا معهم في خلواتهم، واغتابوا المؤمنين عندهم، مع أنهم ﴿مَّا هُم﴾ أي المنافقون ﴿مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون حقيقةً وإن كانوا منكم ظاهراً ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود

﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٥﴾

ظاهراً، وإن كانوا منهم حقيقةً ﴿وَ﴾ من شدة شقاقهم ونفاقهم ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالله ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ صريحاً وهو دعوى الإسلام والإخاء مع المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾ كذب أنفسهم ويزورون بحلفهم على المؤمنين تغريراً، مع أنه لا نفع لحلفهم عند الله، ولا يدفع شيئاً من عذابه .

إذ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ المراقب على عموم أحوالهم ﴿لَهُمْ﴾ أي للمنافقين الحالفين على الكذب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أشد من عذاب اليهود المجاهرين بالكفر بلا زورٍ وتزويرٍ، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ أهل النفاق من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ من التمرن على النفاق، والإصرار بموالاة أهل الشرك والشقاق.

قيل: نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق، إذ كان رسول الله ﷺ جالساً في حجرةٍ من حجراته، فقال لجلاسه: «يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ، يَنْظُرُ بِعَيْنِ شَيْطَانٍ» فدخل عبد الله بن نبتل، وكان أزرق، فقال عليه الصلاة والسلام: « عَلَامَ تَشْتُمُنِيْ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ؟!»، فحلف بالله ما فعل، ثم جاء أصحابه، فحلفوا جميعاً على الكذب[1]، وبالجملة :

(١) قال الزيلعي: الحديث روي أن عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس رسول الله ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حجره إذ قال: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان» فدخل ابن نبتل وكان أزرق، فقال له النبي ﷺ: «علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟» فحلف بالله ما فعل فقال عليه السلام: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت. قلت: رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٥٢٤ رقم/ ٣٧٩٥/ تفسير سورة المجادلة] بنقص يسير من حديث سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا ....

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةٗ﴾ وقايةً لدمائهم وأموالهم ﴿فَصَدُّواْ﴾ ومنعوا المؤمنين بسبب حلفهم الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو غزوهم وقتلهم في النشأة الأولى ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾﴾ في النشأة الأخرى؛ لاستهانتهم بالله بالحلف الكاذب، ولا يدفع عنهم الإهانة والعذاب يومئذٍ أصلاً.

إذ ﴿لَّن تُغۡنِيَ﴾ وتدفع يومئذٍ ﴿عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ﴾ بل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء البعداء عن منهج الحق ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي ملازموها وملاصقوها، إذ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ مخلَّدون، لا يُرجى نجاتهم منها أصلاً.

اذكر لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع:

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإحياء والإماتة في الإبداء والإعادة ﴿جَمِيعٗا﴾ مجتمعين، فيعاتبهم بما صدر عنهم مثل ما عاتبهم رسول الله ﷺ

في ظل حجرة وقد كاد الظل أن يتقلص فقال رسول الله ﷺ: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعين= الشيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال: حين رآه دعاه رسول الله ﷺ فقال: «علامَ تشتمني أنت وأصحابك؟». فقال: ذرني آتك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا، فأنزل الله عز وجل ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾» وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أحمد في المسند [١/ ٢٤٠ رقم / ٢١٤٧/] وابن أبي شيبة والبزار في مسانيدهم ورواه الطبراني في معجمه والبيهقي في دلائل النبوة والواحدي في أسباب النزول والطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما وهذا سند جيد وابن مردويه أيضاً.

أنظر تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي [٣/ ٤٣١ رقم / ١٣١٣/].

فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾
ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ
ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ....

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي لله حينئذٍ على أنهم مسلمون مؤمنون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ﴾ الآن أيها المؤمنون ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ حينئذٍ أيضاً ﴿أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ﴾ نفعٍ ودفعٍ حاصلٍ من حلفهم الكاذب، فيخيلون أنهم يروجون بالحلف الكاذب ما يدَّعون من الكذب على الله، كما يروجون عليكم اليوم، ولم يعلموا أن الناقد حينئذٍ بصيرٌ، والترويج إليه عسيرٌ.

﴿أَلَآ﴾ تنبهوا أيها المؤمنون المخلصون ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ المقصورون على الكذب والزور والتلبيس والغرور، إذ ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ أي غلب واستولى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ المضلُّ المغوي ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ المنقذِ عن الضلال المرشدِ إلى الهداية، وبالجملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المطرودون ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ أي جنوده وأتباعه ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ المقصورون على الخسران المؤبد، والحرمان المخلَّد عن ربح المعرفة واليقين.

أعاذنا الله وعموم عباده من متابعة الشيطان المضل المغوي.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ﴾ المفسدين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ ويعادون ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ويعادون ويتجاوزون عن الحدود الموضوعة في الشرع بالوضع الإلهي المنزَّل على رسوله بالوحي والإلهام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ البعداء المجاوزون المعادون

فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا
تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ
كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ

المعدودون ﴿فِي﴾ زمرة ﴿ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي من جملة مَن أذلَّه الله، وختم على قلبه، وجعل على بصره غشاوةً، ولهم عذاب أليم.

وكيف لا يُعَدُّ المتجاوزون من الأذلين ؟

إذ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم وأثبت في لوح قضائه بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾ البتة ﴿أَنَا۠ وَ﴾ عموم ﴿رُسُلِيٓ﴾ المرسلين من عندي بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة على عموم المظاهر والمخلوقات، وكيف لا يغلب سبحانه على مظاهره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿قَوِىٌّ﴾ في ذاته، لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ مقتدرٌ غالبٌ، يغلب مطلقاً في عموم مراداته ومقدوراته.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير بعموم المؤمنين:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ المعد للحساب والجزاء ﴿يُوَآدُّونَ﴾ أي لا تجدهم أن يوادّوا ويحاببوا ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ وعاداه ﴿وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟﴾ أي الحادّون العادون المعاندون ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ أي آباء المؤمنين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم وذوو أرحامهم ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ المقبولون الممتنعون عن ودادة أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم طلباً لمرضات الله ومرضاة رسوله ﷺ ﴿كَتَبَ﴾ أي أثبتَ ومكَّنَ سبحانه

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ....

﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وجعله راسخاً فيها ﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾ فائضٍ ﴿مِّنْهُ﴾ محيي لهم أبدَ الآباد، إذ من يحَيى بالإيمان والعرفان، فقد دامت حياته ولم يمت أبداً ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ متنزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة الأزلي الأبدي، الذي هو الوجود المطلق الإلهي ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً، إذ ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ﴾ المتجلي عليهم بالرضا ﴿عَنْهُمْ وَرَضُوا۟﴾ أيضاً ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بالتفويض والتسليم إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ وحوامل آثار أوصافه وأسمائه الذاتية، وقوابل عموم كلياته وشؤونه وتطوراته ﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها الأظلال المستظلون بظلاله الممدودة من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ الفائزون من لدنه بالفوز العظيم والفضل الجسيم والكرم العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المترقب للفلاح والفوز بالنجاح: أن تتمكن في مقام التسليم والرضا بعموم ما جرى عليك من القضاء، وتلازم على آداب الخدمة بين يدي الله في عموم أوقاتك وحالاتك، فارغاً همَّك وسرَّك عن مطلق الوساوس والأشغال العائقة عن التوجه نحو المولى، وتواظبَ على الطاعات والعبادات في خلال الخَلوات؛ لتكون مصونةً عن السمعة والرياء والميل إلى العجب والهوى، وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا ومزخرفاتها الملهية عن اللذات الأخروية، المستتبعة للسلاسل والأغلال الإمكانية المبعِدة عن الوصول إلى فضاء الوجوب وصفاء الوحدة الذاتية التي عبَّر بها عن النعيم الموعود والحوض المورود والمقام المحمود.

جعلنا الله ممن وصل إليه وتمكن دونه بمنِّه وجوده.

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحشر

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وشموله على عموم ما ظهر وبطن في الآفاق والأنفس علماً وعيناً، غيباً وشهادةً، دنياً وعقبىً: أن عموم المظاهر والمجالي متوجهةٌ إلى المبدأ الحقيقي، منجذبةٌ نحوه طوعاً، عابدةٌ له رغبةً، ساجدةٌ إياه على وجه الخضوع والخشوع والانكسار التام والتذلل المفرط، منزهةٌ مسبحةٌ له عن شوب النقص وسَمْتِ الحدوث والزوال.

كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ تنبيهاً له وتأييداً لأمره ليكون هو ومن تبعه من المؤمنين الموحِّدين على ذِكْرٍ من ربهم الذي رباهم على الدراية والشعور بمطلق المراتب الواقعة في الوجود الإلهي ومظاهر وحدته الذاتية المتجلية حسب الشؤن والتطورات الغير المتناهية، المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الغير المحصورة، فقال بعد ما تيمَّن باسمه الأعلى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن بالحكمة المتقنة العلية ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾بجميع مظاهره بإفاضة الجود المتجلية على الصور البديعة ﴿الرَّحِيمِ﴾لهم بالإعادة والإرجاع إلى الفطرة الاصلية والمبدأ الحقيقي.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزَّهه تنزيهاً لائقاً بجنابه سبحانه مظاهرُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بذاته، المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ المتقِن المدبِّر لمصالح عباده كيف شاء، وبالجملة :

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ﴾ بمقتضى عزته وحِكمته المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله وبرسوله، وهو إجلاء بني النضير مع أنهم ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ المألوفة وأوطانهم المأنوسة زجراً عليهم، وتذليلاً لهم، واقعاً إياهم ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم وإجلائهم الواقعِ عليهم بظهور الإسلام.

إذ أجلى رسول الله ﷺ بني النضير أولاً من المدينة إلى الشام، ثم أجلى بقية الكفرة عمرُ رضي الله عنه في خلافته، انظروا كيف أخرجهم سبحانه بكمال قدرته وعزته مع أنكم ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون من ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ لشدتهم وشوكتهم واستحكام أماكنهم وقلاعهم ﴿وَ﴾ هم أيضاً ﴿ظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ أي ظنهم لأنفسهم أن حصونهَم تمنعهم ﴿مِّنَ﴾ بأس ﴿ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور وبطشه، وإن اشتدّ، لكن لم ينفعهم الحصون والقلاع حين نزول العذاب بل ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي القهر الهائل من لدنه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ أي من صوب وجهةٍ لم يتوقعوا ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿قَذَفَ﴾

فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي
ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي
ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ ....

وألقى سبحانه ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ﴾ الشديد والخوف العظيم من غير قتال.

وبسبب ذلك الرعب الهائل أخذوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضناً بها على المسلمين، وإخراج ما فيها من الأمتعة ﴿وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيضاً، فإنهم أيضاً كانوا يخربون بيوتهم إذلالاً لهم وتوسيعاً لمضمار الحرب والقتال، وبالجملة ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ واتعظوا بما جرى على هؤلاء الغواة الطغاة، يثقون بحصونهم ويشيدونها ليتحصنوا بها من بأس الله، ثم لما اضطروا، أخذوا يخربون بأيديهم ما يعتمدون عليه ويستحفظون به، وذلك من كمال قدرة الله ومتانة حكمته.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ المصلحُ لأمور دنياهم ولم يفترض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ ولم يخرجهم من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بالقتل والأسر وأنواع الإذلال والصَّغار، كما جرى على الكفرة المتمكنين في أماكنهم بعدهم ﴿وَ﴾ مع ذلك الإصلاح والكرامة لهم في الدنيا ﴿لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ بواسطة إصرارهم على الكفر، وإنكارهم على الإسلام.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإذلال والصَّغار لهم في الدنيا والآخرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ بمخالفة أمرهما والخروج عن حكمهما

وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ....

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ يعاقبه البتة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ صعبُ الانتقام، أليمُ العذاب على عصاة عباده، إرادةً واختياراً.

ثم لما توجه رسول الله ﷺ إلى بني النضير حين نقضوا العهد الذي عهدوا مع الله ورسوله، تحصنوا بحصونهم وامتنعوا عن الإسلام، فأمر رسول الله ﷺ بقطع نخلهم وحرق بساتينهم، قالوا: يا محمد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخل وحرقها؟!

فسمع المؤمنون منهم ذلك، وأوجسوا في نفوسهم الكراهة وعدم اللياقة، فنزلت[1]:

﴿مَا قَطَعْتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ أي من بعض نخلةٍ من النخلات ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ بلا قطعِ شيءٍ منها ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ على ما كانت ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي القطعُ والتركُ كلاهما بأمر الله وحُكمه ﴿وَ﴾ إنما أمركم بالقطع والحرق ﴿لِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ أي يرديهم ويذلهم بما غاظهم، ويضيق صدرهم.

(١) انظر في سبب النزول كما في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٦٠٥٤: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وهو صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. الكتاب المصدر:جامع الأصول في أحاديث الرسول ٨/ ٢٢١. وقال في الفتح السماوي ٣/ ١٠٣٥: »رواه ابن إسحاق في المغازي، وابن جرير... وابن مردويه...« انظر تفسير الطبري ٢٨/ ٤٤، والدر المنثور ٦/ ١٨٨.

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ ....

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي ردّ الله وأعطاه ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي من يهود بني النضير من الأموال والعقار، فهو لرسول الله خاصةً خالصةً، له أن يفعل به حيث شاء بلا حقٍ لكم فيها ليس مثل سائر الغنائم ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ﴾ وأجريتم ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على تحصيله ﴿مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ نجائب الابل، إذ هم مشوا إلى بني النضير رجالاً لا فرساناً، وكانت المسافة ميلين من المدينة، ومع ذلك لا يقاتلون معهم مقاتلتكم مع سائر الكفرة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقمَ الغيورَ ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ من المستوجبين للطرد والمقت، بلا وسائل القتال والحراب، بل يقذف الرعب وإلقاء الخوف في قلوبهم، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، الموجبة للهزيمة، لا عن شيء ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادرُ المقتدرُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ موجبٍ لقهر أعدائه ونصر أوليائه ﴿قَدِيرٞ ٦﴾ سواءً وافق العادة أو لا. وبالجملة :

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ﴾ أموالِ ﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الهالكة بالغلبة والاستيلاء بلا مقاتلةٍ وحرابٍ ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ سهمٌ ﴿وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ من بني هاشم وبني المطلب سهمٌ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سهامٌ. وإنما قسم سبحانه مالَ الفيء بنفسه ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾ الفيء الذي حقُّه أن يصل إلى الفقراء

دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿دُولَةً﴾ متداولةً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ ورؤسائكم كما هو عادة الجاهلية الأولى ﴿وَ﴾ بعد ما قسَّم سبحانه في كتابه ﴿مَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ وأعطاكم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ المستخلف منه سبحانه ﴿فَخُذُوهُ﴾ بلا مراءٍ ومجادلةٍ معه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ بإذن الله ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ أيضاً عنه بلا مكابرةٍ وإصرارٍ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عن مخالفة أمره وأمر رسوله النائب عنه، واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على وجوه الانتقام ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ على من خرج من ربقة عبوديته، ومقتضى ألوهيته.

ثم بين سبحانه مصارف الفيء بعد إخراج سهم الله ورسوله، وقدّم منهم فقراء المهاجرين اهتماماً بشأنهم فقال:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي أخرجَهُم المشركون، ونهبوا أموالهم، وسبوا أولادهم، والحال أنهم في مصائبهم هذه ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿فَضْلًا﴾ تفضلاً وإحساناً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ منه سبحانه؛ لكمال تمكنهم ورسوخهم في مقام الرضا والتسليم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ بترويج دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بالمعاونة والمظاهرة وبذلِ المالِ والنفسِ في تقويته ونصرِه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون، الباذلون مُهَجَهُم في طريق الحق وتقويةِ دينه القويم وصراطه المستقيم ونصرةِ رسوله

هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ ....

الكريم ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ المقصورون على الصدق والإخلاص، ظاهراً وباطناً.

﴿وَ﴾ بعد أولئك الفقراءِ الأنصارُ وهم ﴿ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي توطّنوا وتمكّنوا في المدينة ورَسَخوا على الإيمان والإسلام بالعزيمة الصادقة الخالصة ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قبل هجرة المهاجرين إليها، ومع رسوخهم وتمكنهم في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ محبةً خالصةً ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين ﴿وَ﴾ من كمال محبتهم وإخلاصهم بإخوانهم المهاجرين ﴿لَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ ووجدانهم ﴿حَاجَةً﴾ باعثةً لهم إلى أن يحسدوا ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ وأُعطوا أي المهاجرين من سهام الفيء وسائر الغنائم والصدقات، وذلك من غاية محبتهم ومودتهم بالنسبة اليهم بل ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي يختارون ويقدمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حتى إن من كان له امرأتان نزلَ عن واحدةٍ وزوَّجها على أحدهم.

وبالجملة يؤثرونهم ويختارونهم أي المهاجرين على أنفسهم في آخر ما آثروا لنفوسهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي حاجةٌ شديدةٌ بليغةٌ ومحبةٌ بالنسبة إلى ذلك الشيء، وما هو إلا من فرط محبتهم وإخلاصهم بالنسبة إلى إخوانهم المهاجرين ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ ويخالفها حتى يمنعها

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ ....

عن مقتضاها، طلباً لمرضاة الله ورعايةً لجانب أخيه المسلم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المحافظون على آداب الأُخوة والمروّة ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ المقصورون على الفوز العظيم من عنده سبحانه، عاجلاً وآجلاً، في العاجل بالذكر الجميل، وفي الآجل بالجزاء الجزيل.

﴿وَ﴾ بعد فقراء الأنصار للفقراء التابعين، وهم ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ مهاجرين من بقعة الإمكان نحو فضاء الوجوب، مقتفين أثر أولئك الكرام، مريدين لهم بإحسانٍ، مذكّرين لهم بغفرانٍ، حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في مناجاتهم مع ربهم في خلواتهم وأعقاب صلواتهم: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة الإسلام ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ذنوبنا التي صدرتَ عنا ﴿وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ في الدين، وهم ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وسلوك طريق العرفان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا﴾ يا مولانا ﴿غِلّٗا﴾ حقداً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مطلقاً، لا للسابقين ولا للاحقين ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا على الإخلاص والتوفيق، تقبّل منا مناجاتنا، واقض لنا حاجاتنا ﴿إِنَّكَ رَءُوفٞ﴾ عطوفٌ على عموم عبادك، سيما المخلصين منهم ﴿رَّحِيمٌ ١٠﴾ تقبل توبتهم وتغفر زلتهم، إن استغفروا نحوك، نادمين عما صدر عنهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع:

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ....

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ مع المؤمنين حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ في خلواتهم ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وكان بينهم صداقة الشرك وأخوّة الكفر وموالاة البغض مع المؤمنين: لا تصالحوا مع هؤلاء المدّعين يعنون المؤمنين؛ وأنّا معكم، واللهِ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم عنوةً ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ البتة ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ ونتّبع ﴿فِيكُمْ﴾ أي في قتالكم وحرابكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ من هؤلاء الأعادي ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ونعاونكم البتة بلا خُلْفٍ منا ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعالهم ونياتهم فيها ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في قولهم وعهدهم هذا مع إخوانهم حيث قال سبحانه:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ البتة ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ جزماً، وقد وقع ذلك، فإن أُبيّ وأصحابه عهدوا مع بني النضير على هذا، ثم أخلفوهم، وهم قد خرجوا من ديارهم، وهؤلاء لم يخرجوا ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بالفرض والتقدير، ويقاتلوا معكم أيها المؤمنون من جانب عدوكم، واللهِ ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وقت كركم عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بعد ذلك؛ لشدة خوفكم ورعبكم في قلوبهم. وبالجملة

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾
لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ مرهوبيةً ومرعوبيةً راسخةً ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ متمكنةً في نفوسهم من قِبَلِكم، والحال أن تلك الرهبة الشديدة الحاصلة منكم إياهم ناشئةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذ هو سبحانه قذفها في صدورهم من جانبكم وأقدركم عليها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي عدم تفطنهم بمنشئها ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ ولا يعلمون عظمة الله، وحق قدره حتى يخشوا منه حق خشيته.

وبالجملة لا تبالوا أيها المؤمنون بودادة المنافقين مع اليهود واتفاقهم معهم .

إذ ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ محصورةٍ مسورةٍ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ يستحصنون بها، وذلك من فرط رعبهم وشدة رهبتهم من المؤمنين، وإلا ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي حين حارب بعضهم بعضاً، أو مع غير المؤمنين قتالهُم شديدٌ وحرابهم عظيمٌ، وإذا حاربوا مع المؤمنين ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ظاهراً في بادئ النظر ﴿وَ﴾ لكنْ ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقةٌ مختلفةٌ حقيقةً؛ لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الافتراق والاختلاف ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ولا يفهمون ما هو صلاحهم في الدارين وفلاحهم في النشأتين.

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ....

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ﴾ أي مثلُهم كمَثَلِ اليهود الذين مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ﴾ بزمانهم ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ في الدنيا من أنواع الهوان والخسار ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾﴾ في الآخرة التي هي دار البوار. بل مَثَلُهم:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على قتال المؤمنين كمثل الشيطان وقت ﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ﴾ أي كل فردٍ وفردٍ من أفراد الكفرة: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ حتى أعينك على عموم مقاصدك ومرامك ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الإنسان ـ العياذ بالله ـ بتغريره ﴿قَالَ﴾ له الشيطان بعد ما كفر: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ لا أعينك على شيء؛ لأنك كفرت بالله، وصرت عدواً لله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ القادرَ القاهرَ الغيورَ أن ينتقم عني بسبب معاونتك ومظاهرتك لكونه ﴿رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ فلا يجري التصرف في ملكه بلا إذنٍ منه سبحانه.

وبعدما كفر الإنسان بتغرير الشيطان وتلبيسه

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي عاقبة الشيطان والإنسان الذي كفر بتغريره ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ تابعاً ومتبوعاً، لا زماناً دون زمانٍ، بل وقعا ﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ مستمرَين أبداً ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الخلود في النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ الخارجين عن ربقة الرِّقِّية الإلهية وعروة عبوديته، بتلبيس الشيطان وتغريره.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله والاجتناب عن منهياته ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ واحذروا عن بطشه وانتقامه ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ﴾ أي كل واحدٍ من النفوس المجبولة على نظرة الدراية والشعور على وجه العبرة والاستبصار ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ وما ادخرت ليوم القيامة، وتزودت للنشأة الأخرى، بعد ما كُلّفت بأنواع التكاليف، وأُمرت لإعداد زاد المعاد على وجه المبالغة وكمال الإرشاد ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ المنتقم الغيور، واحذروا عن مخالفة أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ من خيرٍ وشرٍ، ونفعٍ وضرٍ، يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَكُونُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ أي كالغافلين الذين ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ أي ذكره المستلزم للإيمان، المستلزم للمحبة والعرفان ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ﴾ سبحانه ﴿أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي معرفتها المستلزمة لمعرفة الحق، وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز الحضور ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ المقصورون على الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ولوازم العبودية، الجاهلون بقدْر الألوهية مطلقاً.

واعلموا أيها المكلفون أنه:

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ منكم وملازموها، وهم الذين اقترفوا طولَ

وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ....

عمرهم من سيئات الأعمال وذمائم الأخلاق والأوصاف ما يستحقون دخول النار، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ وهم الذين اتصفوا بمحاسن الأعمال والأحوال ومحامد الأخلاق والأطوار المنتجة لهم أنواع المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات الفائضة عليهم حسب استنشاقهم من نسائم عالم اللاهوت واسترواحهم من فواتح حضرة الرحموت، وبالجملة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ المفلحون المقصورون في الدرجات العَليّة والمقامات السنية مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم وبخ سبحانه نوعَ الإنسان المجبول على فطرة الإيمان والعرفان، وقرّعهم بغفلتهم عن القرآن المرشدِ لهم إلى طريق التوحيد والإيقان بقوله:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ المنزل عليكم أيها التائهون في تيه الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ من الجبال العظام، واللهِ ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ أيها المعتبر الرائي أي الجبلَ ﴿خَٰشِعًا﴾ خاضعاً ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققاً ﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ القادرِ الغيورِ، يعني من تأثير الوعيدات الهائلة والإنذارات الشديدة الواقعة فيه على أهل التكليف، مع عدم قابليته على التأثر، وأنتم أيها الهلكى الحمقى الهالكون التائهون في تيه الجهل والضلال، مع كمال قابليتكم واستعدادكم، لا تتأثرون من وعيداته البليغة وإنذاراته الشديدة !

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ....

ثم قال سبحانه:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ الناسين مرتبة العبودية من كمال البطر ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ويتفطنون منها إلى فطرتهم الأصلية المجبولة على التذلل والخشوع والانكسار والخضوع، فيشتغلون بما جُبلوا لأجله من الإتيان بالطاعات وأنواع العبادات اللائقة لمرتبة الألوهية والربوبية.

وكيف لا تتذللون له سبحانه أيها الحمقى الهالكون؟

مع أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي الموجود الحق الحقيق ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾ ولا موجودَ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ ۖ﴾ الواحدُ الأحدُ الصمدُ، المستقلُ بالألوهية والربوبية ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ على التفصيل الواقع في الواقع، بحيث لا يعزب عن حيطة علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، ومع ذلك ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على عموم الأكوان بإفاضة الوجود عليهم وتربيتهم وتدبير مصالحهم في النشأة الأولى ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ لهم يوصلهم إلى فضاء وحدته، وسعة جنته ورحمته في النشأة الأخرى. وبالجملة

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ المتوحدُ بالألوهية والربوبية، المتوحدُ بالقيومية، المتفردُ بالديمومية ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾ يُعبد بالحق، ويُرجع إليه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ﴾ باستقلاله وصمديته في ذاته وقيوميته في ملكه وملكوته بحسب

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ ....

مقتضيات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، إذ هو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المتفرد بالحكم والاستيلاء التام والسلطنة الغالبة ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة إلى أقصى الغاية والنهاية ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ السالم عن مطلق النقائص ولوازم الاستكمال ولواحق الإمكان ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ ذو الأمن والأمان على عموم الأعيان والأكوان ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ المراقبُ المحافظُ على مقتضيات استعدادات عموم الأنام بكمال العدل والإحسان ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على عموم مراداته ومقدوراته بالفضل والامتنان ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ على عموم من خرج عن ربقة عبوديته بالإنكار والطغيان ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ المتعالي عن كل أمرٍ يَشِيْنه من العجز والنقصان. وبالجملة ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزه وتعالى ذاته وشأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ويثبتون له المشركون المفرطون علواً كبيراً.

كيف يشركون معه غيره أولئك المسرفون

مع أنه سبحانه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقصور المنحصر المستقل على خلق الأشياء وتقديرها وإيجادها وإظهارها من كتم العدم بمقتضى حكمته بالإرادة والاختيار ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجدُ لها بمقتضى اسمه الرحمن بلا تفاوتٍ ونقصانٍ ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ لصور الأشياء وهياكلها وأشكالها على أبلغ نظامٍ وأعجبِ شأنٍ، ولا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، وبالجملة ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي لا تعد[1] ولا

(١) في المخطوط (لا يعد ولا يحصى).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

تحصى، يتجلى على مقتضاها في كل آنٍ في شأن، لذلك ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ وينزهه على الدوام عن كل ما لا يليق بشأنه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ القادرُ على عموم ما أحاط به علمُه ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ المدبِّر المتقنُ على مقتضى علمه وإرادته بلا مدافعةِ أحدٍ ومظاهرته.

جعلنا الله ممن تحقق بوحدة ذاته، وانكشف بكمالات أسمائه وصفاته.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحققُ بمقر التوحيد، المنكشفُ بوحدة الذات وكمالات الأسماء والصفات الذاتية الإلهية، مكَّنك الله في مقر عزِّك بلا تذبذبٍ وتلوينٍ: أن تطالع آثار أسمائه الحسنى وصفاته العليا على صفحات الكائنات الغيبية والشهادية، وتعتبرَ منها حسب استعدادك وقدْرَ قابليتك المودعة فيك من قِبَل الحق.

وإياك إياك أن تنحرف عن جادة العدالة الشرعية، التي هي منتخبةٌ عن العدالة الإلهية الواقعة بين مقتضيات أسمائه الذاتية وصفاته العَلِيَّة، فلك أن تطابقَ عمومَ أعمالك وأخلاقك وأطوارك عليها، بحيث لا تُهمِل شيئاً من دقائقها، إذ بقدر إهمالك من حدودها، أحطتَ عن درجة التوحيد ومرتبة أهل الوحدة الذاتية، إذ الشريعة إنما هي الوقاية الموضوعة بالوضع الإلهي بين الأنام؛ ليوفقهم الحق بها إلى دار السلام التي هي مقعدُ صِدْقِ الرضا والتسليم، الذي هو أعلى مقامات العارفين، وأقصى حالات الموحدين المكاشفين.

هدانا الله وعموم عباده إلى سواء السبيل، وأعاذنا الله وإياهم عن الانحراف والتحويل، بلطفه الجميل وكرمه الجزيل.

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الممتحنة

لا يخفى على من تمكن بمقام التوحيد وانكشف بسرائر الوحدة الذاتية مقدار ما يسَّر الله له، ووفَّقه عليه فضلاً منه سبحانه وعنايةً: أن من تقرّر في مقرّ عزّ الوحدة، لابد أن يجتنب عن أصحاب الغفلة والكثرات، المترددين في أودية الضلالات بأنواع الحيرة والحسرات، ويعيشون في بقعة الإمكان بأنواع الخيبة والخذلان، فلابد لأرباب الرسوخ والتمكن من الموحدين المخلصين أن لا يصاحبوا معهم، ولا يوالوهم موالاتهم مع الموحدين، ولا يلتفتوا إليهم، وإلى عموم أطوارهم وأحوالهم.

إنَّ عدوَ البليد إلى الجليد سريعةٌ، ولوازم الإمكان مشتركةٌ، وغواشي البشرية ساريةٌ، وطلسمات الطبيعة البهيمية سارقةٌ؛ لذلك أوصى سبحانه خلَّص عباده المؤمنين الموحدين بما أوصى، ونهاهم عما نهاهم من محبة الأعداء وموالاتهم في السراء والضراء، فقال منادياً لهم بعد التيمن باسمه الأعلى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾المصلح لأحوال عباده في كل حالٍ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم يحفظهم من سوء الأخلاق والأعمال ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوقظهم عن منام

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ....

الغفلة ويوصلهم إلى فضاء الوصال.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مقتضى اتصافكم بالإيمان بالله وبوحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته أن ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى ﴾ وهم الذين خرجوا من عروة عبوديتي بإثبات الوجود لغيري ﴿وَعَدُوَّكُمْ ﴾ إذ عداوتهم إياي مستلزمةٌ لعداوتهم إياكم أيضاً، إذ صديق العدو كعدو الصديق ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾ أحباء توالون معهم كأرباب المحبة والولاء وتُظهرون محبتهم ومودتهم إلى حيث ﴿تُلْقُونَ﴾ ترسلون ﴿إِلَيْهِم﴾ رسالةً مشعرةً ﴿ بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ الخالصة المنبئة عن إفراط المحبة والإخاء ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ كَفَرُواْ﴾ وأعرضوا ﴿ بِمَا جَآءَكُم ﴾ أي بعموم ما نَزَل على رسولكم ﴿مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ الحقيق بالإطاعة والاتّباع، وبالغوا في الإعراض والإنكار إلى حيث ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ أصالةً ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ تبعاً بواسطة ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم على فطرة التوحيد والإيمان، وقبولِ دين الإسلام من النبي المبعوث إلى كافة الأنام ليرشدهم إلى دار السلام.

وبالجملة ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون الموحدون ﴿خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم وبقاع إمكانكم ﴿جِهَـٰدًا﴾ أي لأجل الجهاد والقتال ﴿فِى سَبِيلِى﴾ أي سبيل توحيدي وترويج ديني وإعلاء كلمة توحيدي ﴿وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ﴾ في امتثال

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ......

أمري وإطاعة حُكمي فلزمكم ترك موالاة أعدائي والمؤاخاة معهم مع أنكم أنتم ﴿تُسِرُّونَ﴾ وتخفون ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ ظناً منكم أني لا أطّلع على ما في سرائركم وضمائركم من محبة الأعداء ومودتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي بجميع ما تسرون وما تعلنون ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي الاتخاذ المذكور ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ أي انحرف عن جادة العدالة الإلهية، ومالَ عن الصراط المستقيم الموصلِ إلى مقصد التوحيد.

واعلموا أيها المؤمنون أنكم وإن بالغتم في إظهار المحبة والمودة بالنسبة إليهم، وهم بمكانٍ من العداوة وشدة الخصومة إلى حيث .

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ ويظفروا منكم بالفرض والتقدير ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ البتة، بل يُظهروا العداوة ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والأسر وقطع العضو والشتم المفرط وأنواع الوقاحة، بل ﴿وَوَدُّوا﴾ وتمنَّوا في أنفسهم دائماً ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ وترتدون عن دينكم وتلتحقون بكفرهم، فعليكم أن لا تبالوا بأقاربكم وأرحامكم من الكفرة ولا تلتفتوا نحوهم.

إذ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين أنتم توالون المشركين لأجلهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعدة لتنقيد الأعمال الصادرة عن كل نفس، إذ الله

يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ
وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ....

﴿ يَفْصِلُ ﴾ ويفرق ﴿ بَيْنَكُمْۚ ﴾ يومئذٍ، فيجازي كلاً منكم حسب ما كسبوا خيراً كان أو شراً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع على عموم أفعال عباده ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الحسنات والسيئات ﴿ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ يجازيكم عليه بمقتضى بصارته وخبرته.

ولا تستنكفوا عن حكم الله إياكم بقطع أرحامكم الكفرة وأقاربكم المشركين.

إذ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ ﴾ وقدوةٌ ﴿حَسَنَةٌ﴾ صالحةٌ لائقةٌ يؤتسى ويُقتدى بها، وكانت تلك القدوة نازلةً ﴿فِيٓ﴾ شأن ﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ المؤمنين له، المسترشدين من المتدينين بدينه، وقد كانوا يقولون بمقتضى تلك الأسوة الحسنة وقت ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ الذين هم أقاربهم وأرحامهم الكفرة وعبدة الأوثان: ﴿ إِنَّا ﴾ بعدما كُوشفنا بوحدة الحق ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ ﴾ بريئون ﴿ مِنكُمْ ﴾ لانهماككم في الشرك أيضاً ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من الأصنام والأوثان الباطلة العاطلة، وبالجملة ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبدينكم الباطل ومعبوداتكم العاطلة الباطلة ﴿وَ﴾ بعد اليوم ﴿ بَدَا ﴾ ظهرَ ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ لا نصالح ولا نواسي معكم أصلاً ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ وتتبرؤوا عن معبوداتكم الباطلة مثلنا، فعليكم أيها المؤمنون اليوم أن تأتسوا وتقتدوا

إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ....

لجميع ما قال إبراهيم عليه السلام ومن تَبِعه لقومهم فيما مضى ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الكافر: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ من الله يا أبي، وبالجملة اقتدوا أيها المؤمنون بجميع أطوار إبراهيم عليه السلام وأقواله سوى هذا القول لأبيه متعذراً منه بقوله: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ﴾ أي ما أقدر وأدفع منك ﴿مِنَ﴾ غضب ﴿ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿مِن شَيْءٍۖ﴾ نزلَ عليك بمقتضى قهره وسخطه سبحانه سوى الاستغفار والشفاعة، إنْ قَبِل الملك الغفار مني هذا، وذلك قبل ورود النهي عليه الصلاة والسلام عن ودادة أهل الكفر، أو صدر عنه هذا الموعود وعدها إياه.

وبعد ما أُمرتم أيها المؤمنون بمحبة الله ومحبة رسوله والذين آمنوا معه وتدينوا بدينه، ونُهيتم عن مودة الأعداء وموالاتهم ومواساة أخلاقهم وأطوارهم، قولوا مسترجعين إلى الله مناجين معه:

﴿رَّبَّنَا﴾ يا من ربانا على فطرة التوحيد والإسلام ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ في كل الأمور بلا رؤية الوسائل في البين ثقةً واعتماداً عليك ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ عُدنا ورجعنا في الخطوب وعموم الملمات لا إلى غيرك من الأسباب العادية ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ كما أن مصدره منك، إذ لا موجود سواك، ولا مقصدَ ولا مقصودَ غيرك.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ....

وبعدما وطنتنا في مقر توحيدك يا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنوا بنا، ويصيبونا بعذابٍ لا طاقةَ لنا بحمله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ ما فرط بمقتضى بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ المتقنُ في تدبير مصالح العباد، وما جرى عليهم في المعاش والمعاد.

ثم بالغ سبحانه في التأسي والاقتداء بملة إبراهيم عليه السلام وقدوته، فقال مؤكداً بالقسم:

واللهِ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيهِمْ﴾ أي في إبراهيم والذين معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ جريةٌ صالحةٌ يؤتسى ويُقتدى ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي التحقق برضاه والتسليم بقضاه، ﴿وَ﴾ يرجو ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ ليتحقق عند مولاه بما وعد له وهيأه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويعرض عن الله، ولم يؤمن بالوقوف بين يدي الله، فلن يضر الله شيئاً ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعززَ برداء العظمة والكبرياء ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المستغني بذاته، لا احتياج له إلى رجاء الراجين ومناجاتهم معه ورفع حاجاتهم إياه ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ حسب أسمائه وصفاته بلا افتقارٍ له إلى حمد الحامدين وشكر الشاكرين.

ثم لما ورد النهي الإلهي على وجه المبالغة والتأكيد عن موالاة ذوي

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ⁽٧⁾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ⁽٨⁾﴾ ....

الأرحام والأقارب من الكفرة، تبرأ المؤمنون من أقاربهم وعشائرهم المشركين، وعادوا معهم، إلا أنهم أضمروا في نفوسهم حزناً وغماً، فوعد الله سبحانه لهم إيمان أقاربهم تسليةً لهم وإزالةً لحزنهم فقال:

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ ﴾ ومحبةً خالصةً جامعةً بينكم وبينهم، ألا وهي الإسلام المسقِطُ لجميع الآثام ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع على ما في ضمائر عباده ﴿قَدِيرٞۚ﴾ على ذلك الجمع المستلزمِ للمودة ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على جمعكم ﴿غَفُورٞ﴾ لفرطاتكم التي صدرت منكم ﴿رَّحِيمٞ ⁽٧⁾﴾ يرحمكم بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم لما تحرَّج المؤمنون عن عدم موالاتهم مع أقربائهم الكفرة وذوي أرحامهم المشركين، إلى حيث قَدِمت قتيلةُ بنت عبد العزى مشركةً على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تأذن لها بالدخول، ولم تقبل هديتها، فنزلت:

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الحكيم العليم ﴿عَنِ﴾ المشركين ﴿ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ﴾ ولم ينهكم ﴿ أَن تَبَرُّوهُمۡ ﴾ ولا تحسنوا إليهم، إذ لا سبب للنهي عن ودادة هؤلاء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿ تُقۡسِطُوٓاْ ﴾ وتفيضوا ﴿ إِلَيۡهِمۡۚ ﴾ بالقسط الإلهي، على مقتضى الوصلة الموضوعة بينكم بالوضع الإلهي ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ⁽٨⁾﴾ المعتدلين في عموم الأحوال، سيما

إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ ....

على ذوي القربى.

بل ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿عَنِ﴾ موالاة أقربائكم ﴿ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ يعني مكة شرفها الله ﴿وَ﴾ الذين ﴿ظَٰهَرُواْ﴾ أعانوا ونصروا ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وإن لم يباشروا بجوارحهم، لكن أعانوا على المباشرين المخرجين بالقول والمال وإيقاع الفتنة، لذلك نهاكم سبحانه ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْۚ﴾ وتختلطوا معهم، وتوالوهم أي المجرمين والمعاونين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم بعد ورود النهي ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموالون ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ الخارجون عن مقتضى النهي الوارد من قِبَل الحق، فيستحقون العذاب الأليم بسبب خروجهم عن مقتضى النهي الإلهي، ثم قال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ المذعنات للإيمان حال كونهن ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من قِبل الكفار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ﴾ واختبروهن، وانظروا إليهن بنور الله المقتبس من مشكاة الإيمان، متفرسين هل تجدوهن مواطئةً قلوبهن، بألسنتهن مع أنه ﴿ ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على ما في قلوبهن ﴿ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ وبعدما تفرستم في شأنهن ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ وظننتموهن ﴿مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ ولا تردوهن ﴿ إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ﴾ حتى لا يصرن مرتداتٍ، وبالجملة بعد ظهور الإيمان منهن

لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ
إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ أي للأزواج الكفار ﴿وَلَا هُمْ﴾ أي الأزواج ﴿يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لاختلافهما في الدين ﴿وَ﴾ بعدما حفظتموهن وحكمتموهن بالإيمان، إن جاء أزواجهن في طلبهن ﴿ءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أي مهورهن ﴿وَ﴾ بعدما آتيتم وأعطيتم مهورهن لأزواجهن ﴿لَا جُنَاحَ﴾ أي لا ضيقَ ولا حرجَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن مرةً أخرى، مثل مهور سائر المؤمنات، ولا تحسبوا عليهن ما أعطيتم لأزواجهن من المهور ﴿وَ﴾ بعد ما ثبت أنه لا رخصةَ لكم في دينكم أن تردُّوا المؤمنات المهاجرات إلى الكفار ﴿لَا تُمْسِكُوا۟﴾ أي لا تُبقوا أيضاً أزواجكم أيها المؤمنون ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي لا تقيموا بعقود أزواجكم الكافرات الملحقات إلى الكفار، بل خلوا سبيلهن ﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ منهن ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ لهن من المهور بعد ما لحِقن بالكفار ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾ أي الكفار أيضاً منكم ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من المهور لأزواجهم المؤمنات المهاجرات الملحقات بكم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي جميع ما ذكر في الآية ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ المدَّبرِ لمصالحكم ﴿يَحْكُمُ﴾ به ﴿بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يحكم بما يقتضيه علمه وحكمته.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شَىْءٌ مِّنْ﴾ مهور ﴿أَزْوَٰجِكُمْ﴾ بعد ما لحقن

إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ....

﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولم يؤدوا جميع مهورهن إليكم ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ بعد ذلك، وغلبتم على الكفار المتمردين على أداء مهوركم، وأخذتم الغنائم منهم ﴿فَـَٔاتُوا۟﴾ وأعطوا أيها المؤمنون قبل القسمة ﴿ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ إلى الكفار ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ في مهور أزواجهم الكافرات الملحقات ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ ولا تضيعوا حق أخيكم المؤمن.

ثم قال سبحانه منادياً لنبيه على سبيل الإرشاد والتعليم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ ويقبلن منك مطلق الحقوق والحدود المعتبرة في الشرع سيما ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المنزه عن الشريك والولد ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإشراك ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ من حِرزِ إنسانٍ مالَه ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ سواءٌ كنَّ محصنات أو غير محصنات ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ﴾ كإسقاط جنينٍ، ووأد البنات، وغيرها ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني لا تأتي المرأة بشيءٍ فاحشٍ، إلى حيث تقذف بولدها[1] بأنه ليس من زوجها بسبب ذلك الشيء الذي صدر عنها، يبهت الناس بسببه، ووقعوا في الافتراء لأجله ﴿وَ﴾

(١) في المخطوط (ولدهن).

وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ
الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

بالجملة يبايعنك على أن ﴿لَا يَعْصِينَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ مستحسنٍ عقلاً وشرعاً تأمرهن بها أصلاً حالهن، وإذا بايعن معك على ترك الخصائل المذمومة ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أيضاً ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ بما صدر منهن قبل البيعة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلعَ على ما في نياتهن من الإخلاص ﴿غَفُورٌ﴾ يغفرهن بعدما أخلصن ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يقبل توبتهن.

ثم لما واصل بعض فقراء المسلمين اليهودَ؛ ليصيبوا من ثمارهم نزلت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترك مواصلة اليهود ومصاحبتهم ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامة المشركين؛ لأنهم ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾ وقنطوا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لذلك لم يؤمنوا بها وبما فيها من المواعيد والوعيدات الهائلة ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ يعني مثل يأسهم من البعث، وحشرِ أصحاب القبور، وإخراجِهم منها أحياءً، ووقوفهم بين يدي الله، فعليكم أن لا تصاحبوا معهم إن كنتم مؤمنين مصدقين بها.

جعلنا الله من المصدقين بيوم الدين، وبعموم ما فيه من المؤمنين الموقنين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي مكّنك الله في مقر عز التوحيد واليقين، وجنَّبك عن طريان التردد والتلوين: أن لا تصاحب أهل الغفلة وأصحاب الجهالات المنهمكين في بحار الأوهام والخيالات الموروثة لهم من مقتضيات الإمكان المستلزم لأنواع الخذلان والهوان، فلك أن تلازم زاوية الخمول بالعفاف، قانعاً من الدنيا بالكفاف، مجتنباً عن مخائل أصحاب الجزاف، متوكلاً على الصمد المعين، متوجهاً نحوه في كل تحريكٍ وتسكينٍ، راضياً بما جرى عليك من القضاء، مطمئناً بما وصل إليك من العطاء، شاكراً لنعم الله في السراء والضراء، مقتصداً بين الخوف والرجاء، مفوضاً عموم أمورك إلى المولى، متعطشاً في جميع أحوالك إلى شرف اللقاء، وما هي إلا جنة المأوى، وسدرة المنتهى.

رزقنا الله وعموم عباده الوصول إليها، والتحقق دونها بمنِّه وجوده.

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الصف

لا يخفى على من تحقق بمرتبة اليقين الحقي، وتمكن عليها بعد ترقيه عن اليقين العلمي والعيني، وخَلَصَ عن مطلق التلوين والتخمين، وغاصَ في لجَّة بحر الوجود، متصفاً بأنواع الكشف والشهود، واستغرق في الحوض المورود، ووصل إلى المقام المحمود: أن ما صدر عن أمثال هؤلاء الواصلين من الأعمال والأقوال وعموم المقامات والأحوال، إنما هو على مقتضى الاعتدال، مائلاً عن كِلا طرفي الإفراط والتفريط، إذ الواصلون إنما هم المتخلقون بأخلاق الله، المتصفون بأوصافه المعتدلة وأسمائه الغير المتبدلة؛ والمؤمنون المخلصون لابد وأن يكون عموم مقاصدهم منتهيةً إلى الوصول بالوحدة والتحقق بالتخلق بعموم الأوصاف الذاتية الإلهية، بل تَوجُّه جميع المظاهر إنما هو على هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى، لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بتوجُّه عموم مظاهره نحوه.

ثم نادى المؤمنين بما نادى إرشاداً لهم وإصلاحاً لحالهم، فقال بعد التيمن باسمه العزيز:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى على ما تجلى بمقتضى العدالة ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بوضع الميزان الموصِل لهم إلى طريق الجنان ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ....

يوصلهم إلى فضاء الوجوب بعد انخلاعهم عن لوازم الإمكان.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونزَّهه بكمال التقديس والتنزيه جميعُ ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي السفليات ﴿وَ﴾ كيف لا يتوجه نحوه عموم الموجودات إذ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على مطلق المقدورات والمرادات ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ المتقِن في جميع التدبيرات والتقديرات.

ثم لما عاهد المسلمون مع الله عند رسول الله ﷺ، وقالوا: لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [٦١-الصف:٤] الآية، فولوا يوم أحدٍ منهزمين، ولم يوفوا بعهدهم، فنزلت:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم الوفاء بالعهد ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ وقت المعاهدة والميثاق مع الله ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ ولا توفون وقت الوفاء.

واعلموا أيها المؤمنون أنه .

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ وعظُم جريمةً وذنباً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ وتعاهدوا معه سبحانه ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ وقت الوفاء، ولا تُنجزوا المعهود الموعود.

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ
﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ
ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ....

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ لترويج دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿صَفًّا﴾ مصطفين مظاهرين متعاونين ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ منضدٌ محكمٌ، مضممٌ بعضها مع بعض، بحيث لا فرج فيها ولا شقوق.

ثم اعلموا أن عدم وفائكم بالعهود لا ينقص شيئاً من عظمته، كما أن وفاءكم لا تزيد فيها، لكن نقضكم الميثاق يؤذي النبيَ وإيذاءُ النبيِّ مستلزمٌ لإيذاء اللهِ وبغضِه وإرادتِه المقت والغضب على المؤذي.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمناقضين قصةَ تأذي أخيك موسى الكليم صلوات الله عليه من قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ حين رموه بالبَغِيَّة وعيَّروه بالأُدْرَة: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ناداهم وأضافهم إلى نفسه على مقتضى ملاينة أرباب الرسالة مع أممهم؛ لينزجروا عن سوء الأدب ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة البعيدة بمراحلَ عن الصدق ﴿وَ﴾ الحالُ أنكم ﴿قَد تَّعْلَمُونَ﴾ يقيناً بما جئت لكم من المعجزات الساطعة الدالة على صدقي في دعواي ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ المرسلُ من عنده بمقتضى وحيه ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لإرشادكم إلى سبيل الهداية الموصلة إلى معرفة الحق

فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ
مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا
بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ....

وتوحيده، ومقتضى علمكم أن لا تؤذوني، فلم تؤذونني؟!

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ ومالوا عن الحق وانحرفوا عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ﴾ المقلب للقلوب ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ وصَرَفَها عن قبول الحق والميل إليه، فضلّوا عن سواء السبيل، واستحقوا الويل العظيم والعذاب الأليم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية، التي هي الهداية الموصلة إلى معرفة الحق وتوحيده.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل أيضاً وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أخوك ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ منادياً لقومه ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أرسلني لإرشادكم إلى طريق الحق وصراط توحيده لأكون ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ المنزلة من عنده سبحانه، لضبط ظواهر الأحكام والأخلاق المستتبعة لتهذيب الباطن عن مطلق الزيغ والضلال، المنافية لصفاء مشرب التوحيد ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾ أيضاً أبشركم ﴿بِرَسُولٍ﴾ كاملٍ في الرسالة، متممٍ لمكارم الأخلاق ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ مظهرٍ لتوحيد الذات خاتمٍ لأمر الرسالة والتشريع ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ سُمِّي به ﷺ لكون حمده أتم وأشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل، إذ محامدهم لله إنما هو بمقتضى توحيد الصفات والأفعال، وحمده ﷺ بحسب توحيد

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ....

الذات، المستوعب لتوحيد الأفعال والصفات.

وبعد ما أظهر عيسى صلوات الله عليه دعوته طالبوه بالبينة الدالة على صدقه

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات والمعجزات الساطعات التي هي أكثر من معجزات موسى، وبعدما رأوا منه ما رأوا من الخوارق التي ما ظهر مثلها من الأنبياء، بادروا إلى تكذيبه مكابرةً وعناداً، حيث ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أي عيسى عليه السلام، أو ما جاء به من المعجزات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ ظاهرٌ كونُه سحراً، أو كماله في السحر إلى حيث كأنه تجسم منه، وليس تكذيبهم إياه صلوات الله عليه بعد وضوح البرهان ونسبته إلى شيءٍ لا يليق بشأنه، إلا خروجٌ عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة لأداء حقوق العبودية.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ وأشد خروجاً عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الحكيم المتقن في أفعاله ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ ونسب ما أنزله سبحانه من المعجزات الدالة على صدق رسوله، المؤيد من عنده بالنفس القدسية، المبعوثِ إلى الناس ليرشدهم إلى طريق توحيده ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ أي المفتري الظالم ﴿يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ المتقدس عن جميع الآثام، لو قَبِلَه وصدَّقه وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي، وهو من غاية عتوه وعناده

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ

في موضع الإجابة والقبول يرده ويكذبه، وينسب معجزات الداعي إلى السحر والشعبذة مراءً وافتراءً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ الخارجين عن مقتضى الفطرة الأصلية الإلهية التي فطرَ الناس عليها، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لذلك يخرجون، وليس غرضهم من هذا الافتراء والتكذيب بعد وضوح ظهور الحجج الواضحة والبراهين الساطعة.

إلا أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بفتنتهم هذه ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المتشعشع من مطالع عموم الكائنات ومشارق جميع الذرات، ألا وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لتبيين توحيد الذات ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بمجرد قولهم الباطل الزاهق الزائل، بلا مستندٍ عقلي أو نقلي، فكيف عن كشفي وشهودي ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مبالغٌ في إشاعته وإشراقه غايتها ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ ظهوره وشيوعه، إرغاماً لهم وإذلالاً.

وكيف لا يتم سبحانه شيوع نور وحدته الذاتية ؟

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمداً ﷺ ولمصلحة هذا التتميم والتكميل، وأيده ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ والقرآن العظيم ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والملة الحنيفية السمحة البيضاء الموروثة له من جده إبراهيم ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ويغلبه أي الدين القويم المبين لصراط الحق وطريق توحيده الذاتي ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي على عموم

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ....

الملل والأديان الواردة لبيان توحيد الصفات والأفعال ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ ظهورَ توحيد الحق، لما فيه من قطع عرق الشرك، جلياً كان أو خفياً.

ثم قال سبحانه بعدما أشار إلى ظهور دين الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد حثاً على المؤمنين، وترغيباً لهم إلى ترويج الدين القويم الذي هو الصراطُ المستقيم، الموصلُ إلى مرتبة حق اليقين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ كأنه قيل ما التجارة المنقذة المنجية؟

قال سبحانه:

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لترويج دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ ببذلها في الخطوب ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالاقتحام على الحروب ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذُكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ونفعُه عائدٌ إليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ ما هو أصلح لكم، وأنفع في نشأتكم الأولى والأخرى.

وإن تؤمنوا بالله وتصدِّقوا رسولَه وتجاهدوا في سبيله:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ التي أتيتم بها قبل ذلك ﴿وَ﴾ بعد ما نغفر ذنوبكم ﴿يُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ منتزهاتِ العلم والعين والحق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والحقائق المترشحة من بحر الحياة التي هي حضرة العلم

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ....

الإلهي ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ من الحالات والمقامات السَّنية والدرجات العلية ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ التي هي المعرفة واليقين، مصونةٍ عن شوب الشرك، وريبِ الحسبان والتخمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الستر والإدخال هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ والفضلُ الكريم على أرباب المعرفة واليقين من الله العزيز العليم.

﴿وَ﴾ لكم أيها المعتبرون المجاهدون عنده سبحانه نعمةٌ ﴿أُخۡرَىٰ﴾ من النعم التي ﴿تُحِبُّونَهَاۖ﴾ وهي ﴿نَصۡرٞ﴾ نازلٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ العزيز الحكيم عليكم، إلى حيث يغلبكم على عموم أعدائكم ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ في العاجل ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ المجاهدين يا أكمل الرسل بأنواع البشارات الدنيوية والأخروية، ثم قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم نصرة دين الله وتقوية رسوله ﴿كُونُوٓاْ﴾ بأموالكم وأنفسكم ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وأنصارَ رسوله، وقولوا في مقابلة نبيكم ما قال الحواريون في مقابلة عيسى عليه السلام ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ مختبراً إخلاصهم ومحبتهم ونهاية مرتبتهم في اليقين ودرجتهم في أعلى عليين: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾ وأعواني في توجهي ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وانتشار توحيده بين أظلاله المستمدين من أظلال أوصافه وأسمائه.

قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ من كمال انكشافهم بالله وتوحيده، وتحققهم في مقام الشهود، وتمكنهم فيه: ﴿نَحۡنُ﴾ الفانون في الله، الباقون ببقائه، المستغرقون بمطالعة لقائه ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ وأحباؤه، إذ لا مرجعَ لنا سواه، ولا مقصدَ إلا إياه.

والحواريون هم أول من آمن بعيسى عليه السلام من الحور، وهو البياض، وهم اثنا عشر سُموا به لصفاء عقائدهم عن التردد والتلوين.

وبعدما أظهر عيسى عليه السلام دعوته بين الأنام:

﴿فَـَٔامَنَت﴾ به عليه السلام ﴿طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت﴾ به عليه السلام ﴿طَّآئِفَةٞۖ﴾ أخرى منهم، وبعد وقوع الخلاف والاختلاف ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ وغَلَّبنا الطائفة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منهم ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ يعني الطائفة الذين كفروا به عليه السلام ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ وصاروا أي المؤمنون ﴿ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ غالبين على الكَفَرة بالحراب والحجة، ألا إن حزب الله هم الغالبون.

جعلنا الله وعموم عباده من محبيهم ومقتفي أثرهم بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المنجذبُ نحو الحق، المنخرطُ في سلوك أرباب التوحيد الملقَّبين بأنصار الله، المهاجرين عن كورة بقعة الناسوت نحو مدينة الوحدة اللاهوتية، وسواد أعظم الفقر، أعانك الله إلى أن تصل أقصى مرامك وأعلى مقامك من المعرفة والتوحيد: أن تجمع همك، وتشمر ذيلك لسلوك سبيل الفناء من طريق الموت الإرادي المثمر للفناء المطلق عن الفناء أيضاً؛ لتفوز بالبقاء الأزلي السرمدي، ألا وهي طريقة الحضرة الختمية المحمدية، المبعوث إلى كافة البرية؛ لبيان طريق التوحيد الذاتي المسقط لجميع الكثرات.

فلك أن تصفي سرك وضميرك عن نقوش مطلق المعتقدات، وصور عموم الرسوم والعادات المنافية لصرافة الوحدة الذاتية، وتقتفي أثر نبيك ﷺ أمثال الحواريين أثر نبيهم بلا شوبٍ وريبٍ؛ لينكشف لك طريق المعرفة واليقين، بعد توفيق الله وجذبٍ من جانبه، وطولِ خدمته الشريفة النبوية والنواميس المصطفوية، وإياك إياك الالتفات إلى الدنيا وما فيها؛ ليمكن لك التصفية والتخلية، التي هي مقدمة الكشف والشهود.

هدانا الله إلى سبيل توحيده بفضله وطوله.

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الجمعة

لا يخفى على من انكشف له سرائر مرتبتي النبوة والولاية المتشعبتين عن حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه، المشتمل على ما كان ويكون وقلمِ تقديره المصوِّر لنفوس الأظلال والسوى الظاهرة على مرآة العدم حسب الإرادة الكاملة والحكمة الباهرة الإلهية المقتضية لها: أن ظهور هاتين المرتبتين، إنما هو بالوهب الإلهي بلا جريان الاكتساب بالآلات والأسباب على مقتضى جري العادة في العلوم الرسمية الحاصلة باستعمال القوى المدركة الإنسانية.

لذلك أخبر سبحانه عن كمال قدرته على بعث الرسول الأمي الأكمل من جميع الرسل على الأميين، بلا وسائل الإملاء والإنشاء، وختم ببعثته ﷺ أمر الإرشاد والتكميل الذي هو المقصود الأصلي من مرتبة الرسالة والنبوة.

فقال سبحانه بعدما نبه على أهل التوحيد برجوع عموم الكائنات نحوه سبحانه بكمال التوحيد والتسبيح والتقديس عما لا يليق بشأنه بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ الذي أظهر جميع الأشياء بكمال قدرته من كتم العدم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى
بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ....

بلا سبق مادةٍ ومدةٍ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم الأكوان ببعث الرسل من نوع الإنسان المصوَّر بصورة الرحمن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم، يهديهم إلى روض الجنان، ويشوقهم بلقاء الجنان.

لذلك ﴿يُسَبِّحُ﴾ ويقدس ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن مطلق التحديد مظاهرُ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تسبيحاً وتقديساً، مقروناً بكمال التذلل والخضوع إلى ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ المتسلط بالاستيلاء التام والسلطنة القاهرة الغالبة على مملكة الوجود ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ المنزهِ الطاهرِ ذاتُه عن سِمة الحدوث ووَصْمة الإمكان ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ على عموم المقدورات بكمال الاستيلاء والاستقلال ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ المتقِن في مطلق التدابير الجارية في عالم التصاوير، بلا فتورٍ وقصورٍ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ بمقتضى كمال قدرته وحكمته ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ المنسلخين عن مطلق الإملاء والإنشاء المشعر بالتدبر والتفكر بمقتضى العقل الفطري الموهَب لهم من حضرة العليم الحكيم ﴿رَسُولًا﴾ أمياً أمثالهم، ناشئاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ وأيده بروح القدس بعد ما أصفاه من دنس الجهل، واصطفاه من بين الملل، وفضَّله على جميع أرباب النحل، وجعله في كمال المعارف والحقائق الإلهية بحيث ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ عموم ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالة على وحدة ذاته، وعلى كمال أسمائه وصفاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن مطلق النقائص والآثام

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ ....

المنافية لدين الإسلام المبين للتوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآنَ الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والأحكام على أبلغ بيانٍ وأبدع نظامٍ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الأحكام الشرعية المنزلة من عند العليم الحكيم العلّام ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي وإنهم كانوا قبل بعثته ﷺ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ وغوايةٍ ظاهرةٍ؛ لأنهم كانوا على فترةٍ من الرسل.

﴿وَ﴾ لم يختص بعثته ﷺ بالأميين من الأعراب الموجودين عند بعثته ﷺ بل يعمّ ﴿ءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ أي من عموم المكلفين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾ أي حين يتبعوا بالأولين إلى يوم القيامة، إذ خُتم ببعثته ﷺ أمر البعثة، وكمُل عند ظهوره ﷺ بنيان الدين القويم الذي هو صراط التوحيد الذاتي ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على عموم التقادير ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ المطلق في جميع الأفعال والتدابير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التوحيد الذاتي الذي ظهر به ﷺ رحمةً للعالمين ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ العزيز الحكيم ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ من عباده بلا سبق الوسائل والأسباب العادية ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ الذي لا يُكتنه وصف فضله وطَوله أصلاً.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ
بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ

ثم قال سبحانه تعريضاً على الكفرة المنكرين لنبوة محمد ﷺ مع أنه قد ورد في كتبهم المنزلة عليهم بعثته وحليته ﷺ، وهم مؤمنون بها، مصدقون بجميع ما فيها، سوى بعثته ﷺ، وما جاء فيها من أوصافه ﷺ الدالة على علوِّ شأنه ورفعة قدره ومكانه، وبالجملة:

﴿مَثَلُ﴾ القوم ﴿ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أي علموها وكُلِّفوا بما فيها من الأوامر والنواهي ومطلق الأحكام ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ولم ينتفعوا ولم يصدّقوا بما فيها سيما نعوت الحضرة الختمية المحمدية ﷺ مَثَلُهم في حمل التوراة عليهم وتكليفاً لهم ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ ﴾ كتباً من العلم يُحمل عليه ويتعب بثقلها، ولا ينتفع بها ﴿ بِئْسَ ﴾ المثلُ ﴿ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ الدالة على عظمة ذاته ومتانة حكمه وحكمته في عموم مأموراته ومنهياته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ العليم الحكيم المتقِن في أفعاله ﴿ لَا يَهْدِى ﴾ إلى توحيده ﴿ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ الخارجين عن مقتضى عبوديته بمتابعة شياطين أمّاراتهم بسوء.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل على سبيل التبكيت والإلزام نيابةً عنا لليهود الذين يدّعون محبة الله وولايته بقولهم: نحن أولياء الله وأحباؤه منادياً لهم متهكماً معهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ ﴾ وتهودوا ﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ ﴾ المقرب لكم إلى الله، إذ الانتقال من دار الغرور إلى دار

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ....

السرور تقربكم إلى الرحيم الغفور ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ في دعوى المحبة والولاء، فتمنوه.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ أي لا يتمنّى أحدٌ منهم الموت أصلاً ﴿أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ أي بسبب ما قدموا، واقترفوا بأنفسهم من الكفر والعصيان وأنواع الفسوق والطغيان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع بعموم ما في استعدادات عباده ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ وبما في ضمائرهم من المحبة والقساوة يجازيهم على مقتضى علمه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما أعرضوا عن تمني الموت وابتغائه طلباً لمرضاة الله وشوقاً إليه أيضاً على وجه التبكيت والإلزام: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تمنوه بلسانكم مخافة أنه لا يلحقكم، بل تفرون عن مجرد التلفظ به فكيف عن لحوقه ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ﴾ ملاصقكم ولاحقٌ بكم حتماً، إذ كل نفسٍ ذائقةُ كأس الموت، وكل حي لابد وأن يموت، سوى الحيّ الذي لا يموت ولا يفوت ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تموتون ﴿تُرَدُّونَ﴾ وتحشرون نحو المحشر وتعرضون ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بعلمه الحضوري ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويخبركم حينئذٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ من خيرٍ وشرٍ، فيجازيكم عليهما.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ....

ثم لما تهاون المسلمون في أمر الجمعة وتكاسلوا في الاجتماع قبل الصلاة بل انفضوا وصرفوا عن الجامع حين خطب رسول الله ﷺ، حين سمعوا صداء الملاهي المعهودة لمجيء العير على ما هو عادتهم دائماً، عاتبهم الله سبحانه، وأنزل عليهم الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم المبادرة إلى مطلق الطاعات سيما ﴿ إِذَا نُودِيَ ﴾ وأُذن ﴿ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ أي في يوم الجمعة، وهو الأذان المعهود قبيل الجمعة ﴿ فَٱسۡعَوۡاْ﴾ مسرعين مجيبين ﴿ إِلَىٰ﴾ سماع ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ في الخطبة والتذكيرات الواردة فيها ﴿وَذَرُواْ﴾ واتركوا ﴿ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ بعد سماع الأذان ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي تركُ البيع والانصرافُ نحو المسجد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ وأنفعُ في عقابكم ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ صلاحكم وإفسادكم في أولاكم وأخراكم.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ﴾ وأُديت ﴿ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ المكتوبة لكم يوم الجمعة مع الإمام ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي﴾ أقطار ﴿ ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ﴾ واطلبوا حوائجكم ﴿ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه وسعة جوده وإنعامه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ المنعمَ المفضلَ عليكم ﴿ كَثِيرٗا ﴾ في عموم أحوالكم وأعمالكم، ولا تحصروا ولا تقصروا ذكره في الصلوات المفروضة فقط، بل اشتغلوا بذكره في عموم الأوقات والحالات، بالقلب واللسان وسائر الجوارح والأركان، إذ ما من

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

شيءٍ إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إلا قليلاً، وواظبوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ وتفوزون بخير الدارين.

﴿وَ﴾ هم من غاية حرصهم على مقتضيات القوى البهيمية بعد ما كانوا في الجامع عند سماع الخطبة ﴿إِذَا رَأَوْا﴾ وسمعوا ﴿تِجَارَةً﴾ حاضرةً تدير الناس حولها ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ طبلاً مخبراً لهم على مجيء العير ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي مالوا وتحركوا نحوها مسرعين، فخرجوا من الجامع سوى اثني عشر من الرجال والنساء[1] ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَائِمًا﴾ على المنبر، وما هي إلا ثلمةٌ ظهرت في الدين المستبين، موجبةٌ مقتضية للتهاون بأحكام الشرع المتين حدثت فيما بينهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إزاحةً لها وإزالة لما يتفرع عليها ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من المثوبات الأخروية الموجبة للدرجات العَليّة والمقامات السَّنية ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلح بحالكم، وأعظم نفعاً، وأبقى فائدةً ﴿مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ إذ لا نفعَ لها عند أهل الحق، وإن فُرض فهو متناهٍ زائلٌ عن قريبٍ بخلاف الكرامة الأخروية، فإنها تدوم أبداً ﴿وَ﴾ إن عللوا انفضاضهم بتحصيل الرزق الصوري، قل لهم يا أكمل الرسل ﴿اللَّهُ﴾ المظهر لكم من كتم العدم، المدبرُ المربي لأشباحكم بما ليس في وسعكم ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ يرزقكم من حيث لا تحتسبون، إن توكلتم عليه مخلصين، وفوضتم أموركم إليه سبحانه، واثقين بكرمه العميم وجوده العظيم.

(١) في المخطوط (سوى اثني عشر من الرجل والمرأة).

خاتمة السورة

عليك أيها الموحِّدُ الخائض لجج بحر الوجود، المتحققُ بمقام الكشف والشهود، مكّنك الله في مقر عز الوحدة، وجنَّبك عن الزيغ والضلال: أن تتوكل على الله وتتخذه وكيلاً وتفوِّضَ أمورك كلها إليه، وتجعله كفيلاً، فعليك أن لا تشتغل عن الله في آنٍ وشأنٍ، ولا تغفل عنه في حينٍ من الأحيان، سيما في أمر الرزق الصوري الضروري المقدَّر عند الله المدبرِ الحكيم لكل من دخل في حيطة الوجود، وظهر على صورة الموجود، فإنه يصل على من يصل حسب إرادة الله ومشيئته.

وإياك إياك أن تطلبه بالتجارة والسؤال، بل لك أن تستعمل آلاتك الموهوبة لك من عند العليم الحكيم إلى ما جُبلتَ لأجله، لتكون من زمرة الشاكرين المتوكلين.

وبالجملة: الرزق على الله، ولا تكن من القانطين، واعبد ربك واشكر على آلائه ونعمائه حتى يأتيك اليقين.

ربنا اجعلنا بلطفك من زمرة الشاكرين آمين.

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة المنافقون

لا يخفى على من وصل إلى مرتبة حق اليقين، وتمكن في مقعد الصدق مع الموقنين: أن الكذب والافتراء والمراء والجدال الواقع بين أصحاب الضلال والآراء في عالم الكون والفساد دائماً، هو من عدم الوصول إلى كعبة الوجود وقبلة الواجد والموجود، ومن عدم التحقق بمقام الرضاء والتسليم، الحاصل من كمال المعرفة واليقين، وإلا فلا يقع ويصدر من الموقنين الواصلين أمثالُ هذه الجرائم المنبئة عن النفاق والشقاق المستلزمِ للجهل والغفلة عن الله الظاهرِ المتجلي في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق.

ولهذا أخبر سبحانه حبيبه ﷺ بما أخبر من إخبار أهل النفاق، ونبَّه عليه ما نبَّه من ضلالهم، فقال بعد التيمن:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحاط علمه بما لا يتناهى من المعلومات ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على عموم عباده بأمر المعروف ونهي المنكرات ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يهديهم إلى سبيل السلامة وطريق النجاة.

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ ....

﴿إِذَا جَآءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ على سبيل الملاينة والخداع تغريراً لك ولمن تبعك من المؤمنين ﴿قَالُوا۟﴾ مبالغين في إظهار الإيمان مؤكدين: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي نقرُّ ونعترفُ عن صميم الفؤاد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ أرسلك الحق على الحق بالحق ﴿وَ﴾ بعد ما أكّدوا شهادتهم تأكيداً على تأكيدٍ، بالغوا أيضاً في التأكيد لتكميل التقرير والتنوير حيث قالوا: ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلعُ على السرائر والخفايا ﴿يَعْلَمُ﴾ ويشهد ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، هم وإن بالغوا في شهادتهم الكاذبة على سبيل التزوير والتلبيس ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلعُ على ما في ضمائرهم من النفاق والشقاق ﴿يَشْهَدُ﴾ حتماً ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المصرِّين على ما هم عليه من الكفر والإنكار ﴿لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ في شهادتهم المزورة الصادرة منهم على وجه المبالغة والتأكيد، وبالجملة

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ المغلّظة الحاصلة من شهادتهم المؤكدة بها ﴿جُنَّةً﴾ جعلوها وقايةً لأموالهم وأنفسهم ﴿فَصَدُّوا۟﴾ وصرفوا غزاة المسلمين بسبب ذلك الحلف الكاذب ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الذي هو قتالهم وأسرهم ونهبهم، وبالجملة ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ من الصدّ والنفاق، والإصرار على الشقاق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اجتراؤهم على تلك الشهادة على وجه المراء والنفاق

بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ ....

وإصرارهم على الكفر والشقاق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ءَامَنُوا۟﴾ أولاً بالله وبرسوله، وأقرّوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم على وجه النفاق صوناً لأموالهم وأنفسهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعد ما آمنوا عن مكر المؤمنين ﴿فَطُبِعَ﴾ الكفرُ حينئذٍ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ورسخَ فيها واستحكمَ، وبعد الطبع والتمرن ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ ولا يفهمون حقية الإيمان ولذّته وصحبته، ولا باطلية الكفر وفساده.

﴿۞ وَ﴾ بالجملة هم من غاية غفلتهم عن الله ونهاية عرائهم وخلوهم عن نور الإيمان ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي سمتها وضخامتها ﴿وَإِن يَقُولُوا۟﴾ أيضاً كلاماً ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وحلاوة نظمهم، إلا أنهم لخلوهم عن العلم اللدني والرشد المعنوي والصفاء الفطري الذاتي الذي هو نفوذ أرباب المحبة والولاء ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ يابسةٌ فانيةٌ فاقدة للقابلية الفطرية ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ على جدار الجهل والبلادة، ومع ذلك ﴿يَحْسَبُونَ﴾ يظنون ويترقبون من شدة شكيمتهم وغيظهم مع المؤمنين ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ واقعةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مسموعةٍ لهم ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ يصيح عليهم ليهلكهم.

وبعد ما صار بغضهم مع المؤمنين ومخافتهم من العدو بهذه الحيثية ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل واترك مصاحبتهم، واحترز من غيلتهم وطغيانهم،

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ
رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ
لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾

إذ الخائف ربما يصول بلا سببٍ وداعٍ عليهم، وقل في شأنهم: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤﴾ وكيف يُصرفون ويَنحرفون عن الحق الصريح إلى الباطل الغير الصحيح، مع أنه لا ضرورة تلجئهم إليه.

﴿وَ﴾ من شدة بغضهم وضغينتهم مع المؤمنين المخلصين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ إمحاضاً للنصح: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ هلموا أيها المسرفون المفرطون مجلسَ رسول الله ﷺ ﴿يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ويطلب مغفرتكم من العفوِّ الغفورِ ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ وعطفوا أعناقهم عن القبول، معتذرين بأعذارٍ كاذبةٍ، مخافةً وصوناً ﴿وَرَأَيۡتَهُمۡ﴾ حينئذٍ في وجوههم التي هي عنوان بواطنهم آثارَ الكفر والعناد، إذ هم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويعرضون معتذرين عن المؤمنين ﴿وَهُم﴾ في أنفسهم ﴿مُّسۡتَكۡبِرُونَ ۝٥﴾ عن القبول والاعتذار، وبالجملة:

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ من الله المنتقم الغيور ﴿أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ العليم الحكيم المتقِن في عموم الأفعال أبداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلعَ على ما في استعدادات عباده ﴿لَا يَهۡدِي﴾ ويرشد إلى جادة توحيده ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ منهم، الخارجين عن مقتضى الحدود الإسلامية.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ....﴾

وكيف يهديهم ويغفر لهم سبحانه.

مع أنهم ﴿هُمُ﴾ المسرفون المفسدون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار من نهاية عداوتهم وبغضهم مع الرسول والمؤمنين: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون فقراء المهاجرين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ وينتشروا بعد ما اضطروا من حوله ﴿وَ﴾ لم يعلموا هؤلاء الغفلة الضالون والجهلة الهالكون في تيه الجهل والعناد أن ﴿لِلَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته وتحت ضبطه وملكيته ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي الكنوز المكنونة المطلوبة في ضمن العلويات والمدفونة في السفليات ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والعناد ﴿لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾ كمالَ قدرة الله، وسعة خزائن كرمه وجوده.

ومن نهاية غفلتهم عن الله وعداوتهم مع المؤمنين ﴿يَقُولُونَ﴾ على سبيل التهور والتهديد: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ﴾ عن سفرنا هذا ﴿إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ﴾ يريدون أنفسهم ﴿مِنۡهَا﴾ أي من المدينة ﴿ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ يريدون المؤمنين.

وذلك أن أعرابياً من المهاجرين نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماءٍ، فضرب الأعرابي رأسه بخشبةٍ، فشكا إلى ابن أُبيّ وملئه، فقالوا: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة ليخرجن

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ....

الأعز منها الأذل ﴿وَ﴾ لم يعلموا أولئك الغواة الضالون في تيه العتو والعناد أنه ﴿لِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ أي القوة والغلبة أصالةً ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾ تبعاً ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بمتابعة الرسول ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ عزةَ الله وعزةَ أهل الله؛ لفرط جهلهم وغرورهم بأموالهم وأولادهم، لذلك يحصرون العزة والقوة بأنفسهم.

ثم قال سبحانه تسليةً للمؤمنين، مشتملةً على نوع من التعريض والحثِّ والترغيب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم أن لا تلتفتوا لعزة الدنيا، ولا تغتروا بكثرة الأموال والأولاد فيها حتى ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ ولا تشغلكم ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ وعن التوجه نحوه، والركون إليه في مطلق الأحوال ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ والتفت إلى مزخرفات الدنيا، وشغل بها عن الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ البُعداء المشغولون بالخسيس الأدنى عن الشريف الأعلى ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ المقصورون على الخسران الكلي[1]؛ لاستبدالهم الباقي بالفاني، والزاهق الزائل بالقهار القديم.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم مآل أموالكم إلى ما يتفرع عليها من الحرمان والخسران ﴿أَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ وسقنا نحوكم من أموال الدنيا

(١) في المخطوط (الخسران النكال).

مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ يعني أنفقوا قبل حلول الأجل، وظهور أمَارات الموت وعلامات الفزع ﴿ فَيَقُولَ ﴾ المحتضر منكم حينئذٍ متحسراً: ﴿ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ ﴾ أي هلا أمهلتني يا رب ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ وأمدٍ غير بعيدٍ ﴿ فَأَصَّدَّقَ ﴾ وأتصدق من مالي هذا على الوجه المأمور طلباً لمرضاتك ﴿ وَ ﴾ بعد التصدق ﴿ أَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ المنفقين، الممتثلين لأمرك، المقبولين عندك.

﴿ وَ ﴾ اعلموا أيها المؤمنون يقيناً أنه ﴿ لَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا ﴾ ولن يمهلها أبداً ﴿ إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ وحلّ ما قدر لها لرد الأمانة فيه من الزمان والآن[1]، وكذا لن يقدِّمها عليه أصلاً فعليكم التدارك والتلافي قبل حلول الأجل ﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ المراقبُ عليكم في عموم أحوالكم ﴿ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ في أيام حياتكم من خيرٍ وشرٍ، فيجازيكم على مقتضى خبرته بلا فوت شيءٍ من عملكم، خيراً كان أو شراً.

---

(١) في نسخةٍ أخرى: وردت هكذا: «وحلّ ما قدر من الوقت الذي قدّر فيه رد الأمانة».

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المنكشف برجوع العكوس والأظلال إلى ما منه بدت وظهرت، ألا وهي شمس الوحدة الذاتية: أن تعرف أن إظهار المعارف المظاهر وبسط الظل عليها، وامتداده إياها، إنما هو بغتةً بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، وآلةٍ ومقدمةٍ، كذلك القبض والإخفاء إنما يكون كذلك، فلك أن تكون في مدة ظهورك على ذِكرٍ من ربك، بحيث لا يشغلك عنه شيءٌ ساعةً، ولا تغفل عنه وعن التوجه نحوه لحظةً وطرفةً، فإنك ما تدري متى يحل الأجل؟ فإذا حل، لا يمكنك التدارك والتلافي.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين في عموم الأحوال.

سُورَةُ التَّغَابُنِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة التغابن

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وشمول أسمائه وصفاته على عموم المظاهر والمجالي: أن رجوع عموم الكوائن والفواسد الغير المحصورة في فضاء الإمكان وتوجُّهِ الكل إليه سبحانه، طوعاً ورغبة.

إذ ما من موجودٍ إلا وله حبٌ ذاتيٌ وميلٌ جِبّليٌ إلى دوام نشأته التي هو عليها بمقتضى هويته، ولا شك أن له نحواً من الشعور بحدوثه ومسبوقيته بالعدم، فثبت أن له شعوراً بفاعلِه المظهِر لهويته، فبمقتضى حبّه لنشأته، يكون له رجوعٌ إلى مبدئه، يستمد منه ويحمد له، كما أخبر سبحانه لحبيبه ﷺ، بعد ما تيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾الذي تجلى فيما تجلى بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على عموم المظاهر والأكوان بالإمداد عليها في كل آنٍ وشأنٍ ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ على نوع الإنسان حيث أطلعه على سرائر توحيده، وصوَّره بصورته.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ
﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ويقدِّسُ ذاتَه عن مطلق النقائص على وجه الإطلاق بعد ما لم يبلغ كنه أسمائه وصفاته حتى يُعدَّ ويُحصى بتبيان مظاهر ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ من ذرائر عموم الأكوان، وكيف لا يقدسه جميع الأعيان، إذ ﴿ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ على سبيل التخصيص، لا مالك له سواه، ولا مستولي عليه إلا هو ﴿وَ﴾ كذا ﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ على سبيل الحصر والاختصاص، إذ لا مستحق للحمد بالاستحقاق إلا هو، ولا مفيض للنعم على الآفاق غيره، ولا مقدِّر للأرزاق إلا هو ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ هُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دخل في حيطة وجوده ﴿قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ لا ينتهي قدرته بمقدورٍ دون مقدورٍ.

وكيف لا يكون سبحانه قديراً لعموم المقدورات؟

مع أنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ وأظهركم وقدَّر خلقكم من كتم العدم على سبيل الإبداع بلا سبق مادةٍ ومدةٍ، وفصّلكم بعدما أظهركم ﴿ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ ساترٌ للحق مُّوفَّقٌ عليه، محجوبٌ بغيوم هوياته الباطلة الإمكانية عن شمس الحقيقة الحقية ﴿ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ موفَّقٌ على الإيمان، مجبولٌ على فطرة التوحيد والعرفان، مُيَسَّرٌ لها، لذلك يصير إيمانه عياناً، وعيانه حقاً وبياناً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطَّلع على عموم ما في استعدادات عباده ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من عموم الأعمال في جميع الشؤون والأحوال ﴿ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ فيعامل[1] معكم بما يناسب أعمالكم.

(١) أي: فيعاملكم.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾

واعلموا أيها المكلفون:

﴿خَلَقَ﴾ سبحانه وأظهر بكمال قدرته ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي مظاهر ما في العلويات والسفليات ملتبسة بالحكمة المتقنة البالغة في الإحكام والإتقان حداً لا يبلغ كنهه أحلام الأنام، وبعدما رتّبها بحكمته على هذا النظام الأبلغ الأبدع انتخب من مجموع الكائنات ما هو زبدته وخلاصته ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد والتحقيق منها ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذ خلقكم على صورته قابلاً لخلافته، لائقاً للتخلق بأخلاقه والاتصاف بصفوة أوصافه، وجعل فطرتكم غايةً وعلةً غائيةً مرتبةً على عموم مظاهره ومصنوعاته، ﴿وَ﴾ كيف لا يصوركم بصورته، ولا يحسن صوركم إذ ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ أي مصير الكل نحوه، ومرجعه لديه، ومبدؤه منه، ومعاده إليه.

﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات من الكمالات اللائقة للظهور والبروز ﴿وَ﴾ ما في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي عموم ما في استعدادات قوابل الطبائع والأركان من الماديات والمجريات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أيها المكلفون ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المحيط بالكل بمقتضى تجليه وظهوره عليه ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ إذ لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن حيطة علمه ذرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ ....

ثم قال سبحانه توبيخاً على من خرج عن ربقة عبوديته:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها المكلَّفون المنكِرون بظهور الحق وثبوته وتحققه في الأنفس والآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوحٍ وهودٍ وصالحَ عليهم السلام ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي كيف ذاقوا ضرر كفرهم وشركهم من العذاب النازل عليهم في النشأة الأولى، بعد ما أصرُّوا على ما هم عليه، ولم يهتدوا بإرشاد الأنبياء والرسل ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ لا عذابَ أشدَّ من ذلك، وهو حرمانهم عن ساحة عزِّ القبول الإلهي.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الويلُ والوبالُ عليهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ أي بسبب أن النشأة الألى والأمر فيما بينهم هكذا ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من عند الله مؤيَّدين ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ بعد ما عجزوا عن معارضة معجزاتهم الساطعة وحججهم القاطعة على سبيل التعجب والإنكار: ﴿أَبَشَرٌ﴾ مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾؟! كلا وحاشا أن يكون البشرُ هادين للبشر، وبالجملة ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالرسل والمرسِل والمرسَل به جميعاً ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن التدبر والتفكر في الحجج والبينات ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عن كل شيءٍ فضلاً عن هدايتهم وطاعتهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء

حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ ....

﴿غَنِيٌّ﴾ في ذاته عن مطلق مظاهره ومصنوعاته، فكيف عن إيمانهم وعبادتهم ﴿حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ حسب أوصافه وأسمائه مستغنٍ عن حمد الحامدين.

ومن كمال جهلهم بالله وإصرارهم على إنكار قدرة الله على عموم المقدورات .

﴿زَعَمَ﴾ بل ادعى العلمَ المسرفون المعاندون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله وأنكروا قدرته على البعث والنشور ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ من قبورهم، ولن يحشروا إلى المحشر للحساب والجزاء، وأصرّوا على هذا الزعم الفاسد والجهل الظاهر واعتقدوه حقاً وخيلوه صدقاً مكابرةً وعناداً ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما بالغوا في إنكار البعث: ﴿بَلَىٰ﴾ تُبعثون أيها المنكرون الجاحدون ﴿وَ﴾ حق ﴿رَبِّي﴾ الذي رباني قابلاً لوحيه وإلهامه ومهبطاً لعموم أحكامه المنزلة من عنده ﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾ البتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد البعث والحشر ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي جميع ما اقترفتم في النشأة الأولى، ولتحاسبنّ عليها وتجازُنَّ بمقتضاه بحيث لا يشذّ شيء منها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ التفصيل والإحصاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ العليم البصير ﴿يَسِيرٞ ﴿٧﴾﴾ وإن كان عندكم مشكلٌ عسيرٌ.

وبعدما سمعتم من كمال قدرة الله وإحاطة علمه وخبرته:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ المستخلَف منه ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ معه تأييداً له، وتبيناً لدينه يعني القرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ....

على ما في استعداداتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بمقتضى القرآن، وتمتثلون بأوامره ونواهيه، وبما تذبون عنه وتعرضون، منكرين لما فيه من الأوامر والنواهي والعِبر والأحكام والمعارف والحقائق والرموز والإشارات ﴿خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يجازيكم على مقتضى خبرته.

اذكروا أيها المكلفون:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ والحشر لأجل الحساب والجزاء، إذ يجتمع فيه الملائكة والثقلان ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي يوم ظهور التغابن والغرور الواقع في نشأة الاختبار والابتلاء ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ ويقر بوحدانيته سبحانه ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ ليزيد به الإيمان حتى يصير علمه عياناً، وعيانه حقاً وبياناً ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويمحوها عن صحيفة أعماله ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المملوءة بمياه المعارف والحقائق المترشحة عن بحر الحياة الأزلي الأبدي، لا يتحولون من التلذذ بها والتحقق دونها، بل يصيرون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ﴾ التفكير والإدخال لأرباب العناية والإفضال ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ واللطف الجسيم،، وبالجملة لا فوز أعظم منه وأكمل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ
قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة تعقيب الوعد بالوعيد:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على وحدة ذاتنا وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وملازموها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ لا نجاة لهم منها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾ مصيرُ أهل النار، أعاذنا الله وعموم عباده منها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقرير والتثبيت لأرباب المعرفة والإيقان على جادة التفويض والتكلان:

﴿مَآ أَصَابَ﴾ على من أصاب وما أصاب ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ أي حادثةٍ مفرحةٍ أو مؤلمةٍ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ وبمقتضى إرادته وتقديره ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويفوض أمره إليه، ويأخذه وكيلاً ويجعله حسيباً وكفيلاً ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ وينوِّر خلده، ويبصره على أمَارات التوحيد وعلامات اليقين، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع على عموم ما غاب وشهد ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿عَلِيمٞ ١١﴾ بعلمه الحضوري بحيث لا يعزب عنه شيء مطلقاً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ﴾ المبلِّغ لكم طريق الهداية والرشاد المبين لك سبيل السلام والسلامة والنجاة في يوم المعاد ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ وأعرضتم عن دعوته بعد تبليغه وإرشاده، فلا

فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ ....

بأس عليه ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ بمقتضى وحينا وأمرنا ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ الظاهر الواضح.

وبعد تبليغه على وجهه لم يبق عليه شيء، وعلينا حسابكم وعذابكم.

وكيف يتأتى منكم الإعراض أيها المعرضون المبطلون؟

مع أنه ﴿ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المستقل بالألوهية والربوبية ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي موجودَ في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ ۚ﴾ بتوحيده واستقلاله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ في عموم حوائجهم ومهماتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وأيقنوا وحدة الحق واستقلالَه في الوجود ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله وعن التوجه نحوه والتوكل عليه بالتقريع والتشنيع، ويردونكم في أمر المعاش وتحصيله إلى المعاطب والمهالك، حتى تسألوا من كل غنيٍ غبيٍ، وشحيحٍ دنيٍ، فتسترزقون منهم، وترزقون لهم، ولا تثقون بالله، ولا تعتمدون عليه في كفالته وترزيقه، فتزل ثقتكم عن خالقكم ورازقكم وتزلَّ قدمكم عن التثبت في صراط التوكل والتفويض، وبالجملة ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ أي عن الأولاد والأزواج، ولا تأمنوا من مكرهم وغوائلهم ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن جرائمهم

وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ ....

وتشنيعاتهم وتوصلوهم إلى ما أمِلوا وترقبوا منكم ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ أي تُعرضوا عن إعراضهم وعدم الالتفات إلى حالهم ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ أي تمحوا وتستروا ما صدر عنهم من التشنيع والتقريع، فتشتغلوا إلى إنجاح أغراضهم وإيجاد أمانيهم، بعدما وفقّكم الحق عليها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع على ما في ضمائرهم من مراعاة جانب الأولاد والأزواج ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبكم التي صدرت عنكم في أمر المعاش، إن كانت برخصةٍ شرعيةٍ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ يرحمكم ويمحو زلتكم، إن كان سعيكم لتحصيل مقدار الكفاف والكفاية والقناعة، لا للفضول منها، وبالجملة.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمةٌ واختبارٌ شديدٌ لكم، فعليكم أن لا تغتروا بهما، فإنهما من شباك الشياطين وحبالهم، يريدون أن يصدوكم عن سبيل الله بتزيينهما إليكم وتحبيبهما في قلوبكم؛ لتشتغلوا بهما عن الله فتحطوا عن زمرة المخلِصين ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ للمخلصين المجتنبين عن الالتفات إلى الغير مطلقاً وبالجملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ واجعلوه وقاية لنفوسكم من تغرير الشيطان وفتنته ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ قولَ الله بسمع الرضا والقبول ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أمره ونهيه، ولا تخرجوا عن مقتضى حِكَمِه وأحكامه مطلقاً ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ مما رزقكم الله واستخلفكم عليه امتثالاً

﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

لأمره، وطلباً لمرضاته، وافعلوا جميع ما أمركم الحق، سيما الإيثار والإنفاق ليكون امتثالكم وإنفاقكم ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ في أولاكم وذخراً لكم في أخراكم، ومن معظم فوائد الإنفاق صون النفس عن الشُّحِّ المُطاع ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ بالبذل والإنفاق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المتصفون بالكرم والسخاء ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ الفائزون من الله بالمثوبة العظمى والدرجة العليا، وبالجملة:

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ المنعمَ المتفضل أيها المنفقون المحسنون ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مقروناً بالإخلاص والرضا ومصوناً عن وصمة المنّ والأذى ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ إحسانكم أضعافاً كثيرةً ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم، وإن عَظُمت وكَثُرت ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطّلع على إخلاص عباده في أعمالهم ونياتهم فيها ﴿شَكُورٌ﴾ يحسن المحسنَ جزاء إحسانه أضعافاً مضاعفةً، ويزيد عليها تفضلاً وامتناناً ﴿حَلِيمٌ ١٧﴾ لا يعاجل بعقوبة المسيء، رجاء أن يعودَ ويتوب ويعتذر لما يصدر عنه من الذنوب.

وكيف لا وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم بعلمه الحضوري منهم عمومَ ما في استعداداتهم وقابلياتهم من الإخلاص والإنفاق وغيرهما ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ المتقِن في عموم الأفعال والجزاء المترتبِ على الأعمال.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحِّد المتحقق بمقام الفناء في الله، المستخلف منه سبحانه في عموم الأفعال والآثار الصادر منك صورةً: أن تمتثل بمطلق الأوامر والنواهي الواردة عليك من عند ربك بمقتضى التكاليف المنبئة عن محض الحكمة المتقنة الإلهية الجارية على وفق المصلَحة المصلِحة لأمور العباد في معاشهم ومعادهم، وتواظبَ على أداء الفرائض والواجبات الموجِبة للعبودية بكمال التسليم والرضاء، وتلازمَ على الإتيان بالنوافل والمندوبات المقرِّبة إلى الله المستلزِمة لمزيد الفضل والعطاء، فلك التبتل والإخلاص المقارَن بالخضوع والخشوع والتذلل التام والانكسار المفرط في عموم ما جئت به من الطاعات والعبادات.

فاعلم أن الناقد بصيرٌ وحبائل الشيطان في حواليك كثير، فلا تغفل عن غوائله، فإن إضلاله إياك سهلٌ يسيرٌ، واتكل على الله في عموم أوقاتك، واستعذ به سبحانه من غوائله، فإنه سميع بصير.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الطلاق

لا يخفى على من تمكن في مقام العبودية، وتقرر في محل التكاليف الإلهية من المنكشفين بسرائر الأحكام الحقيقية الحقية: أن سر الزواج والازدواج الواقعِ في عالم الكون والفساد، المنبئ عن المناسبات المعنوية والارتباطات الحبية الغيبية المترتبة على كمال الاعتدال والائتلاف بين الأسماء والأوصاف الذاتية الإلهية الباعثة على الظهور والبروز في فضاء الكمال، إنما هو بمقتضى التجليات والشؤون الإلهية وتطوراته المتوافقة والمتخالفة حسب القبض والبسط، والجمال والجلال الظاهرة آثارها في الأزمان والأدوار بمقتضى الإرادة والاختيار، الصادر من الملك الجبار.

ومن جملة الآثار الواقعة في الأقطار أمر النكاح والطلاق المرتبَيْن على المناسبة والمخالفة المتفرعة على القبض والبسط، المتفرع على الجمال والجلال، لذلك نبّه سبحانه عباده، وبين لهم أحكام النكاح والطلاق، ووضع لهما حدوداً وقواعدَ مضبوطةً حتى لا يتجاوزا عن الاعتدال والقسط الإلهي، المتفرع على الحكمة البالغة المتقنة.

فقال بعد ما تيمن باسمه الأعلى منادياً لحبيبه ﷺ، إذ هو ﷺ لائقٌ بالخطاب الإلهي في أمثال هذه الأحكام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ ....

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحكم مطلق الأحكام الشرعية على مقتضى الحكمة والعدالة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بوضع الحدود الشرعية بينهم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم، ينبههم على سرائر تكاليفه وحِكَم حدوده المتفرعة على حِكمته البالغة ومصلحته الكاملة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المبعوث إلى كافة البرايا لترشدهم وتصلح أحوالهم، فلزم عليك وعليهم أصلاً وفرعاً ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وقصدتم دفع رابطة العلاقة الشرعية بالفرقة الشرعية أيضاً ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وادفعوا عنهن قيد الألفة المقتضية للزوجية ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي في إتيانها ووقتها، الذي هو مدة الطهر قبل وقوع الوقائع فيها، ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ الكاملة أي الأطهار الثلاثة مع المطلقات الثلاثة حتى تقع كل طلقةٍ في طهر ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ المنتقمَ الغيورَ الذي رباكم على مقتضى العدالة، فعليكم أن لا تتجاوزوا عنها فلا، تزيدوا على عدتهن بالمراجعة عليهن، ثم تطلقوهنَّ، فعليكم أن ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ بالتعدي بعد وقوع الطلاق ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي مساكنكم التي كن فيها قبل الفرقة، حتى تنقضي عدتهن فيها ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ أيضاً بأنفسهن بعد الفرقة من مساكنهن، بلا رضىً منكم أيها المطلِّقون، بل لا بد لهن أن يعتددن فيها ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي زِناً يَشهد له شهودٌ

وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ....

على الوجه المعتبر في الشرع فحينئذ يخرجن لإجراء الحد عليهن، فيصبح هذا الاستثناء من كلا الحكمين السابقين. ﴿وَتِلْكَ﴾ الحدود المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ العليمُ الحكيمُ، الصادرةُ عنه بمقتضى الحكمة البالغة المقتضية للعدالة الكاملة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ بالعرض على عذاب الله عاجلاً وآجلاً، أنه ﴿لَا تَدْرِى﴾ وتعلم نفسُ المطلِّق المجاوز عن الحد الشرعي بالتطويل في العدة والتهاون على المرأة أو نفس المرأة المطلقة بإتيان الفاحشة في أوان العدة وغيرها ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ﴾ المقتدرَ المنتقمَ ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التفريق والبينونة ﴿أَمْرًا ﴿١﴾﴾ بأن جعل للمطلِّق بدل تلك الزوجة المطلَّقة زوجةً سليطةً مسلطةً عليه، أو جعل للمطلَّقة زوجاً أشد إيلاماً منه، وبالجملة:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾ أي المطلقات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ أي شارفن على انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وراجعوا إليهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسنٍ عقلاً وشرعاً ومروءةً، نادمين على ما صدر عنكم من الطلاق، محسنين إليهن، معطين لهن من الأمتعة جبراً لما كسرتم ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بعدما لم يبق بينكم وبينهن رابطة المحبة وعلاقة الألفة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسنٍ مرضيٍ لدى الشارع، مقبولٍ عند عموم أرباب المروءات، بلا ضررٍ ولا ضرارٍ، وبلا أخذ شيءٍ مما يتعلق

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ....

بهن من الأمتعة المنسوبة إليهن عرفاً، بل أعطوهن شيئاً آخرَ معتداً به، ليعترفن بثنائكم وشكركم، ويدعون لكم بدل ما يدعون عليكم.

﴿وَأَشْهِدُوا۟﴾ أيها المؤمنون عند اختيار الرجعة والفرقة ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قطعاً لعرق الخصومة والنزاع، وبعداً عن التهمة ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾ أيها الشهود ﴿ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ الموكولة لكم ﴿لِلَّهِ﴾ طلباً لمرضاته سبحانه، وحافظوا عليها كي تؤدوها لدى الحاجة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي سمعتم من محافظة الحدود وإقامة الشهود لحفظ الحقوق والعهود، من جملة المواعظ والتذكيرات التي وضعها الحق بمقتضى حِكمته بين عباده؛ ليحافظوا بها آداب العبودية إنما ﴿يُوعَظُ﴾ ويتذكر ﴿بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويوقن بوحدة ذاته، ويصدّق برسله المبعوثين من عنده، المؤيدين من لدنه ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ المعدِّ لتنقيد الأعمال وترتب الجزاء عليها، فإن غير هؤلاء السعداء الأمناء هم التائهون في تيه الضلال بأنواع الوِزر والوبال، لا تتعظون بها وبأمثالها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ويتحفظ نفسَه عن قهره وغضبه، ويحافظ على رعاية حدوده الموضوعة من لدنه لحفظ حقوق عباده، سيما حقوق الزوجية والائتلاف من كِلا الطرفين، ويتوكل عليه في عموم أحواله ويفوِّض أموره كلها إليه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ عن مضيق الإمكان المورِث لأنواع الخذلان والخسران.

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ ....

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ ويسوق إليه جميع حوائجه المحتاجة إليه في معاش عياله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي من مكانٍ لا يترقبه، ولا ينتظره ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿مَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مخلصاً له، مفوضاً أمره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وكافيه، يكفيه جميع المؤنة المحتاجة إليه في النشأة الأولى والأخرى، وكيف لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادرَ المقتدرَ على عموم المقادير ﴿بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بعدما فوض إليه سبحانه بالإخلاص والتسليم إلى حدٍ قدَّر الله له في حضرة علمه ولوح قضائه، إذ ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ القدير الحكيم ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء الظاهرة حسب أظلال الأسماء والصفات الإلهية ﴿قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ أي مقداراً معيناً من الكمال في عموم أفعاله وأحواله على مقتضى الاستعدادات الفطرية والقابلية الجِبلِّية.

هذه المذكورات من الحدود والآداب في طلاق ذوات الأقراء من المعتدات.

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ﴾ وقنطن ﴿مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لكبرهن ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي جهلتم وشككتم في تعيين عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ﴾ بعدما طلقتموهن ﴿ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي مضيها.

روي أنه لما نزلت: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٢-البقرة: ٢٢٨] قيل: فما عدة النساء اللاتي يئسن؟ فنزلت:

وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ....

﴿وَ﴾ كذا أيضاً مضيُّ ثلاثة أشهر عدة النساء ﴿اللائي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ بعدُ لصغر سنهن أو مرضٍ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ من المطلقات ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ ومنتهى عدتهن ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ سواءً كان الوضع بعد الفرقة بزمانٍ كثيرٍ أو قليلٍ.

وهذا الحكم متناولٌ للمطلقة والمتوفي عنها زوجها، وإنما لم يعيَّن لأولات الأحمال حدٌّ معين من أقراءٍ وشهودٍ؛ لأن المقصود الأصلي من إلزام العدة حفظُ الماء واستبراء الرحم؛ لئلا ينجر إلى خلط النسب، وبالوضع يحصل المقصود على الوجه الأتم، ولهذا لم يحدّ لهن سوى الوضع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ويحفظ نفسه من سخطه وطلَّقَ امرأتَه على الوجه المسنون ولم يركن إلى الطلاق البدعي أصلاً ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ الذي هو فراق زوجته ﴿يُسۡرٗا ﴿٤﴾﴾ يسهل إليه التزويج الآخر، ويحسنها له، ويحبلها له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ العليم الحكيم ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أيها المكلَّفون ليصلح مفاسدكم المتعلقة بحكم الطلاق ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور ولم يتجاوز عن مقتضى أمره المبرم وحكمه المحكم ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ بتغليب حسناته عليها ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾ بتضعيف حسناته أضعافاً كثيرة.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ
حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟
بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿مِّنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أيها المطلقون ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي من وسعكم ومقتضى طاقتكم من مُلكٍ وإجارةٍ وإعارةٍ ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ﴾ حتى يضطررن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ﴾ منكم أيها المطلّقون ﴿فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ فيخرجن من العدة، وهذا الحُكم أي الإنفاق على المعتدة مخصوصٌ بأولات الأحمال من المعتدات، إذ الإنفاق حقيقةً إنما هي لأولات الأولاد دون غيرهن من المعتدات، إذ لا سببَ توجبها، وإذا وضعن ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أولادكم بعد رفع رابطة النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ﴾ على الإرضاع مثل سائر المرضعات الأجنبيات، ولا تعللوا بكونهن أمهاتِ للرضيع ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً أيها المؤمنون في إرضاع المطلقة ولدها من المطلق ﴿بِمَعْرُوفٍ ۖ﴾ مستحسنٍ مقبولٍ شرعاً من إعطاء الأجرة الكاملة والزيادة عليها مراعاةً للمروءة ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ وتضايقتم في الأجرة عليها ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ غيرها، إلا أن المروءة تأبى عن أن تعرض الأم من إرضاع ولدها، إذ هي أولى به من غيرها.

﴿لِيُنفِقْ﴾ على المعتدة الحاملة ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ ويسرٍ ﴿مِّن سَعَتِهِۦ ۖ﴾ ومقدار

وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾ ....

وسعه وطاقته على مقتضى نفقتها قبل الفرقة ﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضُيّق ﴿عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ من الرزق بلا جبرٍ وتحميلٍ، إنه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ المنعمُ الحكيمُ ﴿نَفۡسًا إِلَّا﴾ مقدارَ ﴿مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ وساق لها من الرزق الصوري، إذ ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ﴾ المنعمُ المفضلُ ﴿بَعۡدَ عُسۡرٖ﴾ دنيويّ ﴿يُسۡرٗا ﴿٧﴾﴾ حقيقياً أخروياً، فاليُسر في الآخرة أولى من الدنيا، وما فيها.

ثم قال سبحانه على وجه الوعيد للموسرين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي كثيراً من أهل قريةٍ ﴿عَتَتۡ﴾ أعرضت واستكبرت ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَ﴾ متابعة ﴿رُسُلِهِۦ﴾ المرسَلين من عنده إياها اتكالاً على ما عندهم من المال والثروة والتفاخر على الأقران والتفوق عليهم بأنواع النخوة والعدوان ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ أي عن القليل والكثير والنقير والقطمير ﴿وَ﴾ بعدما حاسبناها كذلك ﴿عَذَّبۡنَاهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾﴾ منكراً فجيعاً فظيعاً، والمرادُ حساب النشأة الأخرى وعذابها، عبَّر بالماضي لتحقق وقوعها.

﴿فَذَاقَتۡ﴾ حينئذٍ ﴿وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ أي إعراضها عن الله وأهله ذوقاً محيطاً بها، بحيث لا يخلو من العذاب شيءٌ من أعضائها وأجزائها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا﴾ الذي كان عليه في النشأة الأولى ﴿خُسۡرًا ﴿٩﴾﴾ في النشأة

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ
ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا ....

الأخرى، وأي خسرٍ لا خسرَ أشدَّ منه وأكبرَ، وهو حرمانهم عن عزِّ القبول الإلهي وانحطاطهم عن رتبة الخلافة والنيابة، وبالجملة:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في العاجل والآجل ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ واعتبروا مما جرى على أولئك الغواة الطغاة الهالكين في تيه العتو والعناد من وخامة عاقبتهم ورداءة خاتمتهم.

واعلموا أيها المعتبرون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الحق وبتصديق رسله ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ ناشئاً منكم مذكِّراً لكم أصلَ مبدئكم ومنشئكم، وكذا مرجعكم ومعادكم، ولهذا جعله سبحانه

﴿رَّسُولًا﴾ مرسلاً من عنده إليكم لإرشادكم وتكميلكم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته وكمال أسمائه وصفاته ﴿مُبَيِّنَـٰتٍ﴾ مشروحاتٍ موضحاتٍ كل ذلك ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله على وجه الإخلاص ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ المؤكدة لإيمانهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي الظلمات الحاصلة من تراكم الكثرات وتتابع الإضافات الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة إلى نور الوجود، الذي هو الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الإضافات مطلقاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ويوقن بوحدته ﴿وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ طلباً

﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ ....

لمرضاته ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ سبحانه بمقتضى فضله ولطفه ﴿جَنَّٰتٖ﴾ منتزهات العلم والعين والحق ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ المترشحةُ دائماً من البحر المحيط الذي هو حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه المشتمل على عموم الكوائن والفواسد الجارية في فضاء الوجود مطلقاً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ لا يتحولون منها أصلاً، وبالجملة ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾ صورياً ومعنوياً.

وكيف لا يحسن رزقه سبحانه؟

مع أنه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي أظهر وقدَّر بمقتضى قدرته الكاملة ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ علوياتٍ مطبقاتٍ على عدد الأوصاف السبعة الذاتية الإلهية، وجعلها مسكناً للمجردات من الملائكة والأرواح ﴿وَ﴾ قدّر ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ السفلى أي عالم العناصر أيضاً ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ مطبقات بعضها فوق بعض:

طبقة الأثير الصرف، وطبقة الأثير الممتزجة، وطبقة الزمهرير من الهواء، وطبقة الهواء الصرف، وطبقة الماء الصرف، وطبقة الطين المركب من الماء والتراب، وطبقة التراب الصرف، على عدد القوى السبع الإنسانية الفائضة على أعضائه السبعة، وهي: الدماغ والكبد والعين والأذن والأنف واللسان وجميع البشرة من الصانع الحكيم.

وإنما رتبها سبحانه وطبقها عليها حتى ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الإلهي ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ يعني تصير السفليات قوابل الآثار العلويات يقبلن منها ما يفيض عليهن

لِّتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

من الكمالات المترتبة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية، كل ذلك ﴿ لِّتَعْلَمُوٓاْ ﴾ أيها المجبولون على فطرة العلم والمعرفة ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المستقل بالألوهية والربوبية ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة الوجود، ولمع عليه برق الشهود ﴿قَدِيرٌ﴾ لا ينتهي قدرته عند مقدور ﴿وَ﴾ لتعلموا أيضاً ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ المتصف بالقدرة الكاملة ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ دخل في حيطة قدرته ﴿ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ إذ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك المتحقق بمقام القلب وسعته وقابليته لنزول سلطان الوحدة الذاتية الإلهية مع بُعد غورها ورفعة طورها عن أحلام الأنام مطلقاً: أن الله المتجلي على كل جليٍ وخفيٍ قديرٌ على مقدوراتٍ لا تتناهى ومراداتٍ لا تُعد ولا تُحصى بمقتضى حيطة علمه بمعلوماتٍ لا غايةَ يحدها ولا نهايةَ يحيطها.

فله سبحانه الإعادة والإبداء، والإماتة والإحياء، وله التصرف في ملكه كيف يشاء حسب اقتضاء الأوصاف والأسماء، لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى، وله الحمد في الآخرة والأولى.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ....

فاتحة سورة التحريم

لا يخفى على من رسخ على جادة التوحيد وتمكن في مقعد الصدق بلا تلوينٍ وترديدٍ: أن أرباب المحبة والإرادة الكاملة من المنقطعين عن الناسوت رأساً، المنجذبين نحو فضاء اللاهوت مطلقاً، لم يبق لهم إرادةٌ وكراهةٌ وصداقةٌ وعداوةٌ بالنسبة إلى كل أحدٍ من بني نوعهم وغيرهم، بل هم مستغرقون بالله، فارغو البال من غيره، لا يشوشهم اللذة والألم، ولا يزعجهم الرضا والغضب.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ على وجه العتاب وناداه ليرشده إلى منهج الصواب، فقال متيمناً:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾الذي دبّر مصالح عباده على الوجه الأبلغ الأحكم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم حيث لا يكلفهم بما ليس في وسعهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم ينبههم عن زلاتهم بعدما صدرت عنهم، ويعلمهم التدارك والتلافي بالتوبة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ المؤيّد بالوحي والإلهام من عند العليم العلام القدوس السلام مقتضى نبوتك وتأييدك أن لا تخالف حكم الله، ولا تبادر إلى الخروج

لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ ....

عما قضى الله ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ وتمنع عن نفسك من عندك بلا ورود نهي من قبل الحق ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ وأباحه عليك بمقتضى حكمته وعدالته ﴿تَبۡتَغِي﴾ بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ وتترك رضى الله بمخالفة حكمه، فارتدع عن فعلك هذا، واستغفر الله لزلتك ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطّلع على نيتك وإخلاصك ﴿غَفُورٞ﴾ يعفو عنك ما صدر منك ﴿رَّحِيمٞ ﴿١﴾﴾ يرحمك ويقبل توبتك.

روي أن رسول الله ﷺ خلا بأَمَتِهِ مارية في يوم حفصة، فاطلعت حفصة على ذلك، فعاتبته، فقال ﷺ: حرَّمتُ مارية على نفسي لأجلك، لا تقولي لأحد من أزواجي، واستكتميها عنهن هذا التحريم، وأيضاً الخلافة بعدي لأبي بكر وبعده لعمر، ولا تفشِ لأحدٍ قط، فأخبرت حفصةُ عائشةَ بكلا الخبرين؛ لكونهما متصادقتين، فأخبرت عائشة رسول الله ﷺ بها، فغضب ﷺ وطلق حفصة طلاقاً رجعياً، وعزلَ نساءه تسعاً وعشرين يوماً لأجل هذه الواقعة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الآية.

ثم لما نهى سبحانه نبيه ﷺ على وجه المبالغة والتأكيد، أراد سبحانه أن يبيّن كفارة اليمين الواقعة من المؤمنين فقال:

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ وشرعَ ﴿لَكُمۡ﴾ على سبيل الوجوب ﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ أي بتحليل أيمانكم وتكفيركم عنها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ....

ومولي أموركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعموم مصالحكم ومفاسدكم ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ في ضبطها وإصلاحها.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ يعني حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ وهو حديث مارية، وحديث خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بعده ﷺ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ وأخبرت حفصة ﴿بِهِۦ﴾ عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ وأطلع سبحانه نبيه ﷺ ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على إفشاء حفصة الحديث المعهود الذي أوصاها بالإسرار، فغضب ﷺ على حفصة، لذلك ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي بعضَ الحديث وهو حديث تحريم مارية، وطلقها طلاقاً رجعياً انتقاماً عنها ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ وهو قصة الخلافة، ولم يعرّفها لئلا يقع الفتنة بين المسلمين، ومع ذلك قد وقعت، وبعدما أطلع الله نبيه على إفشاء حفصة الحديث معاتباً عليها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ﴾ حفصة ظناً منها أنها صدرت هذا من عائشة: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾ وأعلمك ﴿هَٰذَا ۖ قَالَ﴾ ﷺ في جوابها: ﴿نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بالسرائر والخفايا ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ بما تجري في الضمائر والنيات.

ثم قال سبحانه من قِبل نبيه ﷺ على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أنتِ وعائشة عما صدر عنكما توبةً صادرةً عن محض الندم والإخلاص، منبئةً عن كمال الموافقة والاختصاص مع الرسول ﷺ،

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ ....﴾

فقد جبرتما ما كسرتما، وإلا ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ زاغت ومالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن موافقة الرسول ومخالصته فجئتما بما يكرهه ﷺ وبكراهتكما ما يحبه ﷺ ﴿وَإِن تَظَاهَرَا﴾ وتعاونا ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على ما أنتما عليه من مخالفة الرسول، فلن تضرا له ﷺ شيئاً من الضرر، وكيف يلحقه ﷺ ضررٌ منكما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المراقبَ لعموم أحواله ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ ناصره ومعينه ومولي عموم أموره ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رئيس الكروبيين قرينه وملازمه ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أتباعه وأعوانه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي عموم الملائكة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد نصر أولئك المظاهرين ﴿ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ له سبحانه على سبيل التعريض لعموم أزواجه ﷺ.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ الذي رباه على الكرامة الأصلية والنجابة الجِبلِّية ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ جميعاً ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ بمقتضى قدرته وإرادته ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ صورةً وسيرةً، أخلاقاً وأعمالاً ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ في الاعتقاد، مسلَّماتٍ عن العيوب ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ بوحدة الحق، مصدقاتٍ لعموم ما نزل من عنده ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ راسخاتٍ على الطاعات، مواظباتٍ على عموم الخيرات، خاضعاتٍ خاشعاتٍ لله في عموم الأوقات ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن عموم المنكرات والمحظورات ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ على وجه التذلل والخضوع وكمال الانكسار

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ ....

والخشوع ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ صائماتٍ أو مهاجراتٍ ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾ يعني سواء كن ثيبات أو أبكاراً.

ثم أوصى سبحانه لعموم المؤمنين ما يصلح لهم، ويليق بحالهم فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عليكم حفظ النفس عن مطلق المهالك الدينية ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ عن ارتكاب المعاصي والالتفات نحو المنكرات، والتوجه نحو المحظورات ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ أي مَن في حِفظكم وحضانتكم من أزواجكم وأولادكم عن الوقوع في المهالك والفتن، وأنواع الآثام الموجِبة للخذلان والحرمان، وبالجملة اتقوا ﴿نَارٗا﴾ وأيَّ نارٍ، ناراً ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي ما يُتقد به النار: أجسام الأنام والحجارة، وذلك من شدة حرارتها وإحراقها، بخلاف سائر النيران فإن وقودها الحطب، ومع ذلك يوكَّل ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يوقدونها، وهم الزبانية صفتهم أنهم ﴿غِلَاظٞ﴾ في أقوالهم وهياكلهم، لا يتأتى منهم الملاينة والملاطفة أصلاً ﴿شِدَادٞ﴾ في البطش وعموم التعذيب ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ﴾ ولا يتجاوزون عن أمره سبحانه في عموم أوامره، بل يُمضونها على الوجه المأمور، بلا فوت شيءٍ منها بعذرٍ وشفاعةٍ أو شفقةٍ أو مروءةٍ، بل يفعلون ﴿مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ على وجهه، خوفاً من غيرته سبحانه وغضبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ ....

وبعدما نادى سبحانه عموم المؤمنين بما نادى، نادى أيضاً عموم الكافرين على مقتضى المقابلة فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وكذّبوا رسله المبعوثين إليكم ليرشدوكم إلى سبيل الهداية والسلامة، فأنكرتم بهم وبجميع ما جاؤوا به بلا تأملٍ وتوقفٍ، عليكم أن ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ بأن أعمالكم دون عذابكم وأنقص منه، بل ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ﴾ من العذاب على مقتضى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ من الكفر والإنكار.

ثم قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الحق من شأن إيمانكم تطهير قلوبكم عن مطلق المعاصي والآثام المنافية لصرافة وحدة الذات، ولا يتيسر لكم هذا إلا بالتوبة والرجوع على وجه الندم والإخلاص ﴿تُوبُوٓا۟﴾ أيها المخلصون المبتلون بفتنة الذنوب ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الملِك القدوس المنزّه ساحة عز حضوره عن سِمة الحدوث والإمكان مطلقاً ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ خالصةً لوجه الله، قالعةً لعرق الالتفات إلى غير الله، نادمةً على الذنوب الصادرة عنكم فيما مضى، مجتنبةً عن التي سيأتي، مُصَفِّيَةً للنفس عن مطلق الكدورات المتعلقة بالغير، مُحَلِّيَةً لها بالتقوى عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الخالص نحو المولى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ بعد ما تبتم ورجعتم نحوه

أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

بكمال التبتل والإخلاص ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ويعفوَ عنكم، ولم ينتقم منكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ تفضلاً عليكم وإحساناً ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ منتزهات العلم والدين والحق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أنهارُ المعارف والحقائق المتجددة، الجارية من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات.

وكيف لا يكَفِّر، ولا يدخل سبحانه خلص عباده في جنة وحدته؟

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى﴾ ولا يُردي ﴿ٱللَّهُ﴾ المنعمُ المفضلُ على خلّص عباده سيما ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ المؤيدِ من عنده بأنواع الكرامة والتعظيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ واهتدوا بهدايته مع أن شأنهم هكذا ﴿نُورُهُمْ﴾ الذي اقتبسوه من مشكاة النبوة المصطفوية ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي محيطاً بهم، محفوفاً عليهم وقت عبورهم من الصراط.

ثم لما تفاوتت أنوارهم بحسب الجلاء والخفاء المترتب على أعمالهم واستعداداتهم الفطرية ﴿يَقُولُونَ﴾ مناجين: ﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا على الهداية والرشاد ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ تفضلاً علينا ومزيدَ إحسانٍ بنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ ذنوبنا أي استر أنانيتنا عن عيوب بصائرنا ﴿إِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يدخل في حيطة علمك وإرادتك ﴿قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

ثم قال سبحانه:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ
لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا
مِنَ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المبعوث لإعلاء كلمة التوحيد ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ الذين ستروا بغيوم هوياتهم الباطلة شمسَ الحق، وأنكروا وجودها عناداً ومكابرة، وقاتِل معهم بلا مبالاةٍ بشوكتهم وكثرة عَددهم وعُددهم، هم ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أيضاً مع أنك مؤيدٌ من لدنّا بالحجج القاطعة والبينات الساطعة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ بالأقوال والأفعال، ولا تكن معهم بعد اليوم مثل ملاينتك معهم قبله، بل اشدد عليهم، فإن الله معينك وناصرك، وهم سيُغلَبون عن قريبٍ في الدنيا، ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ المعدُّ لهم ﴿جَهَنَّمُ ۖ﴾ البعد والحرمان، وسعيرُ الطرد والخذلان ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ مصيرُهم ومرجعُهم جهنم، وبالجملة:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم ﴿مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ﴾ وشبَّه حال الكفرة بحالهما في عدم دفع صحبتهم مع المؤمنين، ومحبتهم معهم شيئاً من عذاب الله، إذ ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم نوح ولوط عليهما السلام ﴿صَٰلِحَيْنِ﴾ لقبولنا، مصلحين لأعمالهما وأخلاقهما وعموم أطوارها ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي تلكما المرأتان بالنفاق ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ ولم يدفعا أي العبدان ﴿عَنْهُمَا﴾ أي عن تلك المرأتين ﴿مِنَ﴾

ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ....

عذاب ﴿ ٱللَّهِ ﴾ المنتقم الغيور ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، بل ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ﴾ المعدة للكفار والعصاة ﴿مَعَ﴾ سائر ﴿ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ فيها بلا مبالاةٍ إلى زوجيهما.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ أيضاً ﴿مَثَلًا ﴾ آخر ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ شبَّه حال المؤمنين في وصلة الكافرين بحال امرأة فرعون مع فرعون، وعدم تضرر إيمانها منه، بل تأكد إيمانها بصحبة زوجها فرعون - لعنه الله - اذكر ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ امرأة فرعون بعدما انكشفت بسرائر التوحيد مناجيةً إلى ربها: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع الكرامة، ووفقني على توحيدك ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ وذلك لما آمنت حين غلب موسى على السحرة، فآمنوا له بعدما غُلبوا، فقتلهم فرعون، وأمر بزجرها، وأوتدها بالأوتاد الأربعة في حر الشمس، حتى ترجع عن الإيمان ولم ترجع، ثم أمر اللعين أن يوضع فوقها صخرةً عظيمةً، فقالت حينئذٍ مناجيةً مع ربها من كمال تحننها وانكشافها: رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ الخبيث ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ السيئ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ الخارجين عن ربقة عبوديتك بإيمانهم بهذا اللعين الطاغي، واعتقادهم بألوهيته وربوبيته، فماتت قبل وضع الصخرة.

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿وَ﴾ ضرب الله مثلاً أيضاً للذين آمنوا ﴿مَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ﴾ من كمال نجابتها وكرامتها وطهارة ذيلها وعصمتها ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من مخالطة الرجال، وبالغت في التحصن والتحفظ إلى حيث رضي الله عنها وكرَّمها، وأعطاها ما أعطى من الإرهاصات والكرامات التي خلَت عنها سائر نساء الدنيا، وبعدما كرمناها كذلك ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أي في جوفها من جيب درعها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ الذي كنا نفخنا منه في قالب آدم الصفيّ، ومن تلك النفخة، حبلت بعيسى عليه السلام، ولهذا صار عيسى في الصفوة كآدم، وظهرت منه معجزاتٌ ما ظهرتْ من نبي قط ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿صَدَّقَتْ﴾ مريم ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بعموم كلمات مربيها التي من جملتها خلْقُ عيسى عليه السلام، من ذلك النفخ ﴿وَ﴾ بجميع ﴿كُتُبِهِۦ﴾ المنزلة من عنده على عموم رسله ﴿وَ﴾ من كمال مجاهدتها في طريق الحق وإخلاصها في الطاعات والعبادات واتكالها على الله في مطلق الملمات وكمال تفويضها عليه سبحانه وتسليماً إليه ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي من عداد الكمَّل من أرباب القنوت، المنجذبين إلى حضرة الرحموت، بكمال الخضوع والخشوع.

وفي هذا التمثيلين تعريضٌ لأزواج النبي ﷺ، وحثٌ لهن إلى حُسن المعاشرة ومراعاة الأدب معه ﷺ وكمال المصادقة، وتبعيدٌ لهن عن النفاق

والمراء، والمجادلة معه في أمرٍ أباحه الله له بمقتضى حكمته، إنما ضربهما سبحانه لينزجرن بهما عما جئن به؛ لتكون عظةً وتذكيراً لسائر المؤمنين المتعظين.

جعلنا الله من زمرتهم وجملتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب لكلمات الحق النازلة من الغيب إلى الشهادة، المتفرعة على الأسماء والصفات الذاتية الإلهية: أن تترصد في عموم أوقاتك إلى ما سيتجدد من عالم الخفاء والكمون إلى فضاء البروز والظهور، ثم منها إلى البطون بمقتضى النشأة الحبية الإلهية، فلا بد لك أن تخلي همك وبالك عن مطلق الأشغال الشاغلة لك عن الالتفات والتوجه إلى الله، والتفرج لعجائب مصنوعاته وغرائب مخترعاته، وإياك إياك أن تغفل عنه ساعةً، فإنها تورثك حسرةً عظيمةً طويلةً وخسراناً عظيماً، إن كنت من جملة المستيقظين.

ربنا لا تزغ قلوبنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

سورة الملك

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الملك

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق وكثرة شؤونه وتجلياته المترتبة على أسمائه وصفاته الفائتة للحصر والإحصاء: أن سعة مملكة الحق وملكه وملكوته إنما هي بمقتضى رقائق أسمائه وصفاته الغير المتناهية الظاهرة على مرآة العدم، فيلوح فيها منها هياكل الأشباح التي لا غاية لها ولا نهاية يحيطها، بعضُها مترتب على البعض وبعضُها مقابل للبعض. بعضُها متصفة بالشهادة والجلاء وبعضُها بالغيب والخفاء.

وبالجملة جميع ذرائر الأكوان مربوطة بعضها ببعض برقائق المناسبات والارتباطات الواقعة في عالم الأسماء والصفات.

لذلك أخبر سبحانه في كتابه عن عظمة ملكه وكثرة خيراته واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في مظاهره ومصنوعاته، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن بعموم أسمائه وصفاته التي لا تعد ولا تحصى ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم مظاهره بالرزق الأوفى ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى جنة المأوى وسدرة المنتهى.

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا
تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ ....

﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ تعاظم وتعالى من كثرة الخيرات والبركات المالك الكامل ﴿ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وبقبضة قدرته جميع التدابير الجارية فيه على وجوه الصور والتقادير ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من متفرعات جود وجوده ﴿قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ بالقدرة الشاملة والإرادة الكاملة.

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ وقدَّر ﴿ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ بمقتضى قهره ولطفه وأدارهما بينكم أيها المكلفون ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ ويختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وأصوبه وأصلحه وأخلصه ﴿وَ﴾ إن لم تحسنوا العمل ولم تصلحوه بعد ما أمركم سبحانه بالإخلاص والإصلاح فقد ينتقم عنكم سبحانه بمقتضى غيرته، إذ ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على وجوه الانتقام لمن خرج عن ربقة عبوديته ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ المقتدر على وجوه الإنعام للمحسنين المخلصين.

وكيف لا، هو ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ أظهر وأوجد ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ على عدد الصفات السبع الذاتية وجعلها ﴿طِبَاقًا ﴾ متطابقةً بعضُها فوق بعض جوف بعض، وجعل تطبيقها ونظمها على وجهٍ أحكمٍ ونظامٍ أبلغٍ حيث ﴿مَّا تَرَىٰ ﴾ أيها الرائي ﴿ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ المستوي على عروش الأكوان ﴿مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ ينبئ عن عدم رعاية الحكمة والمصلحة فيه، بل كلها على مقتضى الحكمة المتقنة البالغة، فإن شككتَ أيها المعتبر الرائي فيها لقصور نظرك عن إحاطة

فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ....

ما فيها من الحِكم والمصالح في بادئ الرأي ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وكرِّر النظر ثم انظر ﴿هَلۡ تَرَىٰ﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾ خللٍ وشقوقٍ وقعت فيها لا على مقتضى الحكمة والإحكام؟.

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ إن شئتَ وشككتَ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ مرتين أو مراراً كثيرةً إلى حيث ﴿يَنقَلِبۡ﴾ ويرجع ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي بصرك ﴿خَاسِئٗا﴾ خائباً بعيداً عن المطلوب الذي هو رؤية الفطور والقصور ﴿وَهُوَ﴾ أي نظرك حين رجوعه إليك ﴿حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾ كليلٌ كئيبٌ من طول المعاودة وكثرة المراجعة بلا فائدةٍ تترتب عليها وعائدةٍ تفوز بها من إدراك الفطور والقصور.

﴿وَ﴾ من كمال قدرتنا ومتانة حكمتنا ﴿لَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي السماء المرئية من الدنيا ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي بكواكبَ كثيرةٍ مضيئةٍ منيرةٍ في الليل كالسُّرج، هي سبب رؤيتها، وإلا فلا ترى الأفلاك ﴿وَ﴾ من جملة اختباراتنا الواقعة بين عبادنا أنا ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾ أي تلك المصابيح ﴿رُجُومٗا﴾ أي سبب ظنون وجهالات ﴿لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ وهم المنجمون المرجفون الذين يرجمون بالغيب، مستمسكين بها وبحركاتها وأوضاعها ﴿وَ﴾ بعد ما أضللناهم بها في الدنيا ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ أي النار المسعرة جزاء ما اجترؤوا على الله بدعوى الاطلاع على المغيبات مع أنه من الخصائص الإلهية، وما ذلك إلا من

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا
وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ....

كفرهم بالله واستقلاله في مطلق تصرفاته الواقعة في ملكه وملكوته.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ وادعوا معه الشركة في أخص أوصافه، وهو عالم الغيب ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ البعدِ والخذلانِ والطردِ والحرمانِ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ مصيرُ أهل الكفر ومأواهم من شدة أهوال جهنم وأفزاعها أنهم.

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ أي قصدهم الزبانية لإلقائهم بالعنف والزجر المفرط ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ أي لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً هائلاً مهولاً كصوت الحمار ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هِىَ﴾ أي جهنم حينئذٍ ﴿تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ وتغلي غليان المرحل غيظا وغضباً لأعداء[1] الله.

ومن شدة غضبها وسخطها:

﴿تَكَادُ﴾ وتقرب ﴿تَمَيَّزُ﴾ وتفترق أجزاؤها ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ المفرط ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعةٌ وفرقةٌ من المتفقين المجتمعين على ديدنةٍ قبيحةٍ وخصلةٍ خارجةٍ عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يخوِّفكم من هذا العذاب الهائل، مع أن سنة الله جرت على أن لا يُدخل عباده فيها إلا بعد الإنذار والتخويف.

(١) أي أعداء الله.

﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا
نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾..

﴿قَالُوا۟﴾ حينئذٍ متحسرين: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ فأنذرَنا عنها على أبلغ الوجوه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ النذيرَ وأفرطنا في تكذيبه إلى حيث نفينا الإنزال والإرسال مطلقاً، بل كفرنا بالحق وبجميع ما جاء به النبي النذير من عنده، ونسبنا دعواه إلى السفه والضلال، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قُلْنَا﴾ له حين دعوته وادعائه نزول الكتاب: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم أيها المدَّعون للرسالة ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ عظيمٍ لا ضلال أعظم من ضلالكم.

﴿وَ﴾ بعد ما حكوا أولئك الضالون ما حكوا ﴿قَالُوا۟﴾ من غاية أسفهم وحسرتهم على سبيل التمني: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامَ الرسل المؤيدين بالمعجزات الظاهرة ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ نتأمل ونتفكر في حججهم الساطعة ودلائلهم القاطعة ﴿مَا كُنَّا﴾ الآن ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي في عدادهم ومن جملتهم، وبالجملة.

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ وندموا وما ينفعهم الاعتراف والندم لمضي وقته، بل ﴿فَسُحْقًا﴾ طرداً وتبعيداً عن ساحة عزِّ القبول، وعن سعة رحمة الحق وكنف لطفه ومغفرته ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي لمطلق من دخل بشؤم كفره وإنكاره فيها.

ثم أردف سبحانه حال الكفرة بحال المؤمنين تنشيطاً للسامع، وحثاً له

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ
ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

على التثبت في الإيمان فقال:

﴿ إِنَّ ﴾ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ ﴾ ويخافون ﴿ رَبَّهُم ﴾ أي عذابه ﴿بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي حال كونهم في النشأة الأولى غائبين عنه غير معاينين له ﴿ لَهُم ﴾ عند ربهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ سترٌ ومحوٌ لذنوبهم الصادرة عنهم بمقتضى بشريتهم جزاء إيمانهم بالله وخشيتهم عن عذابه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ يصغر دونه الدنيا وما فيها تفضلاً عليهم وامتناناً، ألا وهو رضاء الله منهم، ورضوانٌ من الله أكبر من الآخرة وما فيها فكيف عن الدنيا.

ثم لما قال بعض المشركين لبعضهم على سبيل التهكم: أسرُّوا قولكم كي لا يسمعه رب محمد، نزلت:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ﴾ وهما سيّان بالنسبة إلى علمه المحيط، وكيف لا ﴿ إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي بما في الضمائر قبل أن يُعبر به أو يُقصد بتعبيره، بل هو عليمٌ بما في استعداداتكم وقابلياتكم المكنونة في عالم الأسماء والصفات قبل ظهوركم في عالم الأشباح.

﴿أَلَا يَعْلَمُ ﴾ العليم الحكيم ﴿مَنْ خَلَقَ ﴾ وقدّر بمقتضى علمه المحيط وقدرته الشاملة وإرادته الكاملة ﴿وَ﴾ كيف لا ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ ﴾ الواصل آثار علمه إلى خفيات الأشياء وأسرارها ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ المحيط خبرته لظواهر

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ
(١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن
فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) ....

المظاهر وبواطنها، وبالجملة :

﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ أيها المكلفون بمقتضى سعة رحمته وجوده ﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينةً سهلةً قابلة للسلوك عليها ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ جبالها أو جوانبها حيث شئتم ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ رغداً واسعاً متى أردتم واشكروا المنعمَ المفضل، ولا تكفروا به وبنعمه ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿ٱلنُّشُورُ (١٥)﴾ أي نشورُ الكل ورجوعُه، إذ لا مرجع لكم سواه، ولا معاد إلا إليه، فيسألكم عما أنعم عليكم ويحاسبكم عليه.

وكيف لا تشكرون نعمه، ولا تواظبون على آداء حقوق كرمه ؟!

﴿ءَأَمِنتُم﴾ عذابَ ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من عذابه النازل من جانب السماء على من لم يشكر نعماءه المتوالية وآلاءه المتتالية من ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ويطويكم بها ويغيبكم فيها كما فعل بقارون ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦)﴾

﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ عذاب ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ﴾ ويمطر ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ﴾ حصباء من قبل السماء فيهلككم بها كما فعل بقوم لوط عليه السلام ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ أيها المسرفون المفرطون في كفران النعم ونسيان حقوق الكرم ﴿كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ وإنذاري عليكم.

وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ
وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ
لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ ....

وإن كذبوك يا أكمل الرسل وبالغوا في تكذيبك وإنكارك، لا تبال بهم وبتكذيبهم وانتظر إلى ما سيؤول أمرهم إليه.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الكفرة المكذِّبين لرسلهم أمثالهم مبالغين في تكذيبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي إنكاري إياهم وانتقامي منهم، فسيلحق أيضاً لهؤلاء الضالين المكذبين لك بأضعاف ما لحقهم.

﴿أَ﴾ ينكرون قدرتنا عن انتقامهم وإهلاكهم ﴿وَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهن في الجو عند الطيران ﴿وَ﴾ بعد ما أردن السرعة ﴿وَيَقْبِضْنَ ۚ﴾ ويضممن أجنحتهن إلى جنوبهن؛ استظهاراً بها على سرعة الحركة مع أن ميلهن بالطبع إلى السفل بثقلهن ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ على خلاف الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ المستعان الشامل برحمته العامة على كل شيء دخل في حيطة قدرته وعلمه وإرادته، وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍۭ﴾ دخل في حيطة الوجود ﴿بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ يدبِّر أمره على وجهٍ يليق به وينبغي له بمقتضى سعة رحمته وجوده.

ثم قال سبحانه مستفهما إياهم على الإنكار والتقريع:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا﴾ الناصر الظهير ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وعون لكم ﴿يَنصُرُكُم﴾ ويعينكم حين بطشِ الله إياكم أيها المسرفون ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ المستوعبِ

إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟
فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ....

بالرحمة العامة على عموم الأكوان، مع أنه لا شيء في الوجود سواه، وبالجملة ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي ما هم ﴿ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ باطلٍ وزورٍ ظاهرٍ، بلا وثوقٍ لهم ولا اعتماد.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ﴾ الرازق المتكفل لأرزاقكم ﴿ ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ ﴾ ويسوق إليكم ما يسد رمقكم ﴿ إِنْ أَمْسَكَ ﴾ سبحانه ﴿ رِزْقَهُۥ ﴾ بإمساك المطر وسائر الأسباب والآلات التي تتوسلون بها إلى أرزاقكم، هل لكم متمسكٌ تتمسكون به وتثقون عليه[1] سواه سبحانه أصلاً؟ كلا وحاشا ليس لكم إلا هذا ﴿ بَل لَّجُّوا۟ ﴾ تمادوا وأصروا على اللجاج وصاروا دائما ﴿ فِى عُتُوٍّ ﴾ لددٍ وعنادٍ ﴿ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ عن الحق وقبوله، تعنتاً واستكباراً.

ثم قال سبحانه مستفهما على سبيل التوبيخ:

﴿ أَ ﴾ يعتقدون الآثار الظاهرة في الأقطار من الوسائل والأسباب، ولم ينسبوها إلى المؤثِّر المسبب لها المختار، وسلكتم في هذا الطريق بأنواع الإنكار والإصرار ﴿ فَمَن ﴾ أي فهل من ﴿ يَمْشِى ﴾ ويمضي ﴿ مُكِبًّا ﴾ ساقطاً ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ ﴾ لوعرة طريقه وظلمة سبيله ﴿ أَهْدَىٰٓ ﴾ إلى مقصده وأرشد إلى مطلوبه ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا ﴾ مستقيماً سالماً عن التزلزل والسقوط راكباً ﴿ عَلَىٰ ﴾ متن ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ وطريق واضح بلا عثورٍ وقصورٍ مثل بهما سبحانه للمشرك المتشبث بالعقل

(١) وفي نسخةٍ: (وتتقون عليه) ومعنى تثقو عليه: أي به.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ....

المنعزل عن الرشد والهداية، وللمؤمن المستمسك بالعروة الوثقى التي هي الشرع القويم الموصل إلى توحيد الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر وحدة الحق واستقلاله في مطلق التصرفات الواقعة في عالم الكون والفساد: ﴿هُوَ﴾ سبحانه القادر المقتدر ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ وأظهركم من كتم العدم إنشاءً إبداعياً ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا به المواعظ والآثار والأخبار الصادرة عن أولي العزائم الصحيحة، المجتازين نحو فضاء اللاهوت بانخلاعهم عن كسوة الناسوت مطلقاً ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها في ملكوت السموات والأرض، فتعتبروا منها إلى مبدعها العليم الحكيم ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ﴾ لتتفطنوا بها إلى عجائب حكمته وبدائع قدرته، كي تنكشفوا بوحدته وتتشرفوا بوصلته لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي الشاكرون الصارفون لهذه النعم العظام إلى ما خُلقت لأجله قليلٌ في غاية القلة.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر قدرتنا على الحشر والنشر والحساب والجزاء على جميع الأمور الواقعة في النشأة الأخرى ﴿هُوَ﴾ سبحانه العزيز الغالب ذو القدرة والاختيار ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي بثّكم وبسطكم بمقتضى قدرته ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد وكلّفكم على الإيمان والأعمال

وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ....

واختبركم بالأوامر والنواهي ﴿وَ﴾ كما أبدعكم أولاً بامتداد أظلاله ورشِّ نوره على مرآة العدم أعادكم أيضاً بقبض أظلاله وأنواره إلى ذاته، فثبت أنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء، فيجازيكم على مقتضى ما اقترفتم من المأمورات الإلهية.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال استبعادهم وإنكارهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الموعود الذي وعدتم الجزاء والحساب والثواب والعقاب فيه، أخبرونا عن وقوعه في أي زمان وإن وقع ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يعنون النبيَ والمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما ألحوّا عليك وألجؤوك إلى التعيين: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ المتعلق لتعيين وقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطّلع عليه أحدٌ من خلقه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ بمقتضى الوحي الإلهي ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ مظهرٌ مبلغٌ ما يوحى إلي من عنده على وجهه، لا طريق لي بوقوع المعهود إلا الوحي، ولم يوح إلي تعيينه، فكيف أتكلم عنه، فعليكم ألا تستعجلوا وقوعه.

وبعد ما تحقق وقوعه وحل وقته :

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي العذاب الموعود في الآخرة ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً منهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي اسودت وقبحت من شدة الكآبة والحزن المفرط ﴿وَقِيلَ﴾ لهم حينئذٍ من قبل الحق: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب هو العذاب

ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا

﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تطلبون وتستعجلون وقوعَه مراءً واستهزاء على سبيل التهكم، فالآن يلحقكم ما تنكرون به في ما مضى.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمشركي مكة بعد ما تطيروا بموتك وموت من معك من المؤمنين ليتخلصوا من شروركم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم بمقتضى قهره وجلاله ﴿وَ﴾ أهلك أيضاً ﴿مَن مَّعِىَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بأن أخّر آجالنا بمقتضى لطفه وجماله، ونحن مؤمنون مخلصون له، مقرُّون بأنه الفاعل على الإطلاق بالإرادة والاختيار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ وينقذ ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ المنكرين على الله وإرادته واختياره وألوهيته مطلقاً ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ نازلٍ عليهم من لدنه سبحانه بشؤم ما اقترفوا من الكفر والعصيان وأنواع الفسوق والطغيان.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعد ما تمادى نزاعهم وتطاول جدالهم، ولم تنفعهم الدعوة والتبليغ كلاماً خالياً عن وصمة المجادلة والمراء منبعثاً عن الحكمة والمصلحة: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ المستعان المستوي على عروش الأكوان بكمال الاستيلاء والاستحقاق ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مخلِصين مستوثِقين بحبل[1] كرمه ووجوده ﴿وَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الوسائل والأسباب العادية ﴿تَوَكَّلْنَا﴾

(١) في المخطوط (بجعل).

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

وفوَّضنا أمورنا كلَّها إليه بالعزيمة الخالصة الصادقة، وأخذناه وكيلاً، واعتقدناه حسيباً وكفيلاً ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أنحن أم أنتم؟!

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكِرين بوجود الصانع الحكيم على سبيل التبكيت والإلزام: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني أيها المسرفون المكابرون ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ أي ظلَّ وصار ﴿مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً إلى حيث لا يصل إليه السجال والدلاء بحبالٍ وحيلٍ ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ جارٍ هامرٍ سهلِ المأخذ سوى الله رب العالمين.

فكيف تنكرون وجوده، مع أنكم مغمورون بسوابغ نعمه، معترفون بسوابق كرمه؟.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المستمسك بعروة الشريعة المصطفوية التي لا عروة أوثق منها ولا جادة أقوم وأعدل: أن تتشبث بها وتعمل بمقتضاها، متوكلاً على الرحمن المستعان، مفوضاً أمورك كلها إليه على وجه الإيقان، معرضاً عن جنود أمارتك ومقتضياتها، مجاهداً معها، مخاصماً إياها، حتى تصيرَ مطمئنةً راضيةً بما جرى عليها من القضاء، صابرةً على ما أصابها من البلوى، إلى أن صارت فانيةً عن هوياتها الباطلة، باقيةً بهوية الحق وبقائه.

جعلنا الله ممن فنى فيه وبقي ببقائه بمنِّه وجوده.

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَالْقَلَمِ ....

فاتحة سورة القلم

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وشمول أوصافه الذاتية على عموم مظاهره ومصنوعاته: أن قلم تقديره الذي[1] هو أول مصنوع صدر منه سبحانه قادرٌ غالبٌ على تصويراتٍ لا تتناهى وتشكيلات لا غاية لها، فأثبت به سبحانه في لوح قضائه صدور عموم مظاهره ومصنوعاته ظاهراً وباطناً، غيباً وشهادةً، أزلاً وأبداً.

ومن كمال عظمته ورفعة قدره أقسم به سبحانه لبراءة حبيبه ﷺ عما يتهمه الظالمون ويقولون في حقه عناداً ومكابرةً أولئك المسرفون المفرطون.

فقال بعد التيمن باسمه مخاطباً لحبيبه ﷺ على طريق الرمز والإيحاء:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ﴾ المطلع على عموم ما في استعدادات عباده من الفضائل والكمالات ﴿ الرَّحْمَٰنِ﴾ لهم يهديهم إلى سبيل الخيرات ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى أعلى الدراجات وأرفع المقامات.

﴿نٓ﴾ أيها النبي النائب عن الحق، الناظرُ بنور الله، النقيُّ عن جميع الرذائل والآثام المنافية لمرتبة النبوة والولاية ﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ الْقَلَمِ﴾ الأعلى

(١) في المخطوط (هذين).

وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

﴿وَ﴾ بحق ﴿مَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ ويكتبون بها الملأ الأعلى من الأسماء والصفات المأمورة بتصويرات الأشياء الكائنة في النشأة الأولى والأخرى حسب آثار الأوصاف والأسماء الإلهية التي لا تُعد ولا تحصى.

﴿مَآ أَنتَ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي رباك على الهداية العامة والولاية المطلقة وأعطاك من الفضائل والكمالات المتعلقة لمرتبتي النبوة والولاية ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ أي ما أنت غافلٌ عنها، ذاهلٌ عن أداء حقها، جاهلٌ بشكر نعمها ومولاها(١).

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل باحتمالك أعباء الرسالة والتبليغ وتصبُّرك على أذيات أصحاب الزيغ والضلال ﴿لَأَجْرًا﴾ عظيماً من عند الله ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ منقطع أبد الآبدين، إذ ما يترتب على مرتبتك الجامعة من الكرامات اللائقة البديعة، لا انقطاع لها أصلاً ﴿وَإِنَّكَ﴾ من كمال تخلقك بالأخلاق الإلهية وتحققك بمقام الخلة والخلافة ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ لا خلق أعظم من خلقك لحيازتك وجمعك خُلُقَ الأولين والآخرين حسب جامعية مرتبتك، وبالجملة

﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أولئك المسرفون المفرِّطون بنسبتك إلى الجنون حين تبلى السرائر وينكشف ما في الضمائر وينزل العذاب على أهله ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ أي أيكم يفتن بالجنون: المؤمنون المهتدون

(١) في المخطوطة (موليها).

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ

بهدايتك أو الكافرون الضالون بغوايتهم. وبالجملة:

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك على الرشد والهداية ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الموصلِ إلى توحيده ﴿وَهُوَ﴾ أيضاً ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ المتمكنين منهم على جادة التوحيد والصراط المستقيم الموصِل إلى جنة الرضا وروضة التسليم.

وبعد ما سمعت نبذاً من شأنك في النشأة الأخرى:

﴿فَلَا تُطِعِ﴾ أيها النبي المجبول على الهداية والفلاح ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ المجبولين على الغواية والضلال، يعني مشركي مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فنهاه سبحانه أن يطيعهم، ويقبلَ منهم دعوتهم، فإنهم ﴿وَدُّوا۟﴾ وأحبُّوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ وتلائم معهم وتوافقهم في دينهم ﴿فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ معك ويلاينونك ويوافقون معك ولا يطعنون بدينك.

﴿وَ﴾ بعد ما صرت متخلقاً بالخلق العظيم ومتصفاً بالأوصاف الحميدة الإلهية ﴿لَا تُطِعْ﴾ آراء[1] ذوي الأخلاق الذميمة والأطوار القبيحة مطلقاً، سيما ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ مبالغٍ بالحلف الكاذب لترويج آراء ذوي الباطل الزاهق الزائل ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ مهانٍ عند الناس بسبب الكذب والحلف عليه.

﴿هَمَّازٍ﴾ عيَّابٍ طعَّان يغتاب ويطعن بعض الناس عند بعضهم ﴿مَّشَّآءٍ﴾

---

(١) في المخطوط (يطعنون).

بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ
وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ....

يدور بين الناس ﴿بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي ينقل حديث بعضٍ عن بعضٍ، حتى يوقع بينهم الفتنة والبغضاء.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شحيحٍ بخيلٍ، لا ينفق من ماله على من يستحقه، ويمنع أيضاً صاحبَه وصديقه عن الإنفاق؛ لئلا يلحق العار عليه خاصة ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز الحد في أنواع الظلم وأصناف الفسوق والعصيان ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ مبالغ في اقتراف الإثم والعدوان بلا مبالاة.

﴿عُتُلٍّ﴾ غليظِ الهيكل قاسِ القلب كريهِ المنظر عريضِ القفا متناهٍ في البلادة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الاتصاف بالأوصاف المذمومة المذكورة ﴿زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ دعيٍّ بين القوم، لا يكون له نسبٌ معروفٌ، ولا حسبٌ مستحسنٌ مقبولٌ.

ومن كمال دناءته وخساسته:

﴿أَن كَانَ﴾ أي أنه كان ﴿ذَا مَالٍ﴾ عظيمٍ ﴿وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ كثيرةٍ مستحقةٍ شكر المنعم المفضل، ولم يشكره، بل يكفره؛ لأنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالةُ على وحدة ذاتنا وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿قَالَ﴾ من كمال كفره وكفرانه وبغيه وعدوانه ماهذا إلا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي الأكاذيب القديمة التي سطرها الأولون ودونوها.

قيل هذا هو الوليد بن المغيرة الذي جمَع الله فيه هذه المثالب الذميمة.

وبالجملة لا تطعه يا أكمل الرسل ولا تلتفت إلى ثروته وسيادته، فإنا بمقتضى قهرنا وجلالنا:

سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ ....

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ ونُعلمه بالكيّ ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي أنفه بحيث يُعرف به في عرصات المحشر.

﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وانتقامنا من أهل مكة ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أصبناهم وابتليناهم بالقحط سبع سنين لكفرانهم بنعمنا التي من معظمها بعثة الرسول الذي هو أكمل الرسل منهم، فكذبوه وأنكروا دينه وكتابه واستهزؤوا به ﴿كَمَا بَلَوْنَآ﴾ وأصبنا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ التي اسمها ضروان، كانت دون صنعاء بفرسخين لصالحٍ كان ينادي الفقراء وقتَ الصرام، فلما مات، قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا؛ لضاق علينا، فإن المالَ قليلٌ والعيالَ كثيرٌ، وكان مالُ أبينا كثيراً وعياله قليلاً، فحلفوا ليصرمنها مصبحين خيفةً من المساكين، كما حكى عنهم سبحانه، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ يعني أولاد الصالح وورثته ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ وليقطعنها ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي لا يتكلمون بكلمة: إن شاء الله، حين تقاولوا وتقاسموا.

وبعد ما اتفقوا على تحريم الفقراء، ولم يفوضوا أمرهم إلى مشيئة الله ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ أي على الجنة ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاءٌ مخصوصٌ بها، أحاط جميع جوانبها لا لما في[1] حواليها من البساتين الأخرى ناشئة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل

(١) في المخطوطة (لم ما في).

وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ
﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ ....

الرسل ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ في بيوتهم.

﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنة وصارت ﴿كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي صارت كالتي صُرم ثمارها بحيث لم يبق فيها شيء، أو صارت كالليل في اسودادها وإحراقها، أو كالنهارِ من غاية يبسه وجفافه.

﴿فَتَنَادَوْا۟﴾ أي نادى بعضهم بعضاً حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ داخلين في الصباح المعهود للصرام.

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟﴾ واخرجوا غدوة أيها المُلّاك ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قاصدين صرمها وقطعها.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟﴾ بأجمعهم نحوها ﴿وَهُمْ﴾ حينئذٍ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ويكتمون ذهابهم عن الناس، ويسرون كلامهم في ما بينهم مخافة:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ قصدٍ تامٍ وسرعةٍ كاملةٍ ﴿قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ على القطع بلا مشاركٍ ومعينٍ.

﴿فَلَمَّا﴾ وصلوا إليها ﴿رَأَوْهَا﴾ كذلك ﴿قَالُوٓا۟﴾ في بادئ الرأي: ما هي جنتنا هذه بل ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ طريقَها، ثم لما تأملوا في أمَارتها، قالوا على سبيل الإضراب عن القول الأول من كمال الأسف والحسرة:

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ حرمنا عنها وعن خيراتها لخساستنا وخباثة نفوسنا. وبعد ما حُرموا منها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم رأياً وعقلاً على سبيل التقريع والتشنيع لإخوانه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ وقت مشورتكم على تحريم الفقراء واتفاقكم على منعهم: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي هلا تذكرون الله بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء حتى يزيد عليكم نِعَمَه، وقد قال هكذا حين عزموا أولاً على المنع، وشاوروا فيه.

وبعد ما وقعوا في الشدة والبلاء اعترفوا بالظلم حيث ﴿قَالُوا﴾ عن كمال الندامة والإنابة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ ننزهك من أن ينازِعَك في ملكك وسلطانك، أو يخالَف حكمُك أو شأنك ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ خارجين عن أمرك بالإنفاق، معرضين أنفسنا على عذابك وانتقامك.

تب علينا بفضلك وكرمك، إنك أنت التواب الرحيم.

وبعد وقوع الواقعة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ يعني يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم من أنكر، ومنهم من استصوب ومنهم من أشار ومنهم من سكت، وبالجملة

﴿قَالُوا﴾ أي الكلُّ متحسرين: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ وهلكتنا أدركينا ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾ مجاوزين حدود الله، مستحقين للويل والثبور.

وبعد ما أنابوا إلى الله وتضرعوا نحوه على محض الندم والإخلاص،

عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ....

قالوا على سبيل الطمع والرجاء:

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ ببركة التوبة والرجوع بالإخلاص والاعتراف بالخطأ، والاستغفار بالندم، والانكسار التام، وقد روي أنهم أُبدلوا خيراً منها ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ راجون منه العفو، طالبون الخير والمغفرة.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ لمن خرج عن مقتضى الحدود الإلهية في الدنيا ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعدةِ لأصحاب الغفلة عن الله ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم بأضعافها وآلافها ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ويعتقدون وقوعَها لاحترزوا عما يؤولهم إلى عذابها، ويوقعهم في وبالها ونكالها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المتحفظين نفوسهم عن غضب الله، المتحرزين عن الخروج عن مقتضى الحدود الإلهية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وفَّقهم إلى صيانة النفس عن المعاصي والمنكرات حين وصولهم إلى كنف حفظه وجوار قدسه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ أي روضة الرضا وجنة التسليم، لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ، خالدين فيها أبداً، والله عنده أجر عظيمٌ لمن وصل إليه وتحقق دونه.

ثم لما كان الكفرة يقولون: إن صح أنا نُبعث كما يزعم محمد وأصحابه لم يفضلونا هناك أيضاً، بل نحن هناك أيضاً أحسن حالاً منهم كما في الدنيا، رد الله عليهم زعمهم هذا بقوله:

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ
﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا
تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ....

﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ يعني أيزعم الكفرة المفسدون المفرطون أنا نجعل ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المتصفين بالإيمان والأعمال الصالحة، المنزهين عن مطلق العصيان ولوازمه ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الموصوفين بأنواع الجرائم والآثام الخارجة عن مقتضى الأحكام الإلهية الجارية على مقتضى الحكمة والعدالة.

﴿مَا لَكُمْ﴾ أي ما عرض عليكم ولحق بكم أيها العقلاء حتى أخرجكم عن مقتضى العقل الفطري ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وتدَّعون مساواة المسيء مع المحسن، فكيف يفضله عند العليم الحكيم المتقِن في عموم الأفعال على مقتضى القسط والعدالة.

أتحكمون هذا بمقتضى رأيكم الفاسد أيها الضالون؟!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ﴾ نازلٌ عليكم من السماء ﴿فِيهِ﴾ أي في الكتاب ﴿تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وتقرؤون هكذا ؟!

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ أي في الكتاب ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي ما تختارون لأنفسكم وتشتهونه من خير ما تجدون فيه.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ﴾ عهود ومواثيق مؤكدة لازمةٌ ﴿عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مشتملةٌ متضمنةٌ لهذا ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ به علينا من أن الخير والكرامة لكم عند الله أكثر مما لنا ؟!

سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ ....

﴿ سَلْهُمْ ﴾ يا أكمل الرسل وفتش عنهم على سبيل التبكيت والإلزام ﴿ أَيُّهُم ﴾ ﴿ بِذَٰلِكَ ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ قائمٌ يستدل عليه ويصححه، أهو أي الزعيم المستدل واحد منهم.

﴿ أَمْ لَهُمْ ﴾ في هذا الدعوى ﴿شُرَكَاءُ﴾ متشاركون في هذا القول والحكم، وهم يقلدونهم، فإن ادعوا شركاء، قل لهم نيابة عنا: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ حتى يثبتوا الدعوة ويصححوها ﴿ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في هذه الدعوة.

وبعد ما بُهتوا اذكر لهم يا أكمل الرسل :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ الأمور والخطوب ﴿ عَن سَاقٍ ﴾ أي عن أصلها وحقيقتها وتبلى السرائر برمتها، وارتفعت حجب الأغيار وسدل الاعتبار بأسرها، وبالجملة لم يبق إلا الله الواحد القهار ﴿ وَيُدْعَوْنَ ﴾ حينئذ هؤلاء الأظلال الهالكون في تيه الحيرة والضلال ﴿ إِلَى السُّجُودِ﴾ والتذلل على وجه الانكسار لدى الملك الجبار ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ حينئذٍ لمضيّ نشأة الاختيار وأوان الاختبار.

بل صاروا ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلةً حاسرةً ﴿ أَبْصَارُهُمْ ﴾ هائمةً عقولهم، وبالجملة ﴿ تَرْهَقُهُمْ ﴾ وتلحقهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ محيطةٌ بجميع جوانبهم ﴿وَ﴾ كيف لا يكونون كذلك يومئذ، إذ هم ﴿ قَدْ كَانُوا ﴾ في نشأة الاختبار ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ ﴾ حينئذٍ

سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ....

﴿سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ متمكنون قادرون عليه، فلم يفعلوا عناداً ومكابرةً، فالآن قد انقضى وقت الاعتبار، فلا ينفعهم التذلل والإنكسار سواءً قدروا أو لم يقدروا.

وبعد ما بالغ المنكرون المكذِّبون في قدح القرآن وطعنه، وأصروا على العناد والإستكبار.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي خلّني يا أكمل الرسل ﴿وَ﴾ وفوض عليّ أمر ﴿مَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، ولا تُتعب نفسك في معارضتهم ومجادلتهم، ولا تعجل في أخذهم وانتقامهم، فإني أنتقم منهم وأكفيك مؤنة شرورهم، فاعلم أنا ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي ندنيهم درجةً درجةً إلى سوء العذاب، بأن نهملهم[1] في الدنيا، وننعم عليهم، ونديم صحتهم، ونوفر عليهم أسباب الشقاوة، حتى صاروا مغمورين في الكفر والطغيان، منهمكين في الضلال والعصيان، ثم نبطشهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي من جهةٍ وطريقة لا يفهمون أنه من جهته وطريقه مكراً عليهم وزجراً لهم.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم كيداً عليهم، وهم لا يشعرون ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ محكمٌ لا يفهمه أحد، ولا يدفعه شيءٌ.

أينكرون إرشادك وتبليغك إياهم عناداً ومكابرةً ؟

﴿أَمْ﴾ يظنون أنك ﴿تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ جُعلاً على إرشادك وتكميلك إياهم ؟

---

(١) في المخطوط (نمهلهم) وهي الصح.

فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا
تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ
بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ ....

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي من أجل غرامةٍ ﴿مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بحملها فيعرضون عنك ويكذّبونك بسببها؟.

﴿أَمْ﴾ يدّعون الاطلاع على المغيبات ويزعمون أن ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي لوح القضاء ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ منه جميع ما يحكمون به من الإقرار والإنكار، وبه يستغنون عن تعليمك وإرشادك؛ لذلك يكذّبونك وينكرون عليك؟.

وهم وإن بالغوا في العناد والإنكار.

﴿فَٱصْبِرْ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهوتأخير نصرك عليهم، وإمهالهم زماناً على حالهم، ولا تستعجل في مؤاخذتهم ﴿وَلَا تَكُن﴾ في الاستعجال ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني أخاك يونس بن متى عليه السلام، فاستعجل العذاب لقومه، ثم لما ظهرت أماراته، خرج من بينهم مغاضباً عليهم، حتى اقتحم البحر، فساهم في السفينة، فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربَّه في بطن الحوت ﴿وَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ مملوءٌ غضباً وغيظاً، مبتلى بالبلاء العظيم.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ أدركته ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني لو لم يوفقه سبحانه على نعمة التوبة والإنابة والرجوع إليه على وجه الإخلاص والندامة ﴿لَنُبِذَ﴾ وطُرح البتةَ ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي الأرض الخالية عن الشجر ﴿وَهُوَ﴾

مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ....

حينئذٍ ﴿مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ مليمٌ مطرودٌ من الرحمة والكرامة، لكن أدركته العناية الإلهية، وانفتح له باب التوبة والاستغفار على وجه الندم والانكسار، فاستغفر ربه وتاب عليه، وأجاب له تفضلاً عليه وامتناناً ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أيضاً لمصلحة النبوة فأرسله إلى قومه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ الكاملين في الصلاح، الفائزين بالعصمة والفلاح.

﴿وَ﴾ من غلظ غيظهم معك يا أكمل الرسل وشدة شكيمتهم وضغينتهم بالنسبة إليك ﴿ إِن يَكَادُ﴾ أي أنه يقرب ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وستروا محامد أخلاقك ومحاسن شيمك ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي حين سمعوا منك تلاوة القرآن المعجز، وتعجبوا من بدائع نظمه، وغرائب أسلوبه، وكمال فصاحته وبلاغته، ومتانة تركيباته الفائقة على تراكيب عموم أرباب اللسن والفصاحة، وعجائب معانيه التي قرعت أسماعهم؛ لذلك حسدوك خفيةً، وقصدوا مقتك بإصابة العين ﴿وَ﴾ إن كانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ عند الملأ : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ يتكلم بكلام المجانين ما هو من جنس كلام الناس، تلبيساً على ضعفاء الأنام، وتغريراً لهم؛ لئلا يتفطنوا على عظمة شأنك ورفعة قدرك ومكانك.

وهم في خلواتهم على ظنةٍ تامةٍ وحسدٍ كاملٍ مما صدر منك وظهر عليك

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

من الخوارق ﴿وَ﴾ كيف يقولون لك: مجنون، وينسبون كلامك إلى الجنون، مع أنه ﴿مَا هُوَ﴾ أي القرآن المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هدايةٌ ورشدٌ وتبصرةٌ كاملةٌ وتذكيرٌ شاملٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي لعموم المكلفين ممن يوفقهم الحق إلى صراط مستقيم.

جعلنا الله ممن تذكر به واتعظ بما فيه بِمَنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق التوحيد هداك الله إلى سواء السبيل: أن تتصبر على مشاق الطاعات ومتاعب التكاليف الواقعة في سلوك طريق الفنا، سيما أذيات الزائفين الضالين المائلين عن سبيل الرشاد، المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية، فعليك ألا تلتفت نحوهم، ولا تبال بشأنهم، ولا تستعجل بانتقامهم، فإن الله يكفي عنك مؤنة شرورهم، فعليك الاصطبار والوقار، والأمر بيد الله الحكيمِ الجبارِ القديرِ القهارِ، فسينتقم من أهل البغي والإنكار على أبلغ وجه وآكده.

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الحاقة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد، وانكشف بوقوع الطامة الكبرى التي اندكت دونها الأرض والسموات العلى، وفنيت عندها هياكل الأشباح، واضمحلت هويات الأشياء: أن ظهور عموم المظاهر إنما هو بحسب الأسماء الإلهية والصفات الذاتية التي امتد وانبسط على مرآة العدم، وانعكس منها ما انعكس من سراب العالم، فإذا قبض الحق ما أبدى، انقهرت ماهيات الأشياء وتلاشت هوياتها الباطلة، ولم يبق إلا الحق الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، بحيث لا يعرضه تغيير وزوال، ولا يعتريه تبدُّلٌ وانتقالٌ.

لذلك أخبر سبحانه حبيبه ﷺ عن وقوع الحاقة الحقيقية الحقية، وأبهمها عليه ﷺ تهويلاً وتفخيماً لشأنها فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر وبطن إظهاراً للقدرة الغالبة ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ عليه بامتداد أظلاله للظهور والبروز ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليه يقبضها إلى ذاته للخفاء والبطون.

﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ ....

﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾ أي النشأة الأخرى التي ظهرت فيها حقية الحق وثبوته وتحقق دونها مَن على الحقِّ، وفاز بجزائه، واستقر في دار السرور، ومن على الباطل ولحق العذاب المعد له، واستقر على الويل والثبور، ثم استفهم سبحانه عنها تهويلاً وتعظيماً فقال:

﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾﴾ التي انقهرت دونها أظلال الأغيار وأشباح العكوس والسوى مطلقاً وبروز الله الواحد القهار؟! ثم زاد سبحانه على تهويلها بأن نفاها عن إحاطة علم حبيبه ﷺ الذي جاء من عنده رحمة للعالمين إياها فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أي وأيّ شيء أعلمك وأفهمك يا أكمل الرسل ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ التي طُويت دونها نفوس الكثرات والإضافات مطلقاً، وفنيت عندها عكوس الأسماء والصفات رأساً، وبالجملة انقهرت رسوم الناسوت، ولم يبق إلا الحي القيوم اللاهوت، ولا شك أنه متعالٍ عن مطلق الإدراك والاطلاع المترتب على نشأة الناسوت.

قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمكذبين بها والمنكرين عليها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ أي بالحاقة التي يقرع الأسماعَ سماعُ أهوالها، ويدهش العقولَ ذكرُ أفزاعها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ أي بسبب طغيانهم بالتكذيب

وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ....

المتجاوز عن الحد، أُهلكوا بصيحةٍ هائلةٍ مجاوزةٍ عن حد الصياح.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ باردةٍ في غاية البرودة ﴿عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ شديدة العصف، بحيث لا يقدرون[1] على دفعها وردها أصلاً، حين:

﴿سَخَّرَهَا﴾ وسلَّطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ سبحانه بمقتضى قهره وانتقامه ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعاتٍ مترادفاتٍ قاطعاتٍ قالعاتٍ ﴿فَتَرَى﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي في تلك الأيام والليالي ﴿صَرْعَى﴾ هلكى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ ساقطةٍ عن أصولها، لا جوف لها.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم﴾ أي ما ترى لهم بعد تلك الأيام ﴿مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ أي لم يبق منهم نفسٌ لها حياةٌ بعد تلك الواقعة الهائلة.

﴿وَ﴾ بعد انقراض هؤلاء الغواة الطغاة الهالكين في تيه الجهل والعناد ﴿جَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ الطاغي المجاوزُ عن الحد والبغي والعدوان ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ ويقدم عليه من الأمم الباغية، أو من معه من ملئه وأشرافه على القراءتين ﴿وَ﴾ جاء أيضاً ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ هي قرى قوم لوطٍ عليه السلام والمراد مَن فيها كلهم جاؤوا ﴿بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ المعهودة التي هي إنكارهم بيوم الحاقة الحقة على وجه المبالغة.

(١) في المخطوطة (بحيث لا يقدروا).

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ....

وبعد ما جاء الرسل إليهم بالوحي

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي عصى كل أمةٍ برسولها المبعوث إليهم؛ ليهديهم إلى طريق الرشاد، فكذبوه واستهزؤوا معه، وبالغوا في تكذيبه وعصيانه سبحانه ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ سبحانه ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ زائدةً شديدةً على مقتضى ما ازدادوا في العصيان والتكذيب.

اذكر يا أكمل الرسل شدة أخذنا إياهم:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ بعد ما أمرناه بالطغيان في يوم الطوفان ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي آباءكم الذين آمنوا بنوحٍ عليه السلام، وأنتم في أصلابهم ﴿فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ أي السفينة التي صنعها نوح بتعليمنا إياه قبل الطوفان بمدةٍ، وأغرقنا الكفرة بأجمعهم إلى حيث لم يبق على الأرض سوى أصحاب السفينة أحدٌ من البشر، وإنما حملناكم عليها وأنجيناكم بها.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي هذه الفعلة الجميلة التي هي نجاة المؤمنين من الطوفان العظيم ﴿لَكُمْ﴾ أيها المستخلَفون المكلَّفون ﴿تَذْكِرَةً﴾ عظةً وعبرةً وتبصرةً دالةً على كمال قدرة الصانع الحكيم ومتانةِ حكمته ﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي تستحضر بها وتحفظها أي هذه التذكرة والتبصرة الكاملة ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ حافظةٌ للعِبر والتذاكير المورثة للقلوب الصافية الخائفة خيراً كثيراً ونفعاً كبيراً.

وبعد ما بالغ سبحانه في وصفِ القيامة وشرح أهوالها وأحوالها، وذكرِ حال من كذب بها، ومآلِ أمره، أراد أن يشرح ما ظهر فيها من الأمور الهائلة والوقائع العظيمة عند قيامها، فقال:

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾........................

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ وهي النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَ﴾ بعد ظهور النفخة الأولى ﴿حُمِلَتِ﴾ ورُفعت ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنها التي استقرتا عليها، بأن أمر عليهما سبحانه بالتسيير والاضطراب بمقتضى القدرة الغالبة ﴿فَدُكَّتَا﴾ انكسرتا وانبسطتا، فصارتا ﴿ دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ أي قاعاً صفصفاً مساواةً ملساء لا عوج لها ولا أمتاً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي حين وقوع هذه الحالة الهائلة ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ وقامت القيامة الكبرى والطامة العظمى.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انحلت التئامها وتضامُّها، وتضعضعت بنيانها وأركانها ﴿ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ ضعيفةٌ منهدمةٌ منحلةُ الأجزاء.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي جنس المَلَكِ ينزلون ﴿ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ﴾ أقطارها وأنحائها بعد ما كانوا في حافاتها وحوافها ﴿وَ﴾ بعد تخريب السموات وانهدامها ﴿ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ فَوْقَهُمْ﴾ أي فوق الملائكة النازلين على الأرجاء ﴿ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ من الملائكة بعد ما كانوا قبل ذلك أربعة، إذ حملة العرش في النشأة الأولى أربعة، وفي النشأة الأخرى ثمانية، كما أشار إليه ﷺ في الحديث، كأنه أشار بالأربعة إلى أمهات الصفات الإلهية

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾

التي هي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة، وبالثمانية إلى مجموع الصفات الذاتية، وبالجملة.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أيها الأظلال الهالكة على الله عرضَ العسكر على السلطان بحيث ﴿لَا تَخْفَىٰ﴾ وتسترُ ﴿مِنكُمْ﴾ في يوم العرض ﴿خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ سرٌّ مستورٌ محجْوبٌ على الله، حتى يكون العرض للاطلاع، بل الكل في حضرة علمه حاضرٌ غير مغيبٍ ومخفيٍ.

وإنما تعرضون ليظهر كمال القسط والعدالة الإلهية بالنسبة إلى عموم العباد حتى ظهر أن الحجة البالغة لله.

ثم فصّل سبحانه أحوال العباد في الحساب والجزاء وإتيان صحف أعمالهم ليطالعوا فيها جميعَ ما اقترفوا في نشأة الاختبار، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ﴾ لمن حوله فرحاً مسروراً ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ أي تعالَوا اقرؤوا[1] كتابي.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ في النشأة الأولى ظناً منتهياً إلى الجزم واليقين ﴿أَنِّي﴾ اليوم ﴿مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ على الوجه الأحسن، وبواسطة إيقاني وجزمي، كنت أخاف ألا يصدر[2] مني شيءٌ أعاقب بسببه.

﴿فَهُوَ﴾ حينئذٍ ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ صاحبها عنها؛ لكونها صافية عن

---

(١) في المخطوط (تعالوا تقرؤوا).

(٢) في المخطوط (يصور).

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي
الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ
أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ....

مطلق الكدورات.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ رفيعةٍ مكاناً و مكانةً.

﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها ﴿دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قريبةٌ لمن ناولها، مهما أراد تناولها، ناولها بلا مشقةٍ وتعبٍ، ويقال لهم حينئذٍ:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من ثمار الجنة ومائها ﴿هَنِيئًا﴾ سائغاً مريئاً، كلُّ ذلك ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدَّمتُم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ الماضية في نشأة الاختبار، فيصور لكم بهذه الصور البديعة في النشأة الأخرى.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ بعد ما رأى تفصيل المعاصي والمقابح الصادرة منه في نشأة الاعتبار، متمنياً متحسراً من كمال الضجرة والأسف المفرط: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ هذا.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ فيه

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ﴾ هذه الحالة الآتية علي ﴿الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ الفارقة الفاصلة بيني وبين الحياة، بحيث لم أصر حياً بعد هذه الحالة، حتى لا أُفتضح على رؤس الأشهاد.

ثم قال متأسفاً متحسراً على ما مضى عليه:

مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ....

﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ ودفعَ ﴿عَنِّي﴾ العذابَ ﴿مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾ أي ما نُسب إلي من الأموال والأولاد والأتباع.

بل ﴿هَلَكَ﴾ وضاع ﴿عَنِّي﴾ اليوم ﴿سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي تَسَلطُني على الناس، وتفوقي على الأقران.

وهو في أمثال هذه الهواجس على سبيل الحسرة والضجرة، قيل للموكَّلين من قِبل الحق: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ بالأغلال الضيقة الثقيلة.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ العظيمَ المعهودَ الذي يُعد لأصحب الثروة من الكفرة ﴿صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ واطرحوه.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ قدرها طولاً ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراعٍ لا يَعرفُ طولهَا إلا الله ﴿فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ وأَدخلوه وأَلقوه بها، بحيث يصيرُ محفوفاً بها، لا يقدر على الحركة أصلاً. وكيف لا يعذبُ كذلك؟

﴿إِنَّهُۥ﴾ من كمال نخوته وتجبره ﴿كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ المستحق للعبودية والإيمان عتواً وعناداً.

ولا شك أنَّ من تعظَّم على الله العلي العظيم، فقد استحق أعظم العذاب واستوجب أشد النكال.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَحُضُّ﴾ أي لا يحبُّ ولا يرضى ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ إن أطعمه أحدٌ فضلاً أن يطعمه هو نفسُه من ماله.

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ....

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا﴾ أي في يوم العرض والجزاء ﴿حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ قريبٌ من أقاربه يحميه ويشفع له كما في الدنيا.

﴿وَلَا طَعَامٌ﴾ يأكله ويشبع منه ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي غُسالة أهل النار، وما يسيل منهم من القيح والصديد.

وبالجملة ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ﴾ أي الغسلين ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي أصحاب الخطايا والعصيان العظام والجرائم الكبيرة والآثام.

وبعد ما شرح سبحانه من أحوال يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها، وما جرى فيها من الوعيدات الهائلة والمصيبات الشديدة الشاملة فرَّع عليه قولَه:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي لا حاجة في إثبات ما ثبتَ وتبيين ما بيّن بالقسم ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من المظاهر والمجالي.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ منها من المقسمات التي لم نُطلع أحداً عليها، فعليكم أيها المكلفون أن تتوجهوا إلى القرآن المنزلِ عليكم على سبيل التبيان والبيان، فتعتقدوا جميع ما فيه حقاً صدقاً، وتمتثلوا بأوامره، وتجتنبوا عن نواهيه.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ نفسُه، لا يتأتى منه المراء والافتراء على الله، إذ هو منزَّهٌ عن أمثال هذه الرذائل المنافية لمنصب

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ....

الرسالة التي هي مرتبة الخلافة والنيابة عن المرسِل الكريم.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي القرآن ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ﴾ كما يقوله في حقه بعض الكفرة الجاهلين بقدره وشأنه، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ بصدقه وحقِّيته؛ لفرط عنادكم واستنكاركم.

﴿وَلَا﴾ هو ﴿بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ﴾ كما زعم بعضهم أن محمداً ﷺ كاهنٌ، لكن ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وتتعظون أن ما فيه ليس من جنس كلام الكهنة، لا لفظاً ولا معنىً، إذ ما في القرآن من السرائر والأحكام مشعرةٌ بالحكمة المتقَنة الإلهية، التي هي بمراحلَ عن أحلام الكهنة المنحرفين عن جادة التوحيد والإسلام.

بل هو ﴿تَنزِيلٌ﴾ صادرٌ ناشئٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ لتربية الكل على مقتضى الحكمة؛ ليستعدوا إلى فيضان التوحيد واليقين.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي اختلق وافترى ﴿عَلَيْنَا﴾ محمدٌ ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ من تلقاء نفسه بلا وحيٍ منا.

﴿لَأَخَذْنَا﴾ البتة وانتقمنا ﴿مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي بالقدرة الكاملة كما ننتقم من سائر العصاة والمفترين.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ﴾ زجراً عليه وتعذيباً له ﴿ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي نياط قلبه الذي

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ ....

منه عموم إدراكاته.

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها المكلَّفون ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ حينئذٍ ﴿عَنْهُ﴾ أي عن أخذه وعذابه ﴿حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ مانعين يمنعوننا عن بطشه وتعذيبه.

يعني: أن محمداً ﷺ لا يفتري علينا شيئاً لأجلكم أيها الكافرون، وهو ﷺ يعلم منا أنه لو افترى علينا شيئاً من تلقاء نفسه، ونَسَبَه إلينا ظلماً وزوراً، لعذبناه عذاباً شديداً، بحيث لا يقدرُ أحد أن يدفع عذابنا عنه.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ صادرةٌ منا متعلقةٌ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ المتحفظين أنفسهم عن مقتضيات قهرنا وجلالنا.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ﴾ بمقتضى علمنا الحضوري ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أيها الكافرون المفترون، فنجازيكم على مقتضى تكذيبكم.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ في الدنيا والآخرة يتحسرون في الدنيا من نزوله على المؤمنين، وإن كانوا لا يُظهرون، ويتحسرون أيضاً في الآخرة بترتب الثواب على من صدَّقه وآمن به، وهم حينئذٍ يتحسرون ويتندمون على عدم الإيمان والتصديق به.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ بالنسبة إلى من وصل إلى مرتبة اليقين الحقي، مترقياً من اليقين العلمي والعيني.

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿فَسَبِّحْ﴾ يا أكمل من وصل بمرتبة حق اليقين ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ الذي ربَّاك على الخُلُق العظيم، وأوصلك إلى روضة الرضا وجنة التسليم، بلطفه العميم.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المتحققُ بمرتبة حق اليقين، مكنَّك الله عليها بلا تذبذبٍ وتلوينٍ: أن تتأمل في مرموزات القرآن، وتتدبرَ في كشف السرائر المودَعة فيه بقلبٍ خالٍ عن مطلق الوساوس والأوهام، صافٍ عن الكدورات الحاصلة من تقليدات ذوي الأحلام الخائضين فيه بمقتضى الآراء والأفهام الركيكة، بلا تأييدٍ من جانب الحكيم العلام، فلك أن تتوجه إليه بقلبٍ حاضرٍ غائبٍ فارغٍ عن عموم الأشغال، مائلٍ عن مطلق الزيغ والضلال الواقع فيه من أصحاب الظواهر، القانعين منه بالقيل والقال، بحسب تفاهم عرفهم.

وإياك إياك أن تكتفي بمجرد منطوقات الألفاظ، وتقتصر عليها بلا خوضٍ في تيار بحاره الزخارات التي هي مملوءةٌ بدررِ المعارف والحقائق الموصِلة إلى مرتبة حق اليقين.

وإذا خضتَ وغصتَ فيه على الفرصة المذكورة، واستخرجتَ من درر فوائده بقدر حوصلتك واستعدادك، حقَّ لك أن تقول حينئذٍ: وإنه لحق اليقين، وأن تكون مرجعاً للخطاب الإلهي، بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [٥٦-الواقعة:٧٤، ٩٦ و ٦٩-الحاقة:٥٢].

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المعارج

لا يخفى على من انكشف له الحجب، وارتفع عن بصر بصيرته السدل والأغشية المانعة عن الاطلاع والشهود بوجه الحق الكريم: أن المراقي والمعارج من حضيض الإمكان الذي هو عبارةٌ عن مضيق عالم الناسوت نحو ذروة الوجوب، التي هو عبارةٌ عن فضاء عالم اللاهوت أكثر من أن تعد وتحصى.

لكنّ المنجذبين نحو الحق من أرباب المحبة والولاء، وهم الذين شملت لهم العناية الأزلية، وأدركتهم الكرامة السرمدية، بحيث رفعت عنهم الأغطية والحجب الظلمانية، وطُويت دونهم مطلق المسافات إلى أن صار سيرهم من عالم الناسوت نحو فضاء اللاهوت سيراً كيفياً، وعروجهم نحوه عروجاً معنوياً، وتحققهم عنده إنما هو بالفناء والموت الإرادي عن لوازم الهوية الصورية، وبالانخلاع عن مقتضيات القوى البشرية.

فمن كان شأنه هكذا لا يكال معارج ترقيه بمكيال الزمان والآن، وما يتركب منهما ويتفرع عليهما من مطلق المقادير التي يقدَّر بها عموم التقادير.

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ ....

وأما المحجوبون المقيَّدون بسلاسل الزمان وأغلال المكان، المعذَّبون بنيران الإمكان ولوازم نشأة الناسوت، فلا مخلصَ لهم عن مقتضيات الطبائع والأركان ولوازم بقعة الإمكان.

كما أخبر سبحانه حبيبه ﷺ، حيث قال بعد التيمن:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي كشف ذاته على أرباب المحبة والولاء بعد رفع الحجب والغطاء ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم يوفقهم بالصعود إلى عالم الأوصاف والأسماء ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوصلهم إلى مرتبة البقاء بعد الفناء.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾[1] أي جرى على سبيل السيل والطغيان وادي الإمكان مملوءاً ﴿بِعَذَابٖ﴾ أي أنواعٍ من العذاب الهائل ﴿وَاقِعٖ ﴿١﴾﴾

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الساترين بطبائعهم الكثيفة وهوياتهم الباطلة السخيفة شمسَ الحق الظاهرة في الأنفس والآفاق بمقتضى الاستحقاق إلى حيث ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾﴾ يردُّه ويدفعه عنهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قِبَله وجهته؛ لتعلق مشيئته ومضاء قضائه المبرم على وقوعه لأعدائه مع أنه سبحانه ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ والدرجات العليّة والمقامات السنية من القرب والكرامات لأوليائه.

---

(١) في نسخة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ من أصحاب الفطنة والاعتبار ﴿بِعَذَابٖ﴾ أي عن كيفية عذابٍ ﴿وَاقِعٖ ﴿١﴾﴾ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أو المعنى: جرى على سبيل...

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ....

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي حوامل آثار الأسماء والصفات الإلهية من مجردات العالم السفلي ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ الفائضُ من لدنه سبحانه على هياكل الهويات من ماديات عالم الطبيعة والأركان القابلة لآثار العلويات من الأسماء والصفات المسماة بالأعيان الثابتة ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى الذات البحت الخالص عن مطلق القيود والإضافات، بعد ما جذبه الحق، وأدركته العناية الإلهية مترقياً من درجةٍ إلى درجةٍ ﴿فِى يَوْمٍ﴾ وشأنٍ لا كأيام الدنيا وشؤونها، وإن قستَه إلى أيام الدنيا وأضفته إلى المسافة الدنية الدنيوية ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ من سني الدنيا، إلا أنهم يقطعونها بعد ورود الجذبة الإلهية كالبرق الخاطف في أقصر من لمحةٍ وطرفةٍ.

وبعد ما انكشف لك الأمر

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا أكمل الرسل على أذيات الأعداء واستهزائهم ﴿صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ لا يشوبه قلقٌ واضطرابٌ، وضجرةٌ وسآمةٌ، واستعجالٌ للانتقام وترقبٌ بالعذاب على وجه التهتك، فإنه سيصيب لهم العذاب الموعود عن قريب.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بمقتضى إنكارهم وإصرارهم ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي نزول العذاب ﴿بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾ في غاية البعد إلى حيث يعتقدونه محالاً خارجاً عن حد الإمكان.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ من لمح البصر بل هو أقرب منهم.

يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي ....

اذكر لهم يا أكمل الرسل كيف يعملون

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ من القهر الإلهي ﴿كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾﴾ أي كالفضة المذابة يسيل من مكانها من غاية الخشية الإلهية، وتكون الجبال الملونة بالألوان المختلفة بعد ما شمله النظر القهري الإلهي.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾﴾ أي كالصوف المصبوغ المندوف، تذروه الرياح حيث شاءت.

﴿وَ﴾ حينئذ ﴿لَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾﴾ أي لا يسأل قريبٌ عن قريبه وصديقٌ عن صديقه، بل يومئذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وبالجملة لا يلتفت أحدٌ إلى أحدٍ من شدة هوله وشغله بحاله إلى حيث.

﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ وينبَّهون عليهم من حال أقاربهم ليرقُّوا لهم، وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرقّون لهم، بل ﴿يَوَدُّ﴾ ويحبُّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ حينئذ متمنياً ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾ الذين هم أحبُّ وأعز عليه من نفسه في دار الدنيا.

﴿وَ﴾ كيف لا، يود أن يفتدي بأحب الناس إليه بعد بنيه ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أقاربه وعشائره ﴿ٱلَّتِي﴾ تؤويه أي تضمه إلى نفسه وقتَ

تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾
تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا
مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ ....

حلول الشدائد ونزول الملمات، بل ﴿تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني بل يود ويرضى أن يفتدي عن نفسه جميعَ من في الأرض من الثقلين ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ من عذابِ ذلك اليوم الهائل.

﴿كَلَّآ﴾ وحاشا أن ينقَذ وينجى المجرم بأمثال هذه الافتداءات من عذاب الله، بل كل نفسٍ رهينةٌ بما كسبت ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار المسعرة التي اسمها ﴿لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي ذات لهبٍ والتهابٍ تلتهبُ دائماً.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي تنزع من شدة التهابها الأطراف عن أماكنها، سيما جلدة الوجه والرأس، وبالجملة

﴿تَدْعُواْ﴾ وتجذب إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان ولم يقبل عن قبول الدعوى ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي انصرف عن الطاعة وإطاعة الداعي.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَمَعَ﴾ مالاً عظيماً من حطام الدنيا ﴿فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي فجعله في وعاءٍ وكنزَهُ من غاية حرصه وأمله، ولم ينفق في سبيل الله؛ لعدم وثوقه بكرم الله.

وبالجملة ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ شديدَ الحرص، قليلَ الصبر، طويلَ الأمل.

بحيث ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي الضر والسوء صار ﴿جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ يُكثر الجزع،

وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ....

ويُلِحُّ في كشف الأذى.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ أي الفرح والسرور والسعة والحضور صار ﴿مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ يبالغ في البخل والإمساك.

وهؤلاء كلهم هلكى في تيه الحرص والأمل، وقلة التصبر على البلوى، وكمال التكبر عند السراء.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ المائلين المتوجهين إلى الله في عموم الأحوال بمقتضى الرضا والتسليم، قانعين بما وصل إليهم من الإحسان والتكريم، صابرين على ما أصابهم من العليم، منفقين في سبيل الله مما استخلفهم عليه من الرزق الصوري والمعنوي، طلباً لمرضاة الله، وهرباً عن مساخطه

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ من كمال تحننهم وشوقهم إلى الله ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ وميلهم نحوه ﴿دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ملازمون، بحيث لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ المنسوبة إليهم المسوقة لهم ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ كالزكاة والصدقات المؤقتة وغير المؤقتة.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ويفشي فقره ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ الذي لا يسأل ولا يفشي، بل من كمال صيانته وتحفظه واستغنائه يُحسب من الأغنياء من كمال التعفف لذلك يحرم.

وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ ....

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ ويعتقدون ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ تصديقاً مقارناً بصوالح الأعمال ومحاسن الشيم والأخلاق.

﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ عاجلاً وآجلاً ﴿مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ خائفون وجِلون، وكيف لا يشفقون؟.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي من شأن المؤمن، ألا يأمن من عذاب الله، وإن بالغَ في طاعته وعبادته على وجه الإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ لا يتجاوزون عن الحدود الإلهية.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من السراري ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ عليهن إلا أن المؤمن المخلص لو لم يبالغ في اتباع الشهوات المباحة أيضاً، لكان له خيراً كثيراً وأجراً عظيماً.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ وطلب ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر من السراري والأزواج ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المسرفون المفرطون ﴿هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ المجاوزون عن مقتضى الحدود الموضوعة بحفظ العفة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ التي ائتُمنوا بها ﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لحقوقها وحفظها على الوجه الأصلح الأحوط.

وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ
مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ ....

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ المودعةِ عندهم في حقوق المسلمين ﴿قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ حافظون، مستحضرون إلى وقت الأداء على وجهها.

﴿وَ﴾ بالجملة المؤمنون المخلصون هم ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ المكتوبة لهم في الأوقات المحفوظة المقدرة ﴿يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ على وجهها مع كمال الخضوع والخشوع، ورعاية الشرائط والأركان والأبعاض وسائر الآداب في المندوبات المتعلقة بالصلوات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المتصفون بهذه الصفات الكاملة، مقبولون عند الله، متنعمون ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فيها بأنواع الكرامات، تفضلاً وإحساناً.

وبعد ما ظهر وميَّز حال المؤمنين وحالَ الكافرين عند الله في النشأة الأخرى

﴿فَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك وبدينك وكتابك ﴿قِبَلَكَ﴾ حواليك وجوانبك ﴿مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ مترددين مسرعين.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ متفرقين فرقاً شتى، يترددون حولك فرقةً بعد فرقة، ويسمعون منك كلامك.

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ﴾ بالتردد حولك ﴿أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾﴾ بلا إيمانٍ وتصديقٍ وإطاعةٍ مقارنة بالأعمال الصالحة؟.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ ....

﴿كَلَّآ﴾ وحاشا أي يحصل لهم هذا بلا سبق الإيمان وامتثال الأوامر والأحكام.

وكيف يدخلون أولئك الخبيثون في منازل القدس بلا تصفيةٍ وتزكيةٍ بالإيمان وتحليةٍ بالأعمال ؟!!

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ وقدرنا وجودهم ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهو النطفة القذرة الخبيثة، التي لا نسبة لها بالمقامِ المقدس عن الرذائل والكدورات، المطهَّرِ من أوساخ الطبيعة وأثقال الهيولى الحاصلة من ظلمة عالم الناسوت، فما لم يطهِّروا نفوسَهم بنور الإيمان اللاهوتي، ولم يتصفوا بالعرفان، لم يصلوا إلى روضة الجنان، ولم يُثابوا بنعيم الألوان.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي لا حاجة لنا إلى القسم بإثبات كمال قدرتنا ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أي عموم الذرات التي أشرقت عليها شمس الذات باعتبار الظهور ﴿وَ﴾ لا برب ﴿ٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أي جميع الذرات التي غربت فيها شمس الذات باعتبار الخفاء والبطون ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ بالقدرة الغالبة الكاملة

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ بأن نُهلكهم ونستأصلهم بالمرة، ونأتِ بدلهَم بخلقٍ أفضلَ منهم وأصلحَ لإيمان وقبولِ دين الإسلام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ مغلوبين من أحدٍ، إن أردنا هذا التبديلَ والتغييرَ، وتعلقت مشيئتنا به.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل كمال قدرتنا على إهلاكهم وتبديلهم.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ واتركهم وحالهم ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في الأباطيل الزائغة والأراجيف الزاهقة ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ بالآيات الواضحة والبينات اللائحة ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ للحشر والنشر، وتنقيد الأعمال والحساب عليهم، والجزاء بمقتضاه.

اذكر لهم يا أكمل الرسل على وجه التذكير والتهويل:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي القبور بعد نفخ الصور، ويسرعون نحو الداعِ ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ صنمٍ يُنصب للزيارة والاستلام ﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يسرعون، يعني إسراعهم في تلك الحالة نحو الداعي يشبه إسراعَهم نحو الصنم المنصوب للعبادات ورفع الحاجات، كما هو عادتهم طول عمرهم في الدنيا، فيكونون حينئذٍ:

﴿خَٰشِعَةً﴾ ذليلةً خاسرةً ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ بحيث لا يمكنهم أن ينظروا إليه، إذ ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ عظيمةٌ بدلَ ما يُذِلُّون داعي الله حين دعوته في الدنيا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ العظيم الهائل هو اليوم ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ في نشأة الإختبار، فلم يصدقوا، ولم يؤمنوا له، إلى أن يعاينوه.

جعلنا الله من زمرة المصدِّقين بيوم الدين.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تعتقد بل تعاين وتشاهد، إن كنت من أولي الأبصار وذوي القدر والاعتبار: أن النشأة الأخرى هي دار القرار والخلود، بل العالم الموجود هي.

والنشأةُ الأولى إنما هي أظلالٌ لا وجودَ لها، وعكوسٌ لا ثبوتَ لها، وإضافاتٌ لا حقيقةَ لها، وتعيناتٌ لا تحققَ لها.

فعليك ألا تستقر عليها إلا كالعابر، ولا تعيشَ فيها إلا كالمسافر، ما تدري يا أخي أنّ جميع ما عليها ظلٌّ زائلٌ، وعمومُ لذاتها وشهواتها سرابٌ بلا طائلٍ.

إلَامَ تتشبث بها وبما فيها، وعلام تستلذ بمزخرفاتها وملاهيها؟ فإنك عن قريبٍ ستموت، وما تدخر فيها سيضيع ويفوت، فلك أن تستعد لأخراك في أولاك، وتتزود لعقباك من دنياك.

وبالجملة: فلك أن تموت بالاختيار قبل هجوم الموت على وجه الاضطرار، فاعلم أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا متاع وأن الآخرة هي دار القرار.

سورة نوح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة نوح عليه السلام

لا يخفى على من انكشف بسرائر ظهور مرتبة النبوة والرسالة من أرباب الولاية المقتبسين من مشكاة النبوة: أن مقتضى النبوة والرسالة إنما هي الدعوة إلى دين الإسلام الموصِل إلى دار السلام للقرب والوصول إلى كنف جوار الله العليم العلام، فلا بد لمن تقلَّد بها بتكليف الحق إياه واختياره لها أن يبالغ في تبليغها ويجتهد في إظهارها، سيما بعد تأييد الحق وتقويته بالمعجزات القاطعة والبراهين الساطعة متحملاً على المتاعب والمشاق وأنواع الأذيات الواقعة في إظهارها وترويجها.

كما أخبر سبحانه عن نبيه نوح عليه السلام مع قومه كيف تحمّل عنهم وصبرَ إلى أن ظفر عليهم، وانتصر فقال سبحانه بعد ما تيمن باسمه الكريم:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي تجلى على أنبيائه ورسله بعموم أسمائه وصفاته ليستخلفهم عن ذاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ على عموم مظاهره بإظهار مرتبة الخلافة والنيابة بينهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم بإرشاد الأنبياء وإهدائهم إلى زلال توحيده.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ....

﴿إِنَّآ﴾ من مقام جودنا ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ أخاك يا أكمل الرسل ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ حين انحرفوا عن جادة العدالة والقسط الإلهي، ووصّينا له ﴿أَنۡ أَنذِرۡ﴾ أي بأن خوِّف وحذِّر ﴿قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ مؤلمٌ في غاية الإيلام، وهو عذاب الطوفان بعد نزول الوحي عليه.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ أضافهم إلى نفسه وناداهم ليقبلوا إليه ويهتدوا بهدايته وإرشاده ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ ظاهر الإنذار والتخويف بإذن العليم الحكيم، أرسلني ربي.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالألوهية والربوبية، القادرَ على أنواع الإنعام والانتقام ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ عن ارتكاب محارمه ومنهياته ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ في ما بلغت لكم من أوامر الله ونواهيه وامتثلوا بمقتضاها.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ سبحانه ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ إن استغفرتم منه سبحانه وتبتم إليه مخلصين نادمين ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ﴾ أقصى ﴿أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ مقدَّرٍ عنده سبحانه بشرط أن تتصفوا بالإيمان والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ المقدَّر لآجال عباده على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿إِذَا جَآءَ﴾ على الوجه المقدَّرِ المقرَّر عنده ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ عن وقته، ولا يقدم عليه ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ وتعتقدون

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ....

حِكمة الحكيم، وكمال قدرته ومشيئته لعلمتم يقيناً أن الأجل المقدر لا يُبدَّل ولا يغيَّر.

وبعد ما بالغ نوحٌ عليه السلام في دعوتهم وإرشادهم، فلم يهتدوا بل ما زادوا إلا إصراراً وإضراراً، وعناداً واستكباراً.

﴿قَالَ﴾ نوح مناجياً إلى ربه على وجه التضرع بعد ما بالغوا في الإنكار والاستكبار: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني على الرشد والهداية ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ بمقتضى وحيك وإلهامك علي ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ أي دائماً بلا مطلٍ وتسويفٍ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ﴾ ودعوتي إياهم ﴿إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ عن الإيمان والإطاعة، وإصراراً على الكفر والطغيان.

﴿وَإِنِّي﴾ صرت زماناً ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ على قصد أن يقبلوا دعوتي ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بمقتضى عفوك ورحمتك ذنوبهم وزلّتهم ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ﴾ وقت دعوتي إياهم ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي سدُّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصر عليه، بل ﴿وَاسْتَغْشَواْ﴾ أي غطّوا ولفّوا على رؤوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ لئلا يروا صورتي، ولا يسمعوا قولي من شدة كراهتهم عن دعوتي، وشكيمتهم معي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَصَرُّواْ﴾ على ما هم عليه كانوا ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عليّ ﴿ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ عظيماً إلى حيث شتموني شتماً

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾

قبيحاً، وضربوني ضرباً مؤلماً فجيعاً.

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما جرى منهم ما جرى ﴿ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ ﴾ بمقتضى أمرك وحكمك إياي يا رب ﴿جِهَارًا ﴿٨﴾﴾ على رؤوس الملأ.

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾ وصرَّحت بدعوتهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ ﴾ أيضاً في الخلوات ﴿ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾ على سبيل الكناية والإشارة، وبالجملة دعوتهم مرةً بعد مرةٍ، وكرةً بعد كرةٍ، في المحافل والخلوات، وبالصرائح والكنايات.

﴿ فَقُلْتُ ﴾ لهم في دعوتي إياهم: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ وتوبوا إليه ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ يغفرُ لكم ذنوبكم، ويعفو عنكم زلاتكم.

وبعد ما بالغوا في الإنكار والإصرار، حبسَ الله عليهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نسائهم، فقال نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾.

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ بعد ما حبسها زماناً.

﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ بعد ما منعها عنكم بكفركم وشرككم. وبعد استغفاركم أنزلَ عليكم مدراراً، ﴿وَ﴾ بعد إنزال المدرار ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ بساتينَ متنزهاتٍ ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ في خلالها ﴿ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ جارياتٍ.

﴿مَّا لَكُمْ﴾ وأيُّ شيءٍ عرض عليكم، أغفلكم عن الله حيث ﴿لَا تَرْجُونَ ﴾ ولا تأملون ﴿ لِلَّهِ﴾ المستحقِّ لأنواع العبودية والتعظيم ﴿وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ توقيراً

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ
ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾

وتبجيلاً لائقاً لجلاله وجماله، وحسن فعاله معكم؟!.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ مختلفةً ومترقيةً في الكمال حيث قدَّر وجودكم من جمادات العناصر، ثم ركبَّكم إلى أن صرتم من أغذية الإنسان، ثم صيَّركم أخلاطاً، ثم نُطفاً، ثم علقاً، ثم مُضغاً، ثم عظاماً ولحوماً، ثم أنشأكم خلقاً عجيباً قابلاً للخلافة والنيابة، ثم بعد ذلك يوصلكم في النشأة الأخرى إلى ما يوصلكم.

وبالجملة فبأي آلاء ربكم تكذبون أيها المكذِّبون المنكرون، مع أنه وسَّع عليكم من زوائد النعم وموائد الكرم والإفضال ما لا مزيد عليه من كمال قدرته ومتانة حكمته.

﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها الراؤون المعتبرون ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ مطبقاتٍ بعضُها في جوف بعضٍ إلى حيث ينتهي الكل إلى كرةٍ واحدةٍ، وقعت مظهراً للوحدة الذاتية، وإن كان كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات المستقلة في مظهرية الوحدة الذاتية.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في السموات ﴿نُورًا﴾ مقتبَساً من شمس الذات ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ﴾ المشرقةَ المنيرةَ ﴿سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ واضحاً ودليلاً لائحاً على شروق شمس الذات على مظاهر عموم الذرات المنعكسة منها.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المتعززُ برداء العظمة والكبرياء ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ اليابسة الميتة ﴿نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ إنباتاً إبداعياً، أي أنواعاً وأصنافاً من النبات، وربّاكم

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩
لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ
وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ ....

إلى أن صرتم حيواناً ثم إنساناً، ثم كلّفكم ما كلّفكم من التكاليف الشاقة؛ لتعَزَزوا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿ثُمَّ﴾ بعد حلول أجلكم المقدر ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ منها في المحشر ﴿إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ إعادة[1] في النشأة الأخرى؛ لتنقيد ما كلّفكم عليه في النشأة الأولى، وترتب الجزاء عليه، تتميماً للحكمة المتقَنة البالغة وتكميلاً لها.

﴿وَاللَّهُ﴾ القادرُ المقتدرُ ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ ممهَّدة، تتقلبون عليها، وتترددون.

﴿لِتَسْلُكُوا﴾ وتتخذوا ﴿مِنْهَا﴾ حيث شئتم ﴿سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ طرقاً واسعةً متسعةً، فبأي آلاء ربكم ونعمائه تنكرون أيها الكافرون.

وبالجملة كلما بالغ نوح عليه السلام في دعوتهم، بالغوا في الإصرار والعناد، وبعد ما اضطر.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ في جميع ما أمرتُهم به، وانصرفوا عني وعن دعوتي، واستهزؤوا معي ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ أي اتبعوا سادتهم ورؤساءهم المعروفين المشهورين بكثرة الأموال والأولاد

---

(١) في المخطوط (إعادياً).

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ ....

الموجِبة للثروة والجاهة عند الناس، وإن كان أموالهم وأولادهم لم يزدهم إلا خساراً وبواراً في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَكَرُوا۟﴾ لهم أولئك الماكرون ﴿مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ بلغ غاية كبره ونهاية شدته في التلبيس والتغرير.

وذلك احتيالهم على الناس إلى حيث لم يقبلوا دعوة نوح عليه السلام مع كونه مؤيداً بأنواع المعجزات، بل سفَّهوه، واستهزؤوا متمسخرين مستهزئين:

﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم في نصحهم وتذكيرهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها سيّما بقول هذا السفيه المختبَط المختل الرأي والعقل ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ خصوصاً ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ فإنها غرانيقُ عظام تُرتجى منها الشفاعة على عصاة العباد، فعليكم ألا تتركوا عبادة آلهتكم بقول هذا الطريد السفيه.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿قَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ﴾ من الناس بتزويراتهم الباطلة وتغريراتهم الكاملة الشاملة لأهل الخبرة والضلال ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يا رب ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ فوق ضلالٍ وإصراراً غِبّ إصرار.

ثم قال سبحانه بعد ما بالغ نوح عليه السلام في التضرع والمناجاة:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ أي من أجل وفور خطيئاتهم وكثرتها ﴿أُغْرِقُوا۟﴾

فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ....

بالطوفان أولاً ﴿ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ نوعاً من عذاب النار عقيب عذاب الطوفان في البرزخ ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم ﴾ حين طغيان الماء وطوافه عليهم ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ القادر المقتدر على دفع المَضَار ﴿ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾ شفعاءَ من الأصنام كما زعموا، فلم ينصرهم الله، فهلكوا بالغرق.

﴿وَ﴾ بعد ما آيس عن إيمان قومه، وقنط عن فلاحهم وصلاحهم أخذ في الدعاء عليهم حيث ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ ﴾ يا من رباني على فطرة الهداية والرشاد ﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ التي إنما وضعت للعبادة والطاعة ﴿ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ المصِرِّين على الكفر والعناد والإلحاد عن السداد ﴿ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أحداً يدور عليها.

﴿ إِنَّكَ ﴾ يا ذا الحكمة المتقَنة البالغة ﴿إِن تَذَرْهُمْ ﴾ على الأرض على ما كانوا ﴿ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ المؤمنين بك، المصدقين بفردانيتك ووحدانيتك ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ ﴾ ولا يتناسلوا ﴿ إِلَّا فَاجِرًا ﴾ خارجاً عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة لحفظ العدالة ﴿ كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ستّاراً للحق بترويج الباطل عليه.

إنما دعا عليهم بهذا، بعد ما جربهم ألف سنة إلا خمسين سنة، فعرف منهم جميع خصائلهم المذمومة.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

ثم ناجى ربه لنفسه ولوالديه ولمن اهتدى بهدايته وإرشاده فقال:

﴿رَّبِّ﴾ يا من رباني بمقتضى كرمك وجودك لحكمة معرفتك وتوحيدك ﴿ٱغْفِرْ لِي﴾ بفضلك وإحسانك ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ اسم أبيه: لمك بن متوشلخ، واسم أمه شمخا بنت أنوش، وكانا مؤمنَين موحِّدَين، ﴿وَ﴾ اغفر أيضاً بفضلك ﴿لِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ سفينتي وحِرزي أو ديني ومذهبي ﴿مُؤْمِنًا﴾ موقِناً بإرشادي وتكميلي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة إلى يوم القيامة ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن عروة عبوديتك وربقة رِقِّيّتك ﴿إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾ إهلاكاً وخساراً، عذاباً وبواراً.

ونحن ندعو أيضاً على الكافرين المصرِّين بكفرهم وشركهم، الظاهرين على أهل التوحيد بأنواع الجدال والمراء بما دعا به نوحٌ عليه السلام، ونرجو أيضاً أن نكون من الناجين ببركة دعائه، ودعاء نبينا ﷺ.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الداخل في سفينة الشريعة المصطفوية المنجِية لنفسك عن طوفان القوى البشرية وطغيان اللذة البهيمية المانعة عن التلذذ باللذات المعنوية الروحانية: أن تتشبث بذيل همة المرشد الكامل المكمَّل، الذي يرشدك إلى سرائر الشريعة وحِكَمَ الأحكام الموردَة فيها، ومصالح الأوامر والنواهي بإرادةٍ صادقةٍ وعزيمةٍ خالصةٍ عن شوب الرياء والرعونات العائقة عن الميل الفطري والفِطنة الجبلية التي جُبِلَ الناس عليها، إذا خلّى طبعه بلا تصرفٍ من شياطين الوهم والخيال، وجنودِ الأمّارة على مقتضى القوى.

وفقنا الله لما يحب ويرضى، وجنَّبنا عن الميل إلى البِدع والهوى.

سُورَةُ الجِنِّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الجن

لا يخفى على من تحقق بمقام القلب وسعته وكمال فسحته ووسعته: أن مظاهر الحق وجنودَه أكثر من أن يحيط به الآراء، أو يتفوه عنه ألسنة التعديد والإحصاءِ، أو يدرك نهايتَها عقولُ العقلاء.

ومن جملتها جنود الجن يختلط معهم ويصاحبهم من الإنس مَن كان بينه وبينهم مناسبةٌ معنويةٌ مخصوصةٌ توجب ائتلافهم واختلاطهم.

وذلك من جملة المواهب والإعطاءات الإلهية لبعض النفوس القدسية الزكية عن رذائل الطبيعة.

ولا شك أن نبينا ﷺ مبعوثٌ إليهم، مختلطٌ معهم، مرشدٌ لهم، هادٍ إياهم إلى طريق التوحيد، كما أوحى إليه سبحانه في هذه السورة متيمناً:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي تجلى في ما تجلى بمقتضى جوده ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بدعوتهم إلى الإيمان ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ....

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر رسالتك على الثَّقَلَين: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من قبل الحق ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ عند قراءتك القرآنَ ﴿نَفَرٌ﴾ طائفةٌ، وهو يطلق على ما بين الثلاثة إلى العشرة ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ وهو جنسٌ من جنود الحق ومظاهره كجنس المَلَك، لا مناسبة بيننا وبينهم، حتى ندركَهم ونعرفَ حقيقتهم، وما لنا إلا الإيمان بوجودهم وبأمثالهم، إذ ما يعلم جنود الحق إلا هو، ولا يسع لنا الإنكار، سيما بعد ورود القرآن على وجودهم وتحققهم.

وبعد ما سمعوا القرآن، ورجعو إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من إنسانٍ ﴿قُرْآنًا﴾ كتاباً ﴿عَجَبًا ﴿١﴾﴾ بديعاً نظماً وأسلوباً، غريباً معنىً ودلالةً، حاوياً للمعارف والحقائق الإلهية، محتوياً على دقائق طريق التوحيد والعرفان، ما هو من جنس كلام البشر، بل هو خارجٌ عن مداركهم، متعالٍ عن مشاعرهم.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والهدايةِ الموصلة إلى مقصدِ الوحدة الذاتية ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ واهتدينا بهدايته إلى توحيد الحق ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ﴾ أبداً ﴿بِرَبِّنَا﴾ الذي وفَّقنا على توحيده ﴿أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ من مظاهره ومصنوعاته، إذ المصنوع المربوب لا يصير شريكاً للرب الصانع القديم.

﴿وَ﴾ كيف يكون للرب الواحد الأحد الصمد شريكاً مع ﴿أَنَّهُ تَعَالَى﴾ تبارك وتقدَّس ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي عظمته وكبرياؤه من أن يكون له شريكٌ في

مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ ....

ملكه وملكوته، مع أنه الصمد الذي ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ فكيف يتخذ شريكاً، مع أنه هو الواحد الأحد الصمد على الإطلاق، لم يكن له شريكٌ في الملك ونظيرٌ في الوجود، فكبره تكبيراً، ونزِّه ذاتَه عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَ﴾ بعد ما آمنا بوحدة الحق وعرفناه وحيداً فريداً بلا شِبيهٍ ولا نظيرٍ، ولا وزيرٍ ولا مشيرٍ، عرفنا ﴿أَنَّهُۥ﴾ ما ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليسُ المردود المطرود ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المقدَّس ذاتُه عن مطلق المماثلة والمشاكلة في الوجود القيومية وسائر الصفات الذاتية المصححة للألوهية والربوبية قولا ﴿شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ باطلاً بعيداً عن الحق بمراحلَ، مجاوزاً عن الحد في الإفراط، تعالى شأنه عما ينسب إليه المبطلون المفرطون.

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق وتحقُّقِنا بمرتبة الشهود ﴿ظَنَنَّآ أَن﴾ أي أنه ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي جنسُ الإنس والجن، المجبولين على فطرة العبودية والعرفان ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المعبودِ على الإطلاق ﴿كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ قولاً زوراً باطلاً على سبيل الافتراء والمراء؛ لذلك اتبعناهم في ما قالوا ظلماً وعدواناً، وبعد ما ظهر الحق، وكوشفنا بحقيقة الأمر، تبرأنا عنهم وعن أقوالهم، وتُبنا إلى الله، والتجأنا بكنف حفظه وجواره.

أعاذنا الله بلطفه من زيغ الزائغين، وإضلال الضالين المضلِّين.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ ....

﴿وَ﴾ كنا قبل انكشافنا بوحدة الحق ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشأن ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ عند مرورهم بقفرٍ، إذا أَمسوا فيها كانوا يقولون: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ومع استعاذتهم واستعانتهم ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي الجن والإنس ﴿رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ كِبراً وعتواً، يختطفون عليهم ويخبطونهم.

﴿وَ﴾ ما ذلك الكِبر والطغيان منهم بعد ما استعاذوا إلا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الجن ﴿ظَنُّوا۟﴾ وزعموا ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ وزعمتم أيها الناس الموسومون بالجهل والنسيان والإنكار والطغيان ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على الإعادة والإبداء ﴿أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ من الجن والإنس، حتى يستوفي عليه حسابه وجزاءه؛ لذلك يجترئون ويزيدون في الإرهاق والطغيان، سيما الاستعاذة والإلجاء.

﴿وَأَنَّا﴾ كنا قبل نزول القرآن ﴿لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي طلبنا البلوغ إليها والصعودَ نحوها؛ لنسترق من أخبار الملائكة، ونخبر بها الكهنةَ، ونوقع الفتنة في العالم السفلي ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾ أي السماءَ اليوم ﴿مُلِئَتْ﴾ وامتلأت ﴿حَرَسًا﴾ أي حُرَّاساً حافظين ﴿شَدِيدًا﴾ أقوياء على الحفظ والحراسة ﴿وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ جمع شهاب وهو المضيءُ المتراكم من النار، نُرجَم بها ونُطرد من حواليها.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي من السماء ﴿مَقَٰعِدَ﴾ صالحة

لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ
بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا
طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ....

﴿ لِلسَّمْعِ ﴾ والاستماع ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ بعد نزول القرآن في تلك المقاعد ﴿ يَجِدْ لَهُۥ ﴾ وعنده ﴿ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ راصداً قاصداً له، يرجمه ويمنعه من الاستماع.

﴿وَأَنَّا ﴾ اليوم ﴿لَا نَدْرِىٓ ﴾ ونعلم ﴿أَشَرٌّ ﴾ وفتنةٌ ﴿ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بالساكنين عليها بحراسة السماء ومنع أخبارها عنهم ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ يهديهم إلى التوكل والتسليم، وكمال تفويض أمورهم إلى العليم الحكيم بحيث لا يحترزون عما جرى عليهم من قضائه بأخبار السماويين.

﴿وَأَنَّا ﴾ أي نحن المخبورون ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الأبرار المؤمنون الآمنون الأمينون، لا يختلطون بالأخبار المسموعة من الأكاذيب ﴿وَمِنَّا﴾ قومٌ ﴿ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ لا أمانةَ لهم حتى يؤدوا الأخبار على وجهها، بل يوقعون الفِتن والمِحن بين الناس، إذ ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ ﴾ أي ذوي طرائق ومذاهب ﴿قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ متفرقةً مختلفةً؛ لذلك مُنعنا بأجمعنا عن استراق الأخبار السماوية، وانحصر الأمر بالوحي الإلهي، حتى لا يختل أمر النظام الموضوع على القسط والعدالة الإلهية.

﴿ وَأَنَّا ﴾ بعد ما كوشفنا بهداية القرآن ورسالة محمد ﷺ، تركنا ما كنا عليه

ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ ......

من الضرر والإضرار لعباد الله، إذ ﴿ظَنَنَّآ﴾ بل علمنا يقيناً ﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ القادرَ المقتدرَ على أنواع الانتقام كائنين ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ﴾ أيضاً ﴿هَرَبٗا ﴿١٢﴾﴾ منه سبحانه إلى السماء، أو إلى أي مكان شئنا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ أي القرآن الموضح لطريق التوحيد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ واهتدينا بهدايته ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ ويوقن بوحدانيته ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ أي فهو لا يخاف ﴿بَخۡسٗا﴾ نقصاً في الجزاء والثواب ﴿وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾﴾ ذلةً تذِلُّه[1] في الدارين؛ لأن من آمن اعتدل، ولم يبخس حق أحد، ولم يذله بظلم، فكذلك لا يبخس ولا يظلم.

﴿وَأَنَّا﴾ بعدما سمعنا الهدى والرشد ما كنا نؤمن ونهتدي جميعاً، بل ﴿مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾ المنقادون لحكم الله وأوامره ونواهيه الواردة في كتابه، المسلِّمون أمورهم كلها إليه سبحانه ﴿وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ الجاهلون المائلون عن الهداية، المنحرفون عن جادة العدالة الإلهية ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ﴾ منا واعتدل وسلّم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المسلمون المسلّمون ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾ واجتهدوا ففازوا ﴿رَشَدٗا ﴿١٤﴾﴾ يوقظهم عن سِنة الغفلة، ويوصلهم إلى فضاء الوحدة.

﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون الحائرون في تيه الطغيان والكفران

---

(١) في المخطوط (يذله).

فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ

﴿ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ ﴾ البعد والخذلان وسعيرِ الطرد والحرمان ﴿حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ توقَد بهم النار، كما توقد بعصاة الإنس وطغاتهم. ثم قال سبحانه:

﴿وَأَ﴾ أي وإن الشأن والأمرَ أنه أي الجن والإنس المجبولين على فطرة التكليف ﴿ لَوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ واعتدلوا ﴿ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ ﴾ أي جادة المعرفة والتوحيد ﴿ لَأَسْقَيْنَـٰهُم ﴾ تلطفاً لهم وترحماً عليهم ﴿ مَّآءً ﴾ محيياً لأراضي أجسامهم الميتة بسموم الإمكان وبحموم الأماني الصاعدة[1] من نيران الطبيعة ﴿ غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ كثيراً إلى حيث يجعل لهم روضةً من رياض الجنان. وإنما فعلنا معهم ذلك﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ ﴾ ونختبرهم ﴿ فِيهِ ﴾ أي في التنعم والترفه، كيف يشكرون للنعم وكيف يواظبون على أداء حقوق الكرم، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ويزيد عليها ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ وينصرفْ عن طاعته وعبادته، ويكفرْ بنعمه، ولم يواظبْ بأداء حقوق كرمه ﴿يَسْلُكْهُ ﴾ ويُدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ يصعدُ عليه ويعلو فوقه، وبالجملة عذاباً شاقاً شديداً قاهراً عليه عالياً.

ثم قال سبحانه على سبيل التوجيه والتعليم لخلَّص عباده المؤمنين والتوبيخ والتعريض للمشركين:

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلَّفون من الثقلين ﴿ أَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ ﴾ المبنيةَ للميل

(١) في المخطوط (الصاعد).

لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ....

والتقرب نحو الحق مختصةٌ ﴿لِلَّهِ﴾ خاصةً خالصةً ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ وتعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، المنزَّه عن الشريك والولد ﴿أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ عن مظاهره ومربوباته.

﴿وَ﴾ بعد ما علمتم هذا بتعليم الله إياكم، اعلموا ﴿أَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي النبيُّ المؤيَّدُ من عنده سبحانه بأنواع العناية والكرامة المستلزِمة لأنواع العبادة والإطاعة في المسجد الحرام المُعَدِّ لعبادة العليم العلام القدوس السلام ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبده ويتذلل نحوه ﴿كَادُوا۟﴾ وقاربوا مشركي الجن والإنس ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ ويزدحمون حوله متعجبين ﴿لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ متراكمين كلبدة الأسد، وهو مستغرقٌ في صلاته بلا التفاتٍ منه إليهم، إلى أن أوحى إليه بما هم عليه من التعجب والتحير من أمرهم، فقيل له من قبل الحق:

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمزدحمين المتعجبين ﴿إِنَّمَآ أَدْعُوا۟﴾ وأعبدُ ﴿رَبِّى﴾ الذي رباني على كمال المعرفة والإيقان، وأرسلني أن أدعو عموم المكلَّفين إلى توحيده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ﴾ ومعه ﴿أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ من مظاهره ومصنوعاته.

فإن قالوا هل لك أن تشاركنا معك في عبادتك وخضوعك؟

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ من تلقاء نفسي ﴿ضَرًّا﴾ يضركم به ويعذبكم، إن أردتُ إضرارَكم وتعذيبَكم ﴿وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ يرشدكم

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾

به ويهديكم، إن أردتُ هدايتكم ورشادَكم، بل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً، فكيف لكم، بل ما أتبع إلا ما يوحَى إليّ، والأمر بيد الله العليم الحكيم.

فإن قالوا ما فائدة عبادتك وتخصيصها إياه؟

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: لِمَ لَمْ أعبد ربي، ولم أخصصه بالعبادة مع ﴿إِنِّي﴾ أعلم منه سبحانه أنه ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ ويحفظني ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿أَحَدٌ﴾ من مظاهره، لو أراد عذابي ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾ أبداً ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ ملجأ وملاذاً ينقذني من بطشه وعذابه، لو جرى مشيئته سبحانه على تعذيبي.

وبالجملة لا أملك لكم ولا لنفسي ضراً ولا نفعاً.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ وتبليغاً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما أوحى إلي ﴿وَ﴾ سوى أداء ﴿رِسَالَاتِهِ﴾ التي أرسلني بها، وما لي سوى الإبلاغ والتبليغ ﴿وَ﴾ من جملة ما أوحي إلي أنه: ﴿مَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾ ويعرض عنه وعن عبادته من عباده ﴿وَ﴾ لم يصدّق ﴿رَسُولَهُۥ﴾ المستخلف منه، القائم بأمره ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ أي حقّ وثبتَ له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ في النشأة الأخرى، وبالجملة صار العاصون المعرِضون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً.

وهم لا يزالون على عصيانهم بالله، مستظهرين بما معهم من الجاه والثروة وكثرة الأموال والأولاد في نشأتهم الأولى.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾..............................

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ النبيُّ وأتباعُه، أم المشركون ومن معهم؟

وبعد ما سمع المشركون: ﴿إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ قالوا على سبيل الإنكار والإستبعاد: متى يكون؟ فقيل من قبل الحق:

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل إنه كائنٌ لا محالة، لكن وقتَه مفوضٌ إلى عِلمِ الله ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي ما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي وقوعَه وقيامَه ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ﴾ ولوقوعه ﴿رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ بعيداً، وأجلاً طويلاً، إذ هو من جملة الغيوب التي استأثر الله بها.

إذ هو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ حسب حكمته [وفي نسخةٍ: (عَالِمُ الغَيْبِ) بذاته وخصوصه] ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ ولا يُطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ المختصِ به ﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ من خلقه.

﴿إِلَّا﴾ أي يُطلع من بعض غيوبه على ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ مأمونٍ على غيبه، له قابلية الخلافة والنيابة عنه سبحانه ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ يُطلعه من غيبه على سبيل الوحي والإلهام حين ﴿يَسْلُكُ﴾ ويوكل سبحانه لحفظه وحراسته ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ حُرَّاساً من الملائكة

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾

يحرسونه من استراق الشياطين واختطافهم وتخليطهم.

وإنما فعل كذلك عند اطلاعه ووحيه إلى رسوله

﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ الرسولُ الموحَى إليه ﴿أَن﴾ أي أنه ﴿قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ أي حاملو[1] الوحي مطلقاً ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ على وجهها مصونةً محروسةً عن اختطاف الشياطين وتخليطاتهم المغيِّرةِ لها ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه قد ﴿أَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي لدى الرسل والملائكة جميعاً، علماً وحضوراً، بل ﴿وَ﴾ قد ﴿أَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ دخلَ في حيطة الوجود﴿عَدَدَۢا ٢٨﴾ بحيث لا يعزب عن حيطة علمه وإحصائه شيءٌ مما لمع عليه برق الوجود.

خاتمة السورة

عليك أيها المحقق المنكشف بإحاطة العلم الإلهي ولوح قضائه وقلم تصويره وتخطيطه: أن تعتقد وتذعن أن عموم ما جرى في ملكه وملكوته، إنما هو بأمره ووحييه ونفوذ قضائه ومضاء حكمه على حسب الحضور، بحيث يجتمع عند حضوره الأزلُ والأبدُ، والأولى والأخرى، والغيبُ والشهادةُ، إذ لا انقضاء دونه، ولا انصرام ولا تجدد لديه، ولا انخرام، بل الكل بالنسبة إلى قدرته وإرادته على سواءٍ، بلا تفاوتٍ وتخالفٍ.

جعلنا الله من المنكشفين بحضور الحق وشهوده مع كل شيء ودونه بمنِّه وجوده.

---

(١) في المخطوط (حوامل).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المزمل

لا يخفى على ذوي الألباب والآداب المتحملين لأمانة التوحيد الإلهي: أن من تمكن على تلك المرتبة لا بد أن لا يشغله شيءٌ سواها، ولا يلهيه أملٌ دونها سيما المتحملين معه أعباء الرسالة والنبوة المشتملة على دعوة عموم المكلَّفين إلى سبيل التوحيد وإرشادهم نحوه بالتصبر على أذياتهم، وتحمل المتاعب والمشاق في تبليغ الدعوة والتكميل.

فلا بد للنبي أن يبذل كمال وسعه وطاقته في إجراء الشرع وإعلاء كلمة التوحيد وبلا تكاسلٍ وتغافلٍ عنه لمحةً وطرفةً.

كما نبه سبحانه على حبيبه ﷺ منادياً إياه على وجه الخطاب المنبئ عن العتاب، بعد التبرك باسمه:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بعموم كمالاته على من اختاره لرسالته واصطفاه لخلافته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإرسال الرسل ووضع الشرع والدين القويم في ما بينهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يوصلهم إلى سرائر التكاليف الواقعة في طريق التوحيد واليقين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ
ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ....

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾﴾ المتغطي المتلفف بثوبه وقطيفته نائماً أو مرتدعاً عما دهشه بدءُ الوحي، شأن النبوة والرسالة ما هو هذا.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ وداوم على التهجد فيه ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾﴾ منه للاستراحة والنوم تقويةً لمركب بدنك، وتنشيطاً له على العبادة، يعني :

﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ أي نصف الليل ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي من النصف ﴿قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾ ليقرب الثلث.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على النصف حتى يقرب الثلثين، وإنما خير بين هذه الثلاثة لأنه فَرَض أولاً قيام الكل، ولما تحرجوا ومرضوا، وشق عليهم الأمرُ، رحم الله عليهم، فخيرهم في هذه الأوقات بناءً على تفاوت أمزجة الناس في عروض الكلال بالسهر، وبعد القيامِ تهجّد نافلةً لك ﴿وَرَتِّلِ﴾ في تهجدك ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾﴾ أي بيِّن حروفه وقرِّرها[1] في مخارجها إلى حيث لا يشتبه على السامع العارف بأساليب الكلام ومنطوقات الألفاظ معانيها، وبالجملة اقرأها على تؤدةٍ تامةٍ وطمأنينةٍ كاملةٍ بعزيمةٍ خالصةٍ وإرادةٍ صادقةٍ، إلى حيث تتأثر من ألفاظ القرآن فطرتُك وفطنتُك التي هي خلاصة وجودك وزبدة أركانك وطبيعتك، إذ بها توسُّلُك ووصولُك إلى مقصد التوحيد واليقين.

وبالجملة ﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا ﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿قَوۡلٗا﴾ جزلاً سهلاً خفيفاً على اللسان ألفاظُه وكلماتُه ﴿ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ عظيماً

(١) وفي نسخة أخرى (وقدِّرها).

إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ ....

على القلب رموزُه وإشاراتُه، والاتصافُ بما فيه، والامتثالُ بمقتضيات أوامره ونواهيه، والاطلاعُ على سرائر الأحكام المورَدة فيه، والإحاطةُ بقوادمه وخوافيه، وبالجملة من تأمل فيه على وجه التدرُّب والتدبُّر، فقد غرِق في تيار بحاره الزخار.

وتخصيص الأمر بالليل وترتيل القرآن فيه ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي القراءة التي تنشأ من النفس في جوف الليل حين خلوِّ القلب عن جميع الأشغال والملاهي ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ تأثيراً ودفعاً في القلب، وتنبيهاً له، وإن كانت أثقلَ للنفس وأتعبَ للبدن ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ أي أعدلُ الأقوال بالنسبة إلى القلب وأرسخُها فيه، وأقواها أثراً وانتباهاً بخلاف النهار.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الذي هو وقت الأشغال والالتفات إلى المهمات ومحل أنواع الملمات والواقعات، لذلك عرض لك فيه ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾﴾ تقلباً وتصرفاً طويلاً شاغلاً لأوقاتك، مشوشاً لحالاتك.

وبالجملة الفراغ الذي يحصل بالليل لا يحصل في النهار، فعليك أن تجتهد في التهجد، وتقرأ القرآن فيه، سيما عند الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ ودُم على تسبيحه وتقديسه دائماً في أوقاتك وحالاتك، ولا تشغلنك عن ذكره مهماتُك بل ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾ أي تجرَّد

إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ....

وانقطع عن عموم المهام ﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ وتجريداً كاملاً، بحيث لا يخطر ببالك الالتفات بحالك، فكيف بحال غيرك.

وكيف لا تنقطع إليه ولا تتجرد نحوه مع أنه سبحانه ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي جنس المشارق والمغارب التي هي ذرائر الكائنات باعتبار ظهور شمس الذات منها وشروقها عليها، وباعتبار بطونها وخفائها فيها، إذ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا موجود في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ ولا شيءَ سواه ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ سيما بعد ما لم يوجد في الوجود غيره أصيلاً.

﴿وَ﴾ بعد ما اتخذته وكيلاً، وجعلته حسيباً وكفيلاً ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي المشركون المسرفون من الخرافات والجزافات التي لا تليق بشأنك إن شقّ عليك الصبر والتحمل ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾ اتركهم وانصرف عنهم ﴿هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ بشّاشاً بسّاماً بلا التفاتٍ إلى هذياناتهم الباطلة، وبلا مبالاةٍ بهم وبكلامهم، وتوكل على الله وفوِّض أمرَ انتقامهم إليه، فإنه يكفيك مؤنة شرورهم واستهزائهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التسلية لحبيبه ﷺ:

﴿وَ﴾ بعد ما بالغوا في قدحك وطعنك يا أكمل الرسل ﴿ذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني دعني معهم، وفوِّض أمر انتقامهم إليّ، فإني أنتقم عنهم من قِبلك،

أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ....

وأدفعُ أذاهم عنك، وأغلبُكَ عليهم، وإن كانوا ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ وذوي الثروة والسيادة وأصحاب التنعم والوجاهة، يريد صناديد قريش ﴿وَ﴾ لا تستعجل في انتقامهم بل ﴿مَهِّلْهُمْ﴾ إمهالا ﴿قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ أو زماناً قليلاً.

ولا تيأس من مكرنا إياهم ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ معَدّاً لهم أنواعاً من العذاب ﴿أَنكَالًا﴾ أثقالاً؛ لتثاقلهم وعدم تحمُّلِهم وتصبُّرِهم بمتاعب التكاليف الإلهية ومشاق الطاعات والعبادات المأمورة لهم من قِبله سبحانه ﴿وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾ عظيماً بدل ما يتلذذون بنيران الشهوات، ويظلمون الناس بأنواع الغضب والطغيان.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشب في الحلق، ولا يُسمن ولا يغني من جوع، بدل ما يأكلون من السُّحتِ والربا وأموال اليتامى ظلماً ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ لا عذاب أشدَّ إيلاماً منه، وهو حرمانهم عن لقاء الله وخذلانهم على ما فات عنهم من التحقق في كنف حفظه وجواره.

اذكر لهم يا أكمل الرسل وإن لم يصدقوا :

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تضطرب وتتزلزل ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ من شدة الحركة والاضطراب اندكت وتناثرت، فصارت ﴿كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً ﴿مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ منثوراً تذروه الرياح حيث شاء كسائر الرمال الآن في البراري والبوادي.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾.............................

وكيف لا نأخذ المجرمين المشركين بظلمهم يومئذ، ولا نعذبهم بأنواع العذاب

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ يا أهل مكة بعد ما انحرفتم عن جادة العدالة على مقتضى سنتنا في الأمم السالفة ﴿رَسُولٗا﴾ ناشئاً منكم، يعني محمداً ﷺ ﴿شَٰهِدًا﴾ يشهد ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يوم القيامة بالإجابة والامتناع، بعد ما أمرنا له وأوحينا إليه أن يدعوكم إلى الإيمان ويأمركم بالطاعات والإحسان ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ يعني موسى الكليم عليه السلام؛ ليدعوه إلى الإيمان ويأمره بلوازمه، وبعد ما دعاه، وأمره بما أمر به الحق

﴿ فَعَصَىٰ﴾ وتكبر ﴿فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ وعتا عليه، واستكبر عن دعوته ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾﴾ ثقيلاً شديداً إلى حيث أغرقناه وجنودَه في اليم، وأورثنا أرضَه وديارَه وأموالَه لبني إسرائيل.

هذا أخذُنا إياهم في النشأة الأولى، وفي الأخرى بأضعافها وآلافها، فأنتم أيضاً يا أهل مكة مثل فرعون عصيتم رسولكم الذي أُرسل إليكم يعني محمداً ﷺ، فنأخذكم مثل ما أخذنا فرعون، في الدنيا نجعلكم صاغرين مهانين، وفي الآخرة مسجونين بعذابٍ أليمٍ، مخلدين في النار أبد الآبدين.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع، تهويلاً عليهم وتعريضاً:

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ
وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ وتحفظون أنفسكم أيها المنهمكون في أنواع الغفلات والجهالات ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ وبقيتم على الكفر ومتّم عليه، مع أنكم ستستقبلون وتقعون يوماً وأيّ يوم ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ من غاية طوله[1] وشدة أهواله وأحزانه.

هذا على وجه التمثيل والتشبيه بحسب متفاهم العرف، وإلا فلا يكتنه هول ذلك[2] اليوم وشدته بالوصف والبيان.

ومن جملة ما يدل على شدة هوله أنه :

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ المشيدة المحكمة ﴿مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي متشققةٌ متضعضعةٌ منخرمةٌ في ذلك اليوم بمقتضى قهر الله وجلاله، وكيف لا يكون كذلك بعد ما وعد الله القادر المقتدر على عموم ما دخل في حيطة علمه وإرادته بوقوعه، ولا شك أنه ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ دائماً، وأمره مقضياً أبداً، وحكمه مبرماً أزلاً، وقضاؤه نافذاً سرمداً.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الكلمات الدالة على إنجاز وعد الله ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وعظةٌ للمتعظين المتذكرين من أرباب العناية والتوفيق ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتعظ بها ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وأخذ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ بعد ما وفّقه الحق وأعان عليه بالخروج عن لوازم الإمكان، وهداه للعروج إلى معارج الوجود، مترقياً من

---

(١) في المخطوط (وسوق).

(٢) في المخطوط (تلك اليوم).

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ ....

درجةٍ إلى درجةٍ، ومقامٍ إلى مقام، إلى أن وصل إلى مبدأ طريق الفناء، ثم ترقى منه أيضاً من حالةٍ إلى حالةٍ إلى أن فني عن الفناء أيضاً، وبعد ذلك صار ما صار، وليس وراء الله مرمىً ومنتهى.

وبعد ما أمر سبحانه حبيبَه ﷺ بقيام الليل على الوجه المذكور وحثَّه عليه، ورغَّبه على وجه المبالغة والتأكيد، بأن علَّله بعلمه سبحانه إياه على أيّ وجه فقال:

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد ﴿ أَدۡنَىٰ﴾ وأقلَّ ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ وأعلى، وأكثر من نصفِه تارةً، ﴿وَ﴾ تارةً أخرى أدنى من ﴿نِصۡفَهُۥ﴾ [السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿نِصۡفِهِ﴾] ﴿وَ﴾ تارة أدنى من ﴿ثُلُثِهِ﴾ [السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة ابن عامر ونافع وغيرهما: ﴿ثُلُثَهُۥ﴾] وأكثر من ربعه، وهذا أدنى تاراتك، وأعلاها ما هو أدنى من ثلثي الليل، إذ هي أقرب إلى قيام الكلِّ الذي فرض أولاً، ثم الثانية، ثم الثالثة ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ أي ويعلم سبحانه أيضاً قيامَ طائفةٍ ﴿مِّنَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يقومون ﴿مَعَكَۚ﴾ ويوافقون لك في تهجدك وقيامك، يعني علمه سبحانه محيطٌ بهذه الأوقات الثلاثة الواقعة منك ومنهم، بخلاف علمك، فإنه [أي علمك] لا يقدر بتعيينها على وجهها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱللَّهُ﴾ العليم الحكيم الذي ﴿ يُقَدِّرُ﴾ بمقتضى علمه وإرادته ﴿ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ على سبيل التجدد والتتابع

عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ ....

والاختلاف طولاً وقصراً، وإيلاج بعض أجزاءِ كلٍ منهما على الآخر، وإخراجهما منه، وضبط أجزائهما وساعاتهما وأنائهما، إنما هي بعلمه لا بعلم غيره من مظاهره ومصنوعاته، وهو سبحانه ﴿عَلِمَ﴾ منك ﴿أَن﴾ أي أنه ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي ليس في وسعكم وطاقتكم تقديرُ الأوقات وضبط الأحيان والساعات، وإحصاء الآناء الواقعة في الليل والنهار، وقيامكم في كلها أو بعضها على وجه التعيين والتخصيص.

وبعد ما ظهر عنده سبحانه عدم طاقتكم ووسعكم ﴿فَتَابَ﴾ أي عاد ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ورجع عما ألزمكم وأزال تعبكم بالرخصة في ترك القيام المقدَّر المعيَّن على الوجوه المذكورة، إذ لا يسع لكم ضبطها، وبعد ما رخصكم سبحانه، وخفف عنكم تفضلاً وامتناناً، قوموا في خلال الليل مقدار ما يسَّر الله لكم ووفقكم عليه، ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾ أي صلوا التهجد بقراءة ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ المقرون بصلاتكم.

قيل:كان التهجد واجباً على التخيير المذكور، ثم رُخِّص بترك التقدير والتعيين، ثم نسخ هذا أيضاً بالصلوات الخمس المقدَّرة في الأوقات الخمسة، وإنما نسخه سبحانه إذ ﴿عَلِمَ﴾ بمقتضى حضرة علمه وحِكمته ﴿أَن﴾ أي أنه ﴿سَيَكُونُ﴾ بعضاً ﴿مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ من السهر المفرط، إذ الأبدان متفاوتة في تحمّل المشاق سيما ترك النوم المعدّ لاستراحة البدن في الليل

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ ....

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ءَاخَرُونَ﴾ منكم ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويسافرون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سفراً مباحاً ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون بسفرهم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وسعة جوده وكرمه مزيدَ رزق، أو طلب علم، أو صلة رحم، أو زيارة صديق، إلى غير ذلك من الأسفار المشروعة، فيتحرجون بقيام الليل والتهجد فيه ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أيضاً ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ترويجاً لدينه وإعلاءً لكلمة توحيده، فإنهم لو تهجدوا؛ لضعفوا البتة فشق عليهم أمر القتال.

وبعد ما أزال عنكم سبحانه حرجكم وتعبكم بمقتضى حكمته المتقَنة البالغة، فعليكم ألا تتركوا التهجد رأساً، ولا تنسوه جملةً، بل قوموا في خلال الليل للتهجد إن استطعتم ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ فيه ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ، وواظبوا على أدائها وقيامها حقَّ المواظبة، وراعوا أركانها وأبعاضها وهيئاتها على وجوهها، وبالجملة أدوها على وجهٍ يرضي عنكم مولاكم، ولا تهاونوا عليها، ولا تقصّروا فيها.

واعلموا أيها المؤمنون أن الفارق بين الإيمان والكفر، والهداية والضلال، إنما هي الصلاة التي هي أقوى أعمدةِ الدين وأقومها ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المأمورة لكم على سبيل الوجوب؛ تزكيةً لأنفسكم عن الشحّ، وأموالِكم عن الفضلات، وتمريناً لأنفسكم على الإنفاق وفعل الخيرات ﴿وَ﴾ بعد أداء الواجب من الزكاة ﴿أَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ القادرَ المقتدرَ على وجوه

﴿قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾

الإنعامات بإعطاء فواضل الصدقات وأنواع الخيرات وبناء المساجد والرباطات، وغير ذلك مما يتعلق بمصالح المسلمين من المنافع الحاصلة بالمال ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا شوب المن والأذى، والسمعة والرياء، والعجب وأنواع الهوى ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أنّ ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ وتؤخروا ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ موجبٍ لأجرٍ مستلزمٍ لثوابٍ، سواءً كان مالياً أو بدنياً، قبل حلول الأجل وهجوم الموت ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ المفضِلِ المنعِم ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأكرمَ محلاً، وأعزَّ درجةً ومنزلاً من الذي يؤخرونه إلى الوصية حين حلول الأجل ﴿وَ﴾ إن جرى عليكم في سالف زمانكم ما جرى من ترك الاستغفار ﴿اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ المفضِلَ المكرِمَ لما صدر عنكم، واشتغلوا لامتثال أوامره في بقية أعماركم، تلافياً لما مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على إنابتكم ونيّاتكم فيها ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر زلتكم الماضية أيضاً ﴿رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ يقبل توبتكم اللاحقة لها، بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك إيها السالك لسلوك التوحيد، والقاصدُ نحو مقصد الفناء: أن تبذل وسعك في طريق التوحيد ببدنك ومالك وجميع أحوالك وأطوارك، وتجتهدَ في تصفية ظاهرك وباطنك وتخليةِ قلبك عن الشواغل العائقة عن التوجه التام والالتفات الخالص.

فلك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة، وتواظب على الاتصاف بالأطوار والأخلاق الموروثة لك من النبي المختار، والمأثورة منه من الآثار، وامتثالِ ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه؛ لتصفية الخاطر عن الميل إلى ما سوى الحق من الأغيار الساقطة عن درجة الاعتبار؛ لتكون من الأبرار الأخيار الموسومين بأولي العبرة والأبصار، وتفوزوا بما فاز من الرموز والأسرار.

وإياك إياك ومصاحبة الأشرار المغترين بلذات الدنيا الغدارة، وشهوات الحياة المستعارة، المستلزمة لأنواع الخسار والبوار.

جعلنا الله الغفور الغفار من ذوي العبرة والاستبصار بفضله وطوله.

سُورَةُ المُدَّثِّر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المدثر

لا يخفى على أرباب الكشف والشهود المنخلعين عن جلباب عالم الناسوت الرافلين[1] بخِلَع عالم اللاهوت: أن من خرج عن بقعة الإمكان مهاجراً إلى الله بعد ما جذبته العناية والتوفيق من جانبه سبحانه، فحين خروجه وتفرُّقِه عن مألوفات عالم الطبيعة وظهور طلائع سلطان الوحدة الذاتية، واستيلائه بنظر شهوده، طرأ عليه حالاتٌ عجيبة وصورٌ بديعة إلى حيث أرعدته وأزعجته إلى الفرار نحو مألوفات الطبيعة والنظر والتغطي بملابسها، فصار عليها إلى أن تمكن على فطرة الوحدة، وتمرن عليها بلا خوفٍ ورعدةٍ إن أدركته العناية الإلهية، وشملته الجذبة الأحدية.

هكذا جرى على نبينا ﷺ في أوائل شهوده وانكشافه، إذ كان يوماً متوجهاً بحراء الفناء، منخلعاً عن لوازم عالم الناسوت بالمرة، حتى ظهرت عليه أمَارات عالم اللاهوت، فنودي حينئذٍ من قبل فناء الفناء، نداءً عجيباً وصداءً غريباً، بحيث لم يَسمع مثلَه سمعُ سره ﷺ.

وكان ﷺ حينئذٍ في عالم التلون، فنظر بعين شهوده يمنةً ويسرةً، فلم ير

(١) في المخطوط (المنخلعين).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ....

شيئا، فنظر فوق ذلك العالم، فرأى ما رأى، وانكشف بما انكشف، فرعب وارتعد ورجع هارباً مرعوباً مغلوباً قلقاً حائراً، حتى وصل إلى خديجة الطبيعة، وتكلَّم معها بكلمة: دثريني بملابسك وجلبابك، فدثرته الطبيعة مرة أخرى، فأدركه الخطاب الإلهي، فأدَّبَه وأخرجَه من سجن الطبيعة وملابس الهيولى بالكلية، حيث قال متيمنا:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي ربى حبيبه محمداً ﷺ على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليه، إذ أخرجه عن مضيق الإمكان المستلزم لأنواع التخمين والتقليد ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليه يوصله إلى سماء التجريد، ويمكِّنه في فضاء التفريد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ ﴾ والمتدثر المتغطي بملابس الطبيعة، وثياب الإمكان الموجبة لأنواع الخسران والحرمان.

﴿قُمْ﴾ من عالم الطبيعة واخرج عن مضيق بقعة الإمكان، بعد ما كُشفتَ طلائع فضاء اللاهوت، وبعدما خلصتَ من سجن عالم الناسوت ﴿ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ﴾ عمومَ بني نوعك، أي المحبوسين في سجن الإمكان، المقيَّدِين بسلاسل الزمان وأغلال المكان عن دركات النيران وأودية الضلالات والجهالات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة، الموجبة لأنواع الحرمان والخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿وَ﴾ خصِّصْ ﴿رَبَّكَ﴾ الذي رباك على فطرة المعرفة والإيقان بأنواع التبجيل والتعظيم ﴿فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ ذاتَه تكبيراً كاملاً إلى حيث لا يخطر ببالك

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ ....

معه شيءٌ، إذ هو المتعزز برداء العظمة والكبرياء، لا شيء سواه.

وبعد ما انكشفت بوحدة ربك وكبَّرتَه تكبيراً لائقاً بشأنه ﴿وَثِيَابَكَ﴾ التي هي ملابس بشريتك ﴿فَطَهِّرْ ۝٤﴾ عن أوساخ الإمكان، وقذر عالم الطبيعة والهيولى، فإن طهارتك عنها واجبةٌ عليك في ميلك إلى مقصد الوحدة.

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ أي الرجز العارض لبشريتك من التقليدات الموروثة والتخمينات المستحدثة من الآراء الباطلة، والأهواء الفاسدة المكدِّرة لصفاء مشرب التوحيد واليقين من الأخلاق الرديئة، والملكات الغير مرضية من الشهوية والغضبية المترتبة على القوى البهيمية، إلى غير ذلك من القبائح الصورية والمعنوية.

﴿فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ أي جانِب وافترق؛ ليمكنك التخلق بأخلاق الله، والاتصاف بأوصافه.

ومن جملة الأخلاق المذمومة، بل من معظمها المنة على الله بالطاعة، وفِعلِ الخيرات، وعلى عباده بالتصدق والإنفاق عليهم.

﴿وَ﴾ إذا سمعت ﴿لَا تَمْنُن﴾ على الله مباهياً بطاعتك، وعلى عباده تفوقاً عليهم ﴿تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ وتستجلب نِعَمَ الله على نفسك وإحسانَه عليك وامتنانَه لك بما لا مزيدَ عليه، أو المعنى {لَاْ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرِ} أي لا تعطِ أحداً شيئاً على نية أن تستكثر وتتعوض منه بدلَه أكثر مما أعطيته على مقتضى القراءتين.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لِرَبِّكَ﴾ الذي ربّاك على الخُلُق العظيم ﴿فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ على مشاق التكاليف ومتاعب الطاعات والعبادات، وعلى أذيات المشركين حين تبليغ الدعوة إياهم وإيصال الوحي إليهم.

وبعد ما سمعتَ يا أكمل الرسل من الوصايا ما سمعتَ، امتثل بها واتصف بمقتضاها اتقاءً عن يوم الجزاء.

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونُفخ ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ أي الصُّورِ المصوَّرِ لتصويت الأموات؛ ليبعثوا من قبورهم أحياءً، كما كانوا، ثم نُقِرَ ثانياً؛ ليحشَروا إلى المحشر ويحاسَبوا بين يدي الله، ثم يُجازُوا على مقتضى ما يحاسَب، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌّ.

﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي وقت النقر الثاني للحشر والوقوف بين يدي الله ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم القيامة ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾

﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إذ عسُرَ عليهم حينئذٍ الأمر واشتد الهول وتشتت أحوالهم واضطربت قلوبهم، وبالجملة ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ عليهم حسابهم، لذلك عسُر عليهم.

وبعد ما سمعت قيام يوم القيامة وتنقيد الأعمال فيها والجزاء عليها، لا تستعجل يا أكمل الرسل لانتقام المشركين المسرفين، ولا تعجل عليهم، بل

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا ....

﴿ذَرْنِي﴾ يا أكمل الرسل ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أي مع شخصٍ خلقتُه ﴿وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ متفرداً من أهل عصره، مفروزاً منهم بكثرة الأموال والأولاد والثروة والجاه، إلى حيث لقب بين قومه بريحانة قريش يعني: وليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ﴾ توسيعاً عليه وامتناناً له ﴿مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ كثيراً وافراً متزايداً يوماً فيوماً، بالتجارة والنتاج والزراعة وغير ذلك.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ حضوراً معه دائماً، لا ينفصلون عنه زماناً؛ لاستغنائهم عن التجارة والحراثة وسائر المصالح؛ لكثرة خدمهم وحشمهم، بحيث لا احتياج لهم من تهيئة أسبابهم إلى ترددهم بأنفسهم؛ لذلك يحضرون معه في جميع المحافل والمجالس والأندية تكميلاً لثروته ووجاهته.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ أي بسطتُ له بسطاً واستيلاءً، يتحسر ويتحسد بحاله جميع بطون العرب وأفخاذه.

ومع تلك[1] الوجاهة العظمى، والكرامة الكبرى الموهوبة له، لم يشكر عليّ، ولم يرجع إليّ قط.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ﴾ ويرجو ﴿أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ على ما آتيته وأعطيته من النعم العظام، مع أنه مصرٌّ على الكفر والكفران، وأنواع الفسوق والعصيان.

﴿كَلَّآ﴾ أي كيف أزيد عليه، مع أن كفرانه وطغيانه يوجب ويقتضي زوال ما أُعطي به، وكيف لا يوجبه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا﴾ الدالةِ على كمال

(١) في المخطوط (ذلك الوجاهة).

عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ....

عظمتنا واقتدارنا على أنواع الإنعام والانتقام ﴿عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ معانداً منكراً، وعنادُه أمارةُ زوال ماله وثروته وجاهه.

وبالجملة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي سأغشيه وأكلفه بالعنف في النشأة الأخرى ﴿صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ عقبةً شاقة المصعد والمهوى، فأكلفه على الصعود والهبوط دائماً، بحيث لا نجاة له منها، وعنه عليه السلام «الصَّعُوْدُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيْهِ سَبْعِيْنَ خَرِيْفَاً ثُمَّ يَهْوَى فِيْهِ كَذَلِكَ أَبَدَاً»[1]، وهو مثلٌ لما يلقى من الشدائد.

وكيف لا أكلفه بصعود الصَّعُود وهبوطه.

﴿إِنَّهُۥ﴾ من شدة شكيمته وخباثة طينته ﴿فَكَّرَ﴾ في آيات القرآن على وجه التدبر، فلم يجد فيه طعناً وقدحاً ﴿وَ﴾ بعد ما لم يجد ما يصلح للطعن ﴿قَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ في نفسه على مقتضى خباثته ما ينفق به، ويقول فيه على سبيل القدح.

ثم قال سبحانه على سبيل التعجب من إفكه وتقديره:

﴿فَقُتِلَ﴾ أي لُعن وطُرد ﴿ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ له قدحاً، مع أن القرآن منزَّهٌ عن القدح مطلقاً.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود جبل في النار فيتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوى وهو كذلك») ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه المستدرك على الصحيحين [٢/ ٥٥١ رقم/ ٣٨٧٣/ باب: تفسير سورة المدثر]. وابن المبارك في مسنده [١/ ٧٩ رقم/ ١٣٤/]. وأحمد في مسنده [٣/ ٧٥رقم/ ١١٧٣٠/].

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ
إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ....

﴿ ثُمَّ قُتِلَ﴾ ذلك المعاند الطاغي ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ ما هو بعيدٌ عن شأن القرآن بمراحل، كرره سبحانه مبالغة في التعجب والاستبعاد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ كرةً بعد أولى، ومرةً بعد أخرى في أمر القرآن ﴿ ثُمَّ﴾ لما لم يجد فيه طعناً، مع أنه من أرباب اللسن والفصاحة ﴿عَبَسَ﴾ أي قطب وجهَه وكلح، واستكره كراهة شديدة ﴿ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ اهتمّ وبالغَ في وجدان القدح اهتماماً بليغاً، فلم يجد، وأيس ملوماً مخذولاً.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما دبَّر مراراً، فلم يجد ﴿ أَدْبَرَ﴾ عن الإيمان بعد ما أشرف على الإقبال بالإيمان والقبول ﴿وَ﴾ ما حمله على الإدبار إلى أنه ﴿ اسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ واستحيا عن اتّباعه.

وبالجملة ﴿فَقَالَ﴾ بعد اللتيا والتي: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ أي يُروى ويُتعلم.

﴿ إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ ما هو من الوحي وكلام الله، كما ادعاه محمد ﷺ مفترياً على الله.

روي أنه مر الوليد بن المغيرة بالنبي ﷺ، وهو يقرأ: حم السجدة، فسمعه بسمع الرضا متدرباً بأسلوبه، ثم أتى قومه، فقال: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من جنس كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ثم خرج.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ ....﴾

فقالت قريش: والله قد صبأ الوليد، ولتصبون قريش كلهم.

فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فجلس إلى جنبه حزيناً، فقال: ما لي أراك حزينا يا ابن أخي؟

فقال: هذه قريش يجمعون لك نفقةً يعيبونك على كبر سنك، يزعمون أنك زيّنت كلام محمد لتنال من فضل طعامه.

فغضب الوليد، فقال: لم تعلم قريش أني أكثرهم مالاً وولداً، وهل يشبع محمد وأصحابه، أن يكون لهم فضل.

ثم قام مع أبي جهل حتى أتى قومَه فقال: تزعمون أن محمداً مجنونٌ، فهل رأيتموه يتجنن قط؟ قالوا: اللهم لا.

ثم قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن قط؟. قالوا: لا.

ثم قال: تزعمون أنه شاعرٌ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟ قالوا: اللهم لا.

ثم قال: تزعمون أنه كذّاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: اللهم لا.

ثم سكت، قالت قريش: فما هو؟ فتفكر في نفسه وقدّر في نجواه، ثم قدر[1]، فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله، وولده ومواليه، وما يقوله مفترياً إلى ربه سحرٌ يؤثر.

فقال تعالى زجراً عليه وجزاءً له:

﴿سَأُصْلِيهِ﴾ وأدخله ﴿سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ وما شأنها أبهمها تفخيماً وتهويلاً، وغايةُ ما يدرَك من شأنها أنها

(١) في المخطوط (قرر).

لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ....

﴿لَا تُبْقِي﴾ شيئاً يقع فيها بل تهلكه ﴿وَ﴾ مع إهلاكه وإفنائه ﴿لَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ ولا تدعُ على هلاكه وفنائه، بل يوجده الله[1] بكمال قدرته، ثم يهلكه[2]، ثم يوجده، فتهلكه أبداً كذلك، وأيضاً من شأنها أنها:

﴿لَوَّاحَةٌ﴾ مسودةٌ من شدة إحراقها ﴿لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ أي البشرة التي هي عبارة عن ظاهر الجلد، وأيضاً من شأنها أنها:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ أي تسعة عشر من الزبانية الموكَّلَة عليه بإذن الله، وهي من الملائكة أو شبيهةٌ بهم.

إنما اختص هذا العدد؛ لأن الأعمال الفاسدة والأفعال القبيحة الموجبة للدخول في سقر، إنما يكتسب بالقوى البهيمية والقوى الطبيعية.

أما القوى البهيمية فاثني عشر: الشهوية والغضبية والحواس الظاهرة والباطنة.

وأما القوى الطبيعية فسبع: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمولدة.

وبالجملة يصور السقر من مقتضيات هذه القوى، ويوكِّل عليها من زواجر الزبانية على عدد مأخذها، عدلاً منه سبحانه؛ لينزجر كلٌ من القوى بزاجرٍ يناسبها.

ولما نزلت قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم بخبر ابن أبي كبشة، إن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهم أي الشجعان، أتعجز كل عشرٍ أن

(١) في المخطوط (بأمر الله).

(٢) في المخطوط (أهلكته).

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ

تبطش بواحد منهم.

وبعد ما قالوا ما قالوا على سبيل التهكم أنزل سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ وخزنتها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أقوياء قوتهم لا تقاس بالقوى البشرية، بل لا يقاوم جميع من على الأرض بواحدٍ من المَلَك في القوة والصولة ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ أي عددهم المذكور ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ اختباراً وابتلاءً، أي سبب اختبارٍ وافتتانٍ لهم يُفتنون بهذا العدد، تارةً يستقلون، وتارة يستبعدون ويتعجبون من مقاومة هؤلاء المعدودين بعموم العباد المستحقين لدخول السقر من الثقلين، وبالجملة يستهزئون بهذا القول، ويضحكون منه، وإنما أنزلنا هذه الآية وخصصنا هذا العدد وهؤلاء المعدودين ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين ويجزموا بنبوة محمد ﷺ وبصدق القرآن وحقيته؛ لأن هذا ليس ببدع منا في هذا الكتاب، بل أنزلنا كذلك في سائر كتبنا.

ولما وجدوه موافقاً لما في كتبهم، تيقنوا بصدق القرآن ونبوة النبي عليه السلام ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ على إيمانهم أي يرسَّخ[1] إيمانهم ويتأكد بتصديق أهل الكتاب كتابهم ونبيّهم ﴿وَ﴾ بعد ما استيقنوا واستقاموا على اليقين وتمكنوا فيه ﴿لَا يَرْتَابَ﴾ ويشكَّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في حقية

---

(١) في المخطوط (ترشح).

وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ....

هذا الكتاب وهذا النبي المؤيد به ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ وارتيابٌ في حقية هذا الكتاب والنبي من أهل النفاق ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجاحدون الجازمون في التكذيب، المجاحدون بالإنكار صريحاً: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرب المستبعد، إلى حيث صار في الاستغراب والاستبعاد ﴿مَثَلًا﴾ سائراً بين الناس يستعملونه ويتداولونه، مستبعدينه ومستهزئين ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثلَ ما سمعت يا أكمل الرسل من استيقان البعض واستنكار البعض الآخر بهذا العدد المذكور ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ العليمُ الحكيمُ بمقتضى قهره وجلاله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه من عباده، وأراد مقته وضلاله ﴿وَيَهْدِى﴾ بمقتضى لطفه وجماله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إذ هو فاعلٌ على الإطلاق بالإرادة والاختيار والاستحقاق ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل، أي مظاهر لطفه وقهره وجماله وجلاله ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو المستقل بالإحاطة والشمول، لا يعزب عنه شيء من الأصول والفروع، إذ لا سبيل للعباد إلى إحصاء أوصافه وأسمائه التي تترتب عليها مظاهره ومصنوعاته، ما للعباد ورب الأرباب ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا هِىَ﴾ أي ذكرُ السقر ووصفها وعدة الخزنة عليها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي عظةً وتذكرةً نازلةً من قِبل الحق ﴿لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ المجبولين على العبرة والنظر، المكلّفين بجلب النفع ودفع الضر، وبالحذر عن مقتضى القهر والجلال، والركون إلى مقتضى اللطف والجمال.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ ....﴾

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يتذكر بها هؤلاء الحمقى، إلا من وفقه الحق، وأدركته العناية من جانبه ﴿وَ﴾ حقِّ ﴿الْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ المنير.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ المظلم وكيفية تصاريف القمر المضيء في ظلمة الليل وانمحاء نوره ﴿إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي ولَّى وانصرف ذاهباً، يعني بالقمر نور الإيمان المشرق في الليل الذي هو عبارة عن ظلمة عالم الكون والفساد المترتب على التعينات العدمية الحاصلة من انعكاس شمس الذات.

﴿وَالصُّبْحِ﴾ الذي هو ظهور نور الوجود وطلوع شمس الذات الأحدية التي انمحت وفنيت ﴿إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي أضاء، وأشرق أظلال التعينات بالمرة، وانتثرت كواكب الهويات، وانطفأت شهب العكوس، واضمحلت مطلق الإضافات.

﴿إِنَّهَا﴾ أي سقر الطرد والحرمان، وسعير الزجر والخذلان، والخزنة المعدودين الموكلين عليها بقدرة الله ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ أي إحدى البلايا والمصيبات الكبار النازلة لأصحاب الضلال بمقتضى القهر الإلهي وجلاله.

وإنما أنزلنا في كتابه وأخبرنا عنها لتكون:

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ ينذرهم ويحذرهم عن حر سقر[1].

﴿لِمَن شَاءَ﴾ وأراد سبحانه ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المكلفون المجبولون على الهداية

---

(١) في المخطوط (عن خطر السقر).

أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ....

والضلال ﴿ أَن يَتَقَدَّمَ ﴾ بالإيمان والأعمال الصالحة وفعل الخيرات وترك المنكرات، فيهتدي بطريق النجاة منها ﴿ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ ﴾ بالكفر وارتكاب المناهي والمنكرات، وفعل المحرمات، فوقع فيها وازدجر، وبالجملة:

﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ ﴾ من النفوس الخيرة ﴿ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ واقترفت ﴿ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ مرهونة مرتهنة عند الله بكسبها، فكسبُها إن كان لأجل الدنيا وما يترتب عليها من اللذات والشهوات البهيمية والوهمية والخيالية من الجاه والثروة والاستكبار والاستعظام بالأموال والأولاد، ترتبَ عليها أنواع العقوبات والمصيبات؛ وإن كان لأجل الآخرة من الإيمان والإسلام وصوالح الأعمال وارتكاب المتاعب والمشاق في طريق الحق وتوحيده، ترتبَ عليه أصناف المثوبات وأنواع الكرامات والدرجات العلية والمقامات السنية من اللذات الروحانية.

﴿ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾ وهم الطائرون إلى الله، السائرون نحوه لإفناء هوياتهم في هوية الحق، المنخلعون عن لوازم عالم الناسوت بالمرة، المتخلعون بخلع عالم اللاهوت.

والمتمكنون﴿ فِي جَنَّٰتٖ ﴾ ومنتزهات موصوفةٍ بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومن كمال تمكنهم وتقررهم في مقر الوحدة ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ويسألون

عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ
نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾
حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ....

﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ على سبيل التعجب والاستبعاد:

﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأدخلكم ﴿فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ الإمكان وجحيم الطرد والخذلان.

﴿قَالُوا۟﴾ أي المجرمون في جوابهم متحسرين متأسفين: ﴿لَمْ نَكُ﴾ في دار الاختبار ونشأة الاعتبار ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ المتوجهين نحو الحق في الأوقات المكتوبة علينا.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ على مقتضى الأمر الإلهي عطفاً ولطفاً.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كُنَّا نَخُوضُ﴾ ونشرع في الباطل، ونروِّجه ونترك الحق ونهمله ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ الشارعين المزوِّرين المروِّجين عناداً ومكابرةً.

﴿وَ﴾ أعظم من الكل أنا ﴿كُنَّا﴾ من نهاية جهلنا وغفلتنا ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ أي بوقوع الطامة الكبرى وقيام الساعة، مقتفين أثر الضالين المضلين، مستظهرين بالآلهة الباطلة، مغترين بشفاعتهم العاطلة لدى الحاجة، وبالجملة كنا مصرِّين على ما كنا عليه.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ وحل علينا الأجلُ، وظهرت مقدماته، وانقرضت نشأة الاختبار.

وبالجملة ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ حين أُخذوا بظلمهم، لو

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ....

شفَّعوا لهم جميعاً.

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ وأي شيء عرض لهم ولحق بهم، مع أنهم مجبولون على فطرة التوحيد واليقين، حتى صاروا ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ التي هي آيات القرآن المبيِّنة لسرائر التوحيد والعرفان ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ منصرفين على سبيل الإنكار والاستكبار.

وبالجملة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في هذا الإعراض والنفرة المتفرعة لغاية السخافة ونهاية البلادة ﴿حُمُرٌ﴾ هي مَثَلٌ في البلادة المتناهية ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ من شدة رعبها وخوفها، سيَّما حين.

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ أشد صائلٍ عليها، شبَّه نفرتهم عن التذكر بآيات القرآن حسداً وحميةً جاهليةً، بالحمر المستنفرة من الأسد، والجامع بينهما البلادة المتناهية، بل هم أسوأ حالاً من الحُمُر، إذ الحمر فرت من العدو خوفاً من ضرره، وهؤلاء فروا من الحق المشفِق النافع لهم نفعاً صورياً ومعنوياً، وما حملهم وأوقعهم على فتنة الاستنفار والاستنكاف إلا حميتهم وغيرتهم الجاهلية، بأن لم يؤمنوا بما نزل على غيرهم.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ﴾ له من قبل الحق ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس مدونةً ﴿مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ تُنشر وقت القراءة، ثم تُطوى كالصكوك والسجلات، لذلك قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلاً منا بكتابٍ من السماء مكتوبٍ

كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ
﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

فيها: من الله إلى فلان اتبع محمداً، فإنه نبيٌ صادقٌ.

ثم قال سبحانه:

﴿ كَلَّاۖ ﴾ رداً عليهم وردعاً لهم عن الإعراض عن الإيمان والتذكر، لا عن امتناع المقترح، فإنه لا يستحيل على الله شيءٌ لو تعلق به مشيئتهم ﴿ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ولم يؤمنوا لها؛ لذلك أعرضوا عن التذكرة.

﴿ كَلَّآ ﴾، أيْ كيف يتأتى لهم الإعراض عن التذكرة ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي القرآن ﴿ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ ﴾ وأي تذكرة وتبصرة.

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي أيّ شيءٍ اتعظ وتذكر به، فقد هدى واهتدى إلى الله.

﴿ وَ ﴾ غاية ما في الباب أنه ﴿ مَا يَذۡكُرُونَ ﴾ ويتذكرون به ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ تذكّرَهم وهدايتهم، إذ أفعال العباد كلها مستندةٌ إليه سبحانه، مخلوقةٌ له، وكيف لا يفوَّض إلى مشيئته سبحانه عموم أمور العباد، مع أنه ﴿ هُوَ ﴾ بذاته ومقتضى أسمائه وصفاته ﴿ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ وأحقّ من أن يُتقى من انتقامه وقهره، إذ هو المقتدر على وجوه الانتقام ﴿ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ حقيقٌ بأن يُرجى منه العفو والغفران، سيما على المتقين المستغفرين، إذ هو المقتدر بالاستقلال على عموم الإنعام والانتقام والإكرام.

جعلنا الله من زمرة أهل التقوى والمغفرة بمنِّه وجوده.

خاتمة سورة المدثر

عليك أيها المريد المحقق المتحقق بسر سريان الوحدة الذاتية في عموم المظاهر، وباستقلال الوجود في عموم الآثار الظاهرة في الأنفس والآفاق: أن تذعن وتعرف أن جميع الأفعال الجارية في عالم الغيب والشهادة، إنما هي مستندةٌ إليه سبحانه، صادرةٌ عنه أصالةً وفق الإرادة والاختيار، وإنما أظهرها سبحانه في مظاهر أسمائه وملابس صفاته إظهاراً لكمال قدرته ومتانة حكمته وإحاطة علمه وإرادته وعجائب صنعه وصنعته.

فلك أن تعتقدها على الوجه المذكور، وتجزم بها علماً إلى أن يصير علمك عيناً، وعينك حقاً، وليس وراء الله مرمىً ومنتهىً.

وفقنا بما أنت تحب منا وترضى يا مولانا.

سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة القيامة

لا يخفى على من تحقق في مقر التوحيد وتمكن في مقر التجريد والتفريد: أن عموم المظاهر والمجالي منقهرةٌ تحت سلطنة الوحدة الذاتية، فانيةٌ فيها، مضمحلةٌ دونها، وإن التعينات المحسوسات والهويات المترتبة الغير الموجودة، إنما هي أظلال أسمائه وعكوس أوصافه الذاتية المتفرعة على شؤونه وتطوراته القبضية والبسطية، المترتبة على التجليات الجمالية والجلالية.

وبعد ما انكشف الأمر على هذا المنوال، ثبت أن الكل برزوا لله الواحد القهار الكبير المتعال.

ثم لما أراد سبحانه أن ينبه عباده على ظهور هذه الحالة، وبروزِ هذه الواقعة الموعودة في النشأة الأخرى، أشار سبحانه إلى وقوعها وقيامها على وجه المبالغة والتأكيد من طريقٍ مخصوصٍ من طرائق التوكيد، وأردَفها بالإشارة إلى النفس اللوامة المعِينة على تصديقها وتهيئة ما يناسبها من الأخلاق والأعمال أيضاً على وجهها من المبالغة والتأكيد، فقال سبحانه بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي استغنى عن عموم مظاهره ومصنوعاته بمقتضى ذاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليها بإظهارها حسب آثار أسمائه وصفاته في النشأة الأولى

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ....

﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليها حسب انقهار الكل في وحدة ذاته وإفنائه في هويته الذاتية في النشأة الأخرى.

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ ﴾ أي بوقوع الطامة الكبرى وثبوتها وقيامها، إذ هي من غاية ظهورها وجلائها غنيةٌ عن أن يؤكَّد أمرُ وقوعها وقيامها بالقَسم عند العارف المحقق المتحقق بمقام التوحيد واليقين.

﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ أيضاً ﴿ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ أي وكذا لا حاجة إلى القَسَم بظهور النفس اللوامة في عالم الكون والفساد، إذ كل نفسٍ من النفوس الكائنة تعلم أن العالم ما هو إلا سرابٌ باطل وعكسٌ زائلٌ عاطلٌ، لا قرار له، ولا مدار لها فيه، وتلوم دائماً نفسها عليها، إلا أنها لا تتنبه على سلطنة الوحدة، ولا تتفطن بسرايتها واستيلائها على عموم ما ظهر وبطن وغاب وشهد، حتى تصير لوامةً، مطمئنةً راضيةً، وراضيته مرضيةً، ومرضيته فقيرةً، وفقيرته فانيةً، وفانيته باقيةً، وليس وراء ذلك مرمىً ومنتهىً.

أدركنا بلطفك الخفيّ يا خفيّ الألطاف.

ثم التفت سبحانه نحو حقيقة الإنسان المجبول نحو فطرة العرفان حسب حصة لاهوته ووبَّخه بما وبَّخه تشنيعاً وتقريعاً فقال:

﴿ أَيَحۡسَبُ ﴾ ويظن ﴿ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ أي أنا لا نقدر مع كمال قدرتنا على إبدائه وإبداعه على إعادته

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ ....

وجمع عظامه مرةً بعد أخرى في يوم البعث والجزاء.

﴿بَلَىٰ﴾ أي نحن نقدر على إعادته وجمع عظامه وتسوية جميع أعضائه على الوجه الذي كان بل ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ أي سلاميه على وجهها، خصّ بالذكر لأن جمع أجزائها أصعب من سائر الجسد؛ لاشتمالها على دقائق العظام ورقائق العروق والأعصاب والغضاريف والرباطات المعينة على القبض والبسط والأخذ والبطش، ولصعوبة الإطلاع على أجزائها عجز الأطباء عن تشريحها، يعني إنا نقدر على جمعها مع صعوبتها، فكيف نجمع غيرها.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المركَّبُ من الجهل والنسيان بِظَنِّه وحسبانه ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ أي يدوم ويمضي دائماً على الفجور والفسوق والخروج عن مقتضى الحدود الإلهية في ما يستقبله من الزمان، كما كان عليها في ما مضى، لذلك ﴿يَسۡـَٔلُ﴾ سؤال إنكارٍ واستبعادٍ:

﴿أَيَّانَ﴾ أي متى يقوم وأي آنٍ يقع ﴿يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾ التي تُبلى السرائر وتُكشف الستائر فيها؟

بيِّن لي أيها المدعي وقتَ وقوعه، حتى أكفَّ وأمنعَ نفسي عن الفجور، وأتوبَ عنها يقيناً وثقةً، إنما قال ما قال على سبيل الاستهزاء والتهكم.

وكيف يستهزىء ويصر على الإنكار ذلك المستهزئ المسرف المصرّ ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ وتحير ﴿ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ أي حاسة عالم الناسوت وجاسوسه حين

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ ....

ظهرت طلائع عالم اللاهوت فزعاً وهولاً ودهشاً، مما يرى من العجائب والغرائب الموعودة التي كان يُنكِر ويكذِّب بها في دار الدنيا وبقعة الإمكان ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿خَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾ أي ذهب ضوء الوجود الإضافي المستعار، وانمحى نوره، وأشرف على الأفول في أفق العدم.

﴿وَ﴾ حينئذ ﴿جُمِعَ ٱلشَّمْسُ﴾ أي ظهر نور الوجود المطلق المستغني عن عموم المظاهر والمجالي ﴿وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ أي اندرج ضوء الوجود الإضافي المنعكس منها واندمج فيها، ولم يبق له كونٌ ولا لونٌ ولا بينٌ ولا بَونٌ.

وبعد رجوع الكل إليها وانطماسها فيها وانقهارها دونها.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنعزل عن اليقين والعرفان ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ والملجأ حتى أفر إليه، وألجأ نحوه؟.

﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن يكون له حينئذٍ ملجأٌ ومقرٌ في الوجود حتى يطلبه، إذ ﴿لَا وَزَرَ ﴿١١﴾﴾ أي لا حصنَ ولا ملجأ ولا حِرزَ ولا مخلصَ له يومئذ، بل في عموم الأوقات والأزمان عند العارف غير الحق، إذ لا شيءَ في الوجود سواه.

فثبت أنه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وإلى كنف حفظه وجواره ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي لا مقر حينئذٍ لعموم العباد إلا عنده سبحانه، ولا مرجع لهم سواه.

﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾
لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾........................

وبعد رجوع الكل إليه سبحانه وحضوره دونه:

﴿يُنَبَّؤُا﴾ ويُخبر ﴿الْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من الأعمال الصالحة، وأتى بها ﴿وَ﴾ بما ﴿أَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ منها ولم يأت بها، وتركها، بل أتى بأضدادها على التفصيل بلا فوت شيءٍ منها.

﴿بَلِ﴾ لا حاجة حينئذٍ إلى الإنباء والإخبار بما صدر عنه إذ ﴿الْإِنسَٰنُ﴾ له حينئذٍ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وبما صدر عنه من الأعمال الصالحة والطالحة ﴿بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ كاملةٌ وبينةٌ، واضحةٌ موضحةٌ، إذ يشهد له وعليه حينئذٍ جوارحه وآلاته التي اقترف بها ما اقترف من الحسنات والسيئات.

بحيث ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ أي جميعَ ما يعتذر به من الأعذار الكاذبة، لم يسمع مع حضور الشهود والعدول، التي هي أعضاؤه وجوارحه، بل يُعامَل معه بمقتضى ما يحاسَب عليه، إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشرٌ.

ثم لما استعجل رسول الله ﷺ وبادر بالتقاط الوحي من فيّ جبريل عليه السلام، إلى حيث سبق عليه بالتلفظ خوفاً من أن ينفلت منه شيءٌ، نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن ذلك تأديباً وإرشاداً فقال:

﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ حين التقاطك من حامل الوحي، يعني جبريل عليه السلام، قبل أن يتم وحيه وإلقاؤه لك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ أي لتأخذه على عجلةٍ خوفاً من إفلاته عنك، لا تخف ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في خاطرك وضميرك، ﴿وَ﴾ أيضاً علينا بعد جمعنا

وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ ....

﴿وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ وقراءته على لسانك على وجهه بلا فوت شيء منه، لا تتعب نفسك بالعجلة، ولا تستعجل بالالتفاظ قبل الالتمام.

وبعد ما سمعتَ ما سمعت يا أكمل الرسل فأجرِ عليه واذكر:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي القرآن حين الوحي بلسان جبريل عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ أي تذكَّرَ وتَتَبَّع قراءته.

﴿ثُمَّ﴾ تتبع تلاوته وتكرر حتى ينتقش في صحيفة خاطرك، ويترسَّخ[1] في ذهنك ثم أجر على لسانك مراراً كذلك، ثم إن بقي لك شكّ وتردُّ في معناه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي تبيينه وتوضحيه لك، وإزالة ترددك إشكالك عنه، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً لرسوله ﷺ وكفاً لعموم عباده عن العجلة في جميع الأمور مبالغةً وتأكيداً؛ لأن الإنسان مجبولٌ على الاستعجال، مطبوعٌ عليه، لذلك بالغ سبحانه في النهي عنه وأردف بهذا النهي حسب العاجل والآجل، فقال على سبيل الإضراب:

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ يعني أن بني آدم كلهم مجبولون على العجلة؛ لذلك يحبون ويختارون اللذة العاجلة الدنياوية مع سرعة انقضائها وزوالها على اللذة الآجلة الأخروية مع بقائها ودوامها وعدم انقضائها أصلاً، ويتركون الأعمال المقتضية لها لذلك:

(١) في المخطوط (يترشح).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ ....

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم قيام الساعة ﴿نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ طريةٌ بهيةٌ مشرقةٌ يتلألأ منها أنوار اليقين والعرفان، وآثار الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية، وهي وجوه أرباب العناية الموفَّقين على صلاح الدارين وفلاح النشأتين، لذلك حينئذٍ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وبمطالعة لقائه مشرفةٌ مسرورةٌ.

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ عبوسةٌ كلوحةٌ متغيرةٌ مسودةٌ، بحيث ﴿تَظُنُّ﴾ بل يجزم كل من نظر إليها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ ويعرض عليها ﴿فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ داهيةٌ شديدةٌ ومصيبةٌ عظيمةٌ، تكسر فقار ظهرها من هولها وشدتها.

﴿كَلَّا﴾ أي كيف تحبون وتختارون اللذة الفانية العاجلة على الباقية الآجلة، أما تتذكرون ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس، وعزمت على التوديع والخروج ﴿التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ أي عالم الصدر قريب المخرج.

﴿وَقِيلَ﴾ حينئذٍ في حقه أي الملائكة الموكلون على الموت، مستفهمين فيما بينهم على سبيل المشورة: ﴿مَنْ﴾ هو ﴿رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ منا قابضٍ روحه، أملائكةُ الرحمة أم ملائكة العذاب؟

﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿ظَنَّ﴾ بل جزم المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ والافتراق عن الدنيا، وما فيها من عموم اللذات والشهوات المحبوبة فيها.

﴿وَ﴾ بعد ما جزم بفراق الأحبة ﴿الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي التولت

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ....

ساقه بساقه من كمال ضجرته وأسفه، فلا يقدر حركتها وتحريكها.

وبالجملة ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي سوقه إليه ورجوعه نحوه وحكمه عنده وحسابه عليه، وبالجملة إذا سئل الإنسان حينئذٍ عما أُمر له ونُهي عنه في النشأة الأولى كيف يجيب؟! مع أنه:

﴿فَلَا صَدَّقَ ﴾ على من أمر بتصديقه، ولا قَبِل منه ما هو صلاحه في دينه ﴿وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ ومال إلى الله في الأوقات المكتوبة المقدَّرة للتوجه والرجوع نحوه سبحانه.

﴿وَلَٰكِن﴾ عكس الأمر إذ ﴿كَذَّبَ﴾ على من أُمر بتصديقه ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ أي انصرف وأعرض عن الطاعات المأمورة به.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انصرافه وإعراضه عن المرشدِ الداعي ﴿ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ ﴾ يتبختر فرحانَ مسروراً مباهياً بفعلته، مفتخراً بشأنه.

قيل له حينئذٍ من قبل الحق مخاطباً إياه بالويل والهلاك بسبب فعله هذا ومباهاته:

﴿أَوْلَىٰ ﴾ وأليق ﴿لَكَ ﴾ وبحالك في شأنك هذا الويل والهلاك ﴿ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ لك وبحالك الويل والهلاك.

﴿ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ ﴾ كذلك ﴿فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ لك كذلك تأكيداً على ذلك، وتشديداً على عذابك ووخامة حالك ومآلك، أيها المسرِف المفرِط المباهي بالإعراض

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ ....

والانصراف عن الإيمان والطاعات، المراد منه: أبو جهل عليه اللعنة.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتهديد:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المصرُّ على الكفران والطغيان ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ مهمَلاً لا يكلَّف ولا يحاسَب بعد التكليف، ولا يجازَى ولا يعاقَب على أفعاله، مع أنه إنما جُبل على فطرة التكليف والمعرفة، وبمقتضى حسبانه هذا أنكر البعث والجزاء، وخرج عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة عليه في نشأة الاختبار، مصراً على كفره وكفرانه.

ومن أين يتأتى له الخروج عن ربقة العبودية؟!

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً﴾ مهينة مرذولة حاصلة ﴿مِّن مَّنِيٍّ﴾ مهينٍ مرذولٍ ﴿يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ ويُصَبُّ في الرحم المرذول؟.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ قذرةً في الرحم كسائر الأقذار ﴿فَخَلَقَ﴾ أي قدَّر سبحانه أعضاءه وجوارحه منها، وبعد ما قدَّره وصوَّره ﴿فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي عدَلَه وقوَّمه سبحانه بحوله وقوته، فصار جسداً ذا حسٍ[١] وحركةٍ، وقوّاه فأقامه.

﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق بكمال قدرته ومتانة حكمته وصنعته لمصلحة التناسل والتكاثر ﴿مِنْهُ﴾ أي من ماء الإنسان ونطفته ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين

(١) في المخطوط (مسٍ).

ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ تتميماً للحكمة البالغة المتقَنة.

ثم قال سبحانه موبخاً مقرعاً على وجه الاستبعاد عن كفران الإنسان وإصراره على إنكار البعث والحشر وإعادة الأموات أحياءً كما كان:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ القادر المقتدر الذي قدر على خلق هذه الصور المهينة الخبيثة وتبديلها، صوّرها عجيبةً بديعةً قابلةً لفيضان أنواع الكمالات، لائقةً للخلافة والنيابة الإلهية ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ مرةً بعد أخرى، مع أن الإعادة أهون من الإبداء.

بلى لك الإعادة والإبداء أيها القادر المقتدر على خلق الأشياء، أنت تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا تسأل عن فعلك، إنك حميد مجيد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المتحقق بحيطة الحق وشموله واستقلاله في تصرفات ملكه وملكوته وجبروته ولاهوته: أن تعتقد أن قدرته الكاملة لا يعتريها كلالٌ ولا يعرضها فطرةٌ ولا زوالٌ، بل له أن يظهر ويوجد بمقتضى قدرته جميعَ ما ثبت وتحقق في حضرة علمه، ولوح قضائه من الصور البديعة التي لا يخطر ببالك مطلقاً، فله أن يكوّن ويوجِد من كل ذرةٍ عوالمَ ما شاء الله، وكذا يدرِج العوالم الغير المحصورة في كل ذرةٍ من ذرائر الكائنات.

وبالجملة من وصل إلى سعة قلب الإنسان وساحة صدره ظهرَ عنده أنه لا يمتنع ولا يستحيل في جنب قدرته سبحانه وإرادته، شيءٌ من مقدوراته ومراداته مطلقاً.

فهيهات هيهات لو نظرتَ إلى أجزاء العالم بنظر العبرة والاستبصار، بل إلى نفسك ورقائق أعضائك وجوارحك ودفعت الألفة والعادة عن البين، لرأيت من كل شيءٍ وفي كل ذرةٍ من ذرائر العالم عجائبَ وغرائبَ، لا تُعدُّ ولا تُحصى.

غاية ما في الباب أن ألفَك حجبك عن هذا الإدراك، وعادتَك عاقتك عن رؤية البدائع الإلهية، ولو تنوَّر بصر بصيرتك ونظر سرك وسريرتك بكحل الاستبصار والاعتبار، لرأيت من عجائب قدرة الله وبدائع صنعه وحكمته في كل طرفةٍ ولمحةٍ ما بجنبه أمر الحشر والنشر، وإعادة الأموات أحياءً سهلٌ يسيرٌ.

حققنا بحقيتك وقيوميتك يا ذا القوة المتين.

سورة الإنسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإنسان

لا يخفى على من انكشف بحقيقة الإنسان وكيفية تطوراته المتلونة وشؤونه المترقية من الخباثة والخساسة إلى أنواع النجابة والكرامة حتى وصل إلى رتبة الخلافة والنيابة الإلهية: أن مبنى ترقيه وتدلِّيه من حضيض الإمكان إلى أوج الوجوب إنما هي بالتربية الإلهية وتكريمه بمقتضى تجليه عليه بعموم أسمائه الكاملة وأوصافه الشاملة ليرشده إلى وحدة ذاته ويخلّقه بأخلاقه وأوصافه.

ولاشك أن تربية الدُنى المرذولة[1] إنما هي بتغيير الخصلة المذمومة وتبديل الديدنة المستهجنة، وذلك لا يتيسر إلا بوضع التكاليف وتحميل المتاعب والمشاق القالعة المصفية لأقذار الطبائع وأكدار الهيولى اللازمة للقوى البشرية وأيضاً بتلميظ المعارف والحقائق المشوقة إلى اللذات الروحانية والمكاشفات اللدنية المخلصة عن الرسوم العادية مطلقاً، لذلك أشار سبحانه في هذه السورة العظيمة الشأن إلى أحوال الإنسان وكيفية ترقيه من شأنٍ إلى شأن إلى أن وصل إلى ما وصل من الهداية والعرفان فقال متيمنا:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بمقتضى عموم أسمائه الحسنى وصفاته العليا في مظهر الإنسان ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بأنواع التربية والإحسان، حتى أوصله

(١) في المخطوط (أن تربية الدنى المرذول).

هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ....

وهداه إلى طريق الإيمان والعرفان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليه يوصله إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ أي قد سبق ومضى ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ المصوَّر بصورة الرحمن ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أي شأنٌ محدودٌ من الشؤون الغير المحدودة الإلهية بحيث ﴿لَمۡ يَكُن﴾ الإنسان فيه ﴿شَيۡـٔٗا﴾ إذ العدم ليس بشيءٍ، فكيف كان ﴿مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾

﴿إِنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا بمقتضى كمال قدرتنا وإرادتنا ووفور حكمتنا ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وقدّرنا وجوده بعد ما أخرجناه من العدم الصرف نحو فضاء البروز وصوَّرناه بصور العناصر ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ مهينةٍ مرذولةٍ ﴿أَمۡشَاجٖ﴾ مختلطةٍ مجتمعةٍ من الذكر والأنثى، وبعد ما صورناه هيكلاً سوياً، وأودعنا فيه ما أودعنا من الروح وسميناه إنساناً ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ نختبره ونجرّبه هل يتفطن إلى موجِده ومظهِره أم لا؟.

وكيف لا نختبره ؟.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ لحكمة الاختبار ومصلحة الاعتبار ﴿سَمِيعَۢا﴾ متمكناً قادراً على استماع آياتنا الدالة على وحدة ذاتنا وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ مقتدِراً على مشاهدة بدائع صنعنا وغرائب صنعتنا وعجائب حكمتنا؛ ليكون معتبِراً منها متوجِّهاً إلى فاعلها، ومع إعطاء

إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ ....

تلك الكرامات العظيمة إياه.

﴿ إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ يعني أودعنا فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الذي هو حضرة علمنا، وبواسطته هديناه إلينا سبيلاً بأن أرسلنا الرسل المنبِّهين عليه، الموقظين له من نعاس النسيان، المنهين له إلى ما أودعنا فيه من الوديعة البديعة، وأيدناهم بالآيات المبيِّنة المنبِّهة النازلة من لدنا والبينات الواضحة الموضحة لطريق توحيدنا وسبيل شهودنا، وبعد ما وضح الحق واتضح السبيل على الوجه الأبلغ الأكمل، فعليه الاختيار ﴿إِمَّا شَاكِرًا ﴾ أي إما أن يكون شاكراً مشتغلاً بشكر النعم، مواظباً على أداء حقوق الكرم، صارفاً عنان عزمه واختياره إلى صوب الهداية والرشاد حتى يكون من أرباب العناية والسداد، المتنعمين في جنة الرضا والتسليم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ للنِّعَم كافراً لمنعمها، مقتفياً أثر أصحاب الغفلة والعناد واللدد والفساد حتى يكون من أصحاب الجحيم.

وبالجملة ﴿ إِنَّآ ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَعْتَدْنَا ﴾ وهيأنا ﴿ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمسَ الحق المشرقة الظاهرة على صفائح ذرائر الكائنات، لذلك خرجوا عن ربقة ربقيته وعروة عبوديته، وأعرضوا عن مقتضى حدوده الموضوعة بين عباده ﴿سَلَٰسِلَاْ ﴾ أي سلاسل الحرص وطول الأمل يُقادون ويُسحبون بها نحو نيران الإمكان

وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا
﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا
كَانَ شَرُّهُۥ ....

وجحيم الطرد والحرمان بأنواع الخيبة والخسران ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ أي أغلال الأماني والشهوات يُقيّدون بها ﴿وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ مسعراً مملوءاً بنيران الافتقار والاحتياج والأماني والآمال، يُطرحون فيها طول دهرهم بأنواع الخذلان والهوان أبداً، ويُسجنون خالدين مخلدين.

ثم أردف سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة فقال:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ الأخيار البارين المبرورين ذوي الأيدي والأبصار، المستغرقين في بحار المعارف والأسرار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ لدى الملك الجبار خمور الشهود والاعتبار ﴿مِن كَأْسٍ﴾ أي من كؤوس ذرائر العالم المستعار، ولذلك ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي ما يمزج بها ويخلط ﴿كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ هو برد اليقين يعني:

﴿عَيْنًا﴾ معيناً هي ينبوع بحر الوجود ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ ومنها ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الواصلون إلى عالم اللاهوت، والفانون في فضاء الجبروت، الباقون ببقاء حضرة الرحموت، لذلك ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ ويجرونها ﴿تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ وإجراءً حيث شاؤوا وصاروا من كمال وصولهم واتصالهم.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ ويوفرون على المنذور، ﴿وَ﴾ كيف لا يوفون أولئك الموفون مع أنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وأيّ يومٍ يوماً ﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾ شدائده

مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ....

وأهواله ﴿مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ طائراً منتشراً بين عموم العباد.

﴿وَ﴾ من كمال استغراقهم بمطالعة وجهه الكريم ﴿يُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي الرزق الصوري والمعنوي المسوق لهم من عنده سبحانه تقويةً وتقويماً، ترحيباً وتكريماً ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ طلباً لمرضاته ﴿مِسْكِينًا﴾ أسكنه الفقر وأزعجه إلى المعاونة والسؤال ﴿وَيَتِيمًا﴾ أدركه الذلّ وأحوجه إلى الافتقار ﴿وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ أذلَّه الصَّغار والهوان وأفقره إلى الرعاية والترحم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الحسن والحسين سلام الله وصلواته على جدهما ووالديهما وعليهما، مَرِضا مرضاً هائلاً، فعادهما رسول الله ﷺ في ناسٍ، فقالوا: يا أبا الحسن لو[1] نذرت على ولديك؟

فنذر علي وفاطمة ـ على النبي وعليهما وابنيهما الصلاة والسلام ـ وفضة جاريةٌ لفاطمة صومَ ثلاثة أيام إن برئا، ثم لما برئا، صاموا وما معهم شيء، واستقرض عليٌ من شمعون الخيبري ثلاثةَ آصعٍ من الشعير، فطحنت فاطمة صاعاً، وخبزت خمسة أقراص على عدد رؤوسهم، فوضعوا بين أيديهم ليفطروا، فجاء على الباب مسكينٌ، فأعطوا له وآثروه على أنفسهم، وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا فعلوا كذلك، فألمّ عليهم يتيمٌ فآثروه كذلك، فأصبحوا صياماً، ففعلوا في اليوم الثالث مثل ذلك، فجاء أسيرٌ، فأعطوه فباتوا بلا طعامٍ، فنزل جبريل بهذه الآية، فقال: هنأك الله في أهل بيتك يا نبي الله.

(١) في المخطوط (لِم).

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ....

ثم لما أضمروا في نفوسهم ومناجاتهم حين صدور هذا الإحسان عنهم طلبَ مرضاة الله وتثبيتاً لهم على دينه وطاعته وتشويقاً منهم إلى لقائه، نزل في حقهم على وفق ما نووا:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ أي ما نطعمكم أيها المحتاجون إلا ﴿ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ الكريم، وطلباً لمرضاته، إذ ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً ﴾ ليصير عوضاً لإطعامنا لوجه الله الكريم، ﴿ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ ما لنا من الشكر والجزاء أمرٌ.

وكيف يتأتى منا طلب الشكر والجزاء، إذ قدرتنا على إطعامكم إنما هي بإقدار الله إيانا، وإعطاؤنا إنما هي من عطاياه.

وبالجملة ﴿ إِنَّا نَخَافُ ﴾ بطلب الأجر والجزاء ﴿ مِن ﴾ غضب ﴿ رَّبِّنَا ﴾ بنا ﴿ يَوْمًا ﴾ وأي يوم يوماً ﴿ عَبُوسًا ﴾ تعبس فيه مطلق الوجوه من شدة هوله، بل صارت ﴿ قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ في غاية الشدة والعبوسة، سيّما على أهل الرياء والسمعة، الطامعين بصدقاتهم الذكرَ الجميلَ والثناءَ الجزيلَ، مع أنهم إنما يُعطون من مال الله لعيال الله.

وبعدما أخلصوا لله وخافوا من عذابه ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الحكيمُ الحفيظُ ﴿ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ ﴾ أي فرفع عنهم شره، وأبدله لهم خيراً ﴿ وَلَقَّىٰهُمْ ﴾ أي لقى لهم يومهم ﴿ نَضْرَةً ﴾ طراوةً وصفاءً في وجوههم ﴿ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ وبهجةً في قلوبهم.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ ....

﴿وَ﴾ بعد ما فعلوا ما فعلوا خالصاً لوجه الله ﴿جَزَاهُم﴾ سبحانه ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ وحبسوا نفوسهم عن مشتهيات المنهيات والمحرمات، وعلى أداء الواجبات وإيثار الأموال والأرزاق المسوق نحوهم لطلب المرضاة ﴿جَنَّةً﴾ مصورةً من صالحات أعمالهم وحالاتهم ومقاماتهم، يتلذذون فيها باللذات الروحانية أبد الآباد ﴿وَ﴾ يلبسون فيها﴿حَرِيراً ﴿١٢﴾﴾ متخذاً من حلل الأسماء والصفات التي لا يتصور فيها الحول والخشونة أصلاً.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يعني مستظهرين فيها بالألطاف الإلهية، مستظلين بكنف حفظه وجواره، بحيث ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ أي حرارتها المؤذية لهم ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي البرودة المضرة، بل تعتدل فيها الهواء والأهواء؛ لتعديلهم الأخلاق والأعمال والأحوال.

﴿وَ﴾ ليس ظلال الجنة بعيدةٌ عنهم، بل كانت ﴿دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ الموعودة لهم من قبل الحق ﴿وَ﴾ لهم فيها ثمارٌ متجددةٌ متلونةٌ من أنواع المعارف والحقائق اللدنية المترتبة على أشجار الأسماء والصفات الإلهية التي اتصفوا بها وتخلقوا بمقتضاها، ولا تكون تلك الأشجار وأثمارها وأغصانها الكثيرة بعيدةٌ آبيةٌ عنهم بعد ما اتصفوا بها بل ﴿ذُلِّلَتْ﴾ وسُخِّرت ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها لهم ﴿تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ بحيث متى أرادوا، تلذذوا بها بلا ترددٍ، إذ كمالاتهم كلها حينئذٍ بالفعل بلا انتظارٍ لهم إياها وترقبٍ لها.

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ ....

﴿وَ﴾ لتكميلِ ترفههم وتنعمهم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ﴾ متخذةٍ ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ أي من فضة عقائدهم الصافية البيضاء الشفافة الخالصة عن مطلق الكدورات ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أباريق وكيزان لا عروة من شدة صفائها وجلائها، كأنها ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾ في الرقة، وأية قوارير:

﴿قَوَارِيرَا﴾ متخذةٍ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ من غاية صفائها وشفافها لا يُرى لها لونٌ ولا كونٌ، بحيث اشتبه أمرها عند الرائي، لذلك ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ بمقتضى ما راعوا في الاعتدال في الأطوار والأخلاق.

﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ هؤلاء المقرَّبون ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الأواني والأكواب ﴿كَأْسًا﴾ خمراً من خمور المحبة والمودة ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ أي كالزنجبيل في المساغ وسرعة الانحدار، يعني:

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ جاريةً بماء الحياة الأزلية الأبدية السرمدية ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ لهدايتها وإرشادها إلى مشرب التوحيد وبحر الوحدة الذاتية، كأنها تلقى وتلقن تلك العين المترشحة من بحر الحياة الأزلية الأبدية لأرباب العناية بقولها: سل أيها الطالب الحائر في بيداء الطلب سبيلاً إلى الوحدة الحقيقية الحقية.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ تأنيساً لهم وتصحيحاً ﴿وِلْدَانٌ﴾ حسانٌ مصورون من

مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ....

أعمالهم وأحوالهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون على صباحتهم وحسنهم بحيث ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ من صفاء ألوانهم، ومقبولية هياكلهم، وصباحة خدهم، ورشاقة قدهم، وانعكاس أشعة وجوههم من كمال اللطافة والطراوة والصفاء المفرط.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِذَا رَأَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ثَمَّ﴾ أي في الجنة ﴿رَأَيْتَ﴾ ما رأيت، وما أدراك ما رأيتَ، رأيتَ ﴿نَعِيمًا﴾ وأيّ نعيم، نعيماً لا يكتنه غوره وطوره ﴿وَمُلْكًا﴾ وأي مُلكٍ، مُلكاً ﴿كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ وسيعاً فسيحاً، لا يُدرك وسعته وقدره، ولا يكتنه طوره وغوره[1]، ومع ذلك:

﴿عَالِيَهُمْ﴾ أي يعلو عليهم فيها تعظيماً لهم وتكريماً ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ رقيق من الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ على لون الحياة؛ لأن حياتهم فيها سرمدية ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظٌ منه كذلك ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ﴾ متخذةً ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ تميماً لتنعمهم وترفههم فيها، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بعد ما تمكنوا في مقعد الصدق عند المليك المقتدر ﴿شَرَابًا﴾ من كأس المحبة ورحيق التوحيد والتحقيق ﴿طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ خالياً خالصاً عن شوب الثنوية وشين الكثرة مطلقاً، فسكروا منه، ولم يصحوا أبداً.

ثم قيل لهم من قبل الحق:

---

(١) في المخطوط (غرره).

إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ....

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ التي فزتم عليه الآن ﴿ كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾ موعوداً في مقابلة أعمالكم وأخلاقكم وأحوالكم ومعارفكم ومواجدكم التي أنتم عليها في النشأة الأولى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ الذي كنتم عليه في نشأة الاختبار ﴿مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ مُجَازاً عليه غير مضيَّعٍ مع زياداتٍ منا عليكم تفضلاً وامتناناً.

ثم لما جمع سبحانه جميع الفضائل والكمالات وعموم المعارف والمشاهدات والمكاشفات اللدنية في المرتبة الجامعة الختمية[1] المحمدية المحيطة على عموم المراتب والمناصب، خاطبهم سبحانه خطابَ امتنانٍ ورحمةٍ على وجه التعطف والتلطف فقال:

﴿ إِنَّا ﴾ بمقتضى فضلنا وجودنا ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييداً لك وتعظيماً لشأنك ﴿ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ الحاويَ لما في الكتب السالفة، المحتويَ لجميع الكمالات اللائقة لعموم الأنبياء والرسل المجتازين في سبيل التوحيد ﴿ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ مفرَّقاً منجَّماً على مقتضى الحكمة البالغة الباعثة على إنزالها حسب حاجتك إليها، وانكشافك بما فيها لتتدرج في سلوكك وشهودك.

وبعد ما سمعتَ ما سمعتَ من الكرامةِ والتعظيم:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ ولا تستعجل في نصرتك وظهورك على عموم أعدائك من جنود أهل التقليد والضلال، سيما كفار مكة خذلهم الله.

(١) في المخطوط (الحمية).

وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ
الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ....

﴿وَ﴾ بعد ما كوشفت بحقية الحق ووحدته واستقلاله في الوجود ومطلق الآثار ﴿لَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل التقليد وأصحاب الضلال أحداً سواءً كان ﴿ءَاثِمًا﴾ متناهيا في الفسوق والعصيان بحيث ينتهي إثمه إلى الكفر ﴿أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ لِنِعَم الله، مبالغاً في كفران نعمه ونسيان كرمه، بحيث ينتهي كفرانه إلى الكفر، أعاذنا الله وعموم عباده منهما.

﴿وَ﴾ بعد ما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي في عموم أوقاتك وحالاتك وداوِمْ على ذلك.

﴿وَمِنَ الَّيْلِ﴾ الموضوع للخلوة مع الله ودوام المراقبة معه ﴿فَاسْجُدْ لَهُۥ﴾ وتوجَّه نحوه توجهاً خالصاً مقارناً بكمال الخضوع والخشوع والتذلل التام ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ أي نزِّه ذاته عن جميع ما لا يليق بشأنه ﴿لَيْلًا﴾ أي في خلاله تسبيحاً ﴿طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ خالياً عن مطلق الشواغل، فارغ البال عن تشتت الآمال، هكذا دأب أصحاب الكمال وديدنة أصحاب الوجد، والحال.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أصحاب الضلال المنحرفين عن جادة الاعتدال ﴿يُحِبُّونَ﴾ اللذة ﴿الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي يتركون أمامهم وخلفهم بلا مبالاةٍ لهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ شديداً يشتدُّ الأمر فيه عليهم ويصعب، ومع

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ ....

ذلك ينكرون له ويكذبونه.

وكيف يذرونه وينكرونه مع أنا نخبر به، ونأمر بتصديقه؟!

إذ ﴿نَّحْنُ﴾ بمقتضى قدرتنا ﴿خَلَقْنَٰهُمْ﴾ وقدَّرنا وجودهم أولاً من أهون الأشياء وأخسِّها وأرذلِها ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ﴾ أي عدلنا أركانهم وجوارحهم، وأحكمنا مفاصلهم وأوصالهم، وبالجملة سويناهم أشخاصاً قوابل للتكليف؛ ليترتب عليهم الإيمان والتصديق بجميع المعتقدات الدينية ﴿وَ﴾ بعدما لم يؤمنوا، ولم يصدقوا عناداً ومكابرةً ﴿إِذَا شِئْنَا﴾ وتعلقَّ مشيئتُنا على إهلاكهم واستئصالهم أهلكناهم واستأصلناهم و ﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ في الخلقة وجميع لوازمها ﴿تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ حسناً بحيث يكون المبدل خيراً وأحسن وأكمل من المبدل منه.

وبالجملة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الآيات الدالة على تهذيب الأخلاق والأطوار ﴿تَذْكِرَةٌ ۖ﴾ ناشئةٌ من قبل الحق ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يتعظ به، أو يتذكر بما فيها ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أولاً ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ يعني شرع في مسالك القرب والوصول إلى الله، فتقرب نحوه بالمعاملات ثم بالأحوال والمقامات ثم بالمعارف والحقائق المنتهية إلى المكاشفات والمشاهدات المؤدية إلى الوصول والنهايات، وليس وراء الله مرمى ومنتهى.

﴿وَ﴾ لكن ﴿مَا تَشَآءُونَ﴾ أيها المتقربون إلى الله، السائرون نحوه

إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ
وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

حسب التوفيق والتيسير الإلهي ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الموفِّق لهم الموجِد المقدِّر لعموم أفعالهم وأعمالهم، المنجي لهم عن غياهب الإمكان وظلمات الخيالات والأوهام ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المطلعَ على استعدادات عباده ﴿ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بقابلياتهم اللائقة لفيضان الكشف والشهود ﴿حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ في تربيتهم وتكميلهم.

﴿ يُدْخِلُ ﴾ بمقتضى هدايته ولطفه ﴿ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ﴾ التي هي سعة وحدته ﴿وَ﴾ لكن ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الخارجين عن مقتضى الحدود الإلهية، المحرومين عن نظر العناية والتوفيق مطلقاً ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ لا عذابَ أشدَّ منه إيلاماً، وأفزع انتقاماً، وهو حرمانهم عن ساحة عزّ القبول.

نعوذ بك يا ذا القوة المتين.

خاتمة السورة

عليك أيها المريد المترصد لمشيئة الله وتيسيره وفَّقك الله على ما أملك وأعانك على إنجاحه: أن تفرغ همك، وتخلي قلبك عن الالتفات إلى الدنيا معرِضاً عن آمالها وأمانيها، متوجهاً إلى الآخرة وما فيها، متعرضاً لنفحات الحق، مستنشقاً من روائح روحه ورحمته، راجياً من سعة لطفه وجوده أن ييسر لك ويوفقك في عموم أوقاتك وحالاتك على ما هو خيرٌ لك في أولاك وأخراك، ويدفع عنك شرور بشريتك ومقتضيات بهيميتك وقواك.

وبالجملة: فاتخذه وكيلاً، وثق إليه، واجعله حسيباً وكفيلاً، إذ هو أعلم بما ينبغي لك منك، ويليق بحالك، فلك التفويض والتكلان، والأمر بيد الله الحكيم المستعان.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المرسلات

لا يخفى على من انكشف بوحدة الحق وانجذب[1] إلى مرتبة الكشف والشهود والانجلاء التام المسقِط لعموم العبارات والاعتبارات: أن الركون إليه سبحانه والانجذاب نحوه إنما يحصل بجذباتٍ إلهيةٍ ونفحاتٍ غيبيةٍ مهبةٍ من نفسات الرحمن من قبل يُمن عالم اللاهوت وحضرة الرحموت.

ولا شك أن الجذبات الإلهية متفاوتةٌ بتفاوت الاستعدادات والقابليات المترتبة على رتبة الأسماء والصفات:

فمنهم من جذبته العناية وأدركته النفحات والنسمات اللاهوتية كالبرق الخاطف فعصفن عليهم وأزيل عنهم ملابس الإمكان بالكلية، وأخرجنهم عن سجن الطبيعة والهيولى على الفور بلا تراخٍ ومهلةٍ.

ومنهم من نشرن عليهم هيناتٍ ليناتٍ، بحيث يستروحوا من هبوبها، ويستريحوا فيها، حتى يترسخ في نفوسهم آثارها فيتدرجون إليها ويتحنون نحوها متشوقين، فيتطرقون أثرها حتى وصلوا إلى ما وصلوا، بل اتصلوا.

ومنهم من يهببن عليهم ويفرقن[2] في نفوسهم بين الحق والباطل

---

(١) في المخطوط (واتخذت).

(٢) في المخطوط (من يهبن لهم ويذقن).

والهداية والضلال على سبيل التدريج، فيوقعن بينهم الفتن[١] والبليات وأنواع التجارب والاختبارات، حتى يتفطن البعض منهم ويتنبه، فيكون من أصحاب الجنة، والبعض الآخر لم يتفطن ولم يتنبه فيكون من أصحاب النار.

ومنهم من يلقين لهم بعد هبوبهن عليهم ذِكراً من عالم اللاهوت، مجرداً عن الفكر والفطنة، فكيف عن التحنن والتشوق، فكيف عن السيران والطيران.

فالأولى: إشارةٌ إلى طريقه الشطَّار الطائرين إلى الله كالبرق الخاطف.

والثانية: إلى طريقه الأبرار أرباب المواجيد والواردات والأذواق.

والثالثة: على طريق الأخيار وأصحاب المعاملات والاستدلالات.

والرابعة: إلى طريقه العوام القانعين بالذكر والتكرار بلا وجدانٍ وفطنةٍ وذوقٍ ومعرفةٍ.

لذلك قال سبحانه في شأن العوام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [٧- الأعراف:١٧٩].

ثم لما أراد سبحانه أن يشير إلى هذه الطرق، أقسم بحاملي[٢] وحيه ونفسات رحمته الفائضة منه سبحانه على عموم عباده على الدوام؛ ليستمدوا منه ويتطرقوا نحوه متذكرين لمبدئهم ومعادهم، حسب استعداداتهم وقابلياتهم، فقال بعد ما تيمن:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المظهِر لعموم عباده بامتداد أظلاله المترتبة على أوصافه الذاتية وأسمائه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بإفاضة نسمات روحه ونفسات رحمته ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليهم يوصلهم إلى فضاء وحدته بإرسال شمائم روحه وراحته.

---

(١) في المخطوط (العين).

(٢) في المخطوط (بحوامل).

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ ....

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ الْمُرْسَلَاتِ﴾ أي رياح الجذبات المهبَّة من قِبل عالم اللاهوت لاسترواح أرواح سكان عالم الناسوت وأشباحهم ﴿عُرْفًا ۝١﴾ للتعارف والائتلاف الواقع بينهم بحسب الحقيقة.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ النازعات ملابس عالم الناسوت وثياب الإمكان عن أرواح المحبين المنجذبين نحو الحق ﴿عَصْفًا ۝٢﴾ سريعاً شديداً، تخليصاً لهم عن سجن الطبيعة تفريجاً وترويجاً.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾ المنتشرات على أراضي استعدادت أرباب الطلب والإرادات، المتوجهين نحو الحق بعزيمةٍ خالصةٍ ﴿نَشْرًا ۝٣﴾ ليِّناً هيِّناً بحيث يوقظهم عن نوم الغفلة، ويخلصهم عن مضيق الضلال، ويرشدهم إلى فضاء الوصال.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ﴾ الواصلات إلى بقعة الإمكان من قِبل الرحمن، ليفصلن ويفرقن لساكنيها بين الحق والباطل، والحرام والحلال، والهداية والضلال الواقعة في سلوك طريق الحق وسبيل توحيده ﴿فَرْقًا ۝٤﴾ بيِّناً واضحاً؛ ليتنبهوا إلى مبدئهم ومعادهم.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ الملقنات لحوامل أثقال الطبيعة والأركان، المسجونين في سجن الإمكان، المقيدين بسلاسل الزمان وأغلال المكان ﴿ذِكْرًا ۝٥﴾ حسناً من عالم اللاهوت، يُجرونه على ألسنتهم؛ لعلهم يتذكرون بها مبدأهم

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ﴾ ....

الأصلي ومنشأهم الحقيقي؛ ليكون لهم ذكرهم هذا:

﴿عُذۡرًا﴾ يزيل ويمحو سيئات عالم الناسوت وآثام لوازم بقعة الإمكان، بعدما تنبهوا بها إلى عالم اللاهوت، طرقوا نحوه مهاجرين من بقعة الناسوت ﴿أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ ينذرهم عن نيران الإمكان، وسعير الطرد والخذلان بعد ما تذكروا نعيم عالم اللاهوت وفضاء الجبروت، يعني وبحق هذه المقسمات العظام المكرمات عند الله:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلَّفون من قِبل الحق في يوم العرض والجزاء ﴿لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ محققٌ وقعه وثبوته بلا ريبٍ وترددٍ.

وبعد ما وقعت الواقعة وقامت القيامة:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ أي الهويات المترتبة في عالم الكون والفساد ﴿طُمِسَتۡ ۝٨﴾ انمحقت وانمحت وغابت وتلاشت عند ظهور شمس الذات.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾ أي نظام عالم الكون والفساد ﴿فُرِجَتۡ ۝٩﴾ وانفصمت وتلاشت.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ﴾ الرواسي التي هي أوتاد الأرض، وهي في الحقيقة عبارةٌ عن الهياكل المحسوسة في عالم الكون والفساد ﴿نُسِفَتۡ ۝١٠﴾ قُلعت عن أماكنها، ثم ذُرِيت برياح الفناء.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ﴾ المبعوثون للإرشاد والتكميل والإشهاد على صلاح العباد

أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ

وسدادهم ﴿أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾﴾ ووقتت، أي عُينَ لهم وقت الشهادة على أممهم، بعدما أبهمَ عليهم وقتَها في النشأة الأولى، كأنه قيل لهم من قبل الحق:

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾﴾ وأُخرت شهادتهم، وأجيب أيضاً من جانبه سبحانه:

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾﴾ أبهمَه سبحانه تهويلاً وتفخيماً. وبالجملة :

﴿وَيۡلٞ﴾ وهلاكٌ مؤبدٌ مستمرٌ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي في يوم الفصل ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ به، المنكرين له في النشأة الأولى، سيما بعد إخبار الرسل والكتب، وكيف يكذِّبونه وينكرون عليه أولئك الضالون المكذبون، مع أنهم قد سمعوا حال المكذِّبين المنكرِين الماضين.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ﴾ المكذِّبين ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ولم نستأصلهم بسبب إنكارهم وتكذيبهم بهذا اليوم؟!!

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي نحن نُتبع ونُعقّب إهلاك الأولين بإهلاك الآخرين، كقوم شعيبٍ وموسى وعيسى وغيرهم أيضاً، بسبب تكذيب هذا اليوم، وتكذيب من أَخبر به من الكتب والرسل. وبالجملة:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما فعلنا بالمكذِّبين السابقين والآخرِين اللاحقين

نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾
فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ....

﴿نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي بعموم هؤلاء المجرمين الحاضرين، المكذِّبين على رسول الله ﷺ وآياته النازلة عليه، لذلك:

﴿وَيۡلٞ﴾ عظيمٌ ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وكيف تكذِّبون أيها المكذبون بما أمرتم بتصديقه من لدنَّا مع أنكم قد عرفتم قدرتنا عليه وعلى أمثاله.

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم﴾ أيها المجبولون على النسيان ﴿مِّن مَّآءٖ﴾ مسترذلٍ مستنزلٍ ﴿مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ في غاية المهانة والخباثة، وبعد نزوله:

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ مستقراً ﴿فِي قَرَارٖ﴾ يعني مقرّ الرحم ﴿مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ مستقرٍ ﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾﴾ وأجلٍ معينٍ، قدَّره الله العليم الحكيم للولادة وتسوية الخلق والخروج إلى عالم الشهادة. وبالجملة:

﴿فَقَدَرۡنَا﴾ على خلقكم من النطفة المهينة المكينة في ظلمة الرحم، وعلى إخراجكم منها إلى فضاء العالم وتربيتكم فيها، إلى أن صار كلٌّ منكم شخصاً، ذا رأيٍ ورشدٍ، قابلاً لحمل التكاليف المثمِرة للمعرفة والإيمان ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ المقتدرون نحن على إخراجكم من قبوركم أحياءً كما كنتم، في يوم البعث والجزاء، فلم تكذِّبون به أيها المكذِّبون؟!

مع أنه ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بقدرتنا على الإعادة.

وكيف تنكرون قدرتنا الكاملة الشاملة على مطلق المقدورات؟!

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم
مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾
ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ....

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ اليابسة ﴿كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ جامعةً كافيةً ضامةً.

﴿أَحْيَآءً﴾ مرةً ﴿وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾ أخرى، أي كيف تكفُّ وتجمعُ الأحياء والأموات من الإنسان على التعاقب والتوالي، تارةً فيها وتارةً عليها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ وعليها من نوع الإنسان ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أوتاداً وأقطاباً ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ عالياتٍ متعالياتٍ، عن أن يُنال بكنهِ معارفهم وشهوداتهم إدراك أحدٍ ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم﴾ من لدنيَّات أولئك الأوتاد المتعالية أعذار أطوارهم العالية عن إدراك الأنام وإفهامهم ﴿مَّآءً﴾ حياتاً ﴿فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ سائغاً شرابُه لأولي العزائم الصحيحة والمشارب الصافية. وبالجملة:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ لقدرتنا واقتدارنا على إظهار هذه البدائع التي كلَّت دونها وصفُ الألسن[1] والأحلام، ودركُ العقول والأفهام.

وكيف يكذِّبونه إذا عاينوه؟! ويقال لهم حينئذٍ زجراً عليهم وتوبيخاً:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ وادخلوا أيها المكذِّبون ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ من العذاب والنكال، وأنواع العقوبات والمكروهات.

ثم قيل لهم تأكيداً وتشديداً على توبيخهم وتقريعهم:

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ وأي ظلٍ، ظلٌ ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ منشعبةٍ من القوى

(١) في المخطوط (الأنس).

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ
﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.....................

البهيمية الوهمية الشهوية والغضبية، إذ بها تُقترف المعاصي وتُكتسب جميع الآثام الموجبة لدخول النار.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ إذ لا يدفع ضرر الحرارة كسائر الأظلال ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ويدفع ﴿مِنَ﴾ حرِّ ﴿ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ الجهنمية وإحراق النيران، وكيف يمكن أن يدفع حر جهنم؟!

﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم الطرد والخذلان وجحيم اللعن والحرمان ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ وهي ما تطايرت من النار حين التهابها وسوادتها، وأي شررٍ، كلُّ شررٍ ﴿كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ الرفيع في الكبر وعظم المقدار.

﴿كَأَنَّهُۥ﴾ في التتابع والتوالي ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ إبلٌ متسلسلةٌ مترادفةٌ متتابعةٌ ﴿صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ لونُها، شبَّهها بها في عظم أجرامها وتتابعها ولونها.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بتكذيبهم بهذا العذاب الهائل بعد ما أُمروا بتصديقه على ألسنة الرسل والكتب.

وبعدما ساقهم الخزنة إليها بالزجر التام والعنف المفرط، فأخذوا يطرحونهم إليها مهانين صاغرين، وهم يتضرعون صائحين فزعين، قيل لهم حينئذٍ:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إذ نطقهم كاللَّانُطْق في عالم[1] الدفع والنفع.

---

(١) في المخطوط (في عدم النفع).

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ....

﴿وَلَا يُؤْذَنُ﴾ حينئذٍ ﴿لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إذ لا يُسمع منهم العذر، لانقضاء نشأة التلافي والتدارك بالأعذار والتوبة.

وبالجملة ﴿وَيْلٌ﴾ عظيمٌ ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وأي ويلٍ، ويلٌ لا يُكتنهُ غوره وطوره وشدة هوله.

ثم قال لهم سبحانه حينئذٍ توبيخاً وتقريعاً:

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل، والمسيء والمحسن ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي جمعنا الآخرين والأولين، والسابقين واللاحقين فيه.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المكلَّفون ﴿كَيْدٌ﴾ ومكرٌ تقاومون به معي وتدفعون به عنكم عذابي ﴿فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ وامكروني إن استطعتم.

وإلا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ حتماً لأنه من أين يتأتى بينهم المكر والكيد، والحيلة والخداع مع الله في التخلص من العذاب، سيما في تلك الحالة؟! وبالجملة سوقوا نحو النار وطُرحوا فيها مهانين، وعُذِّبوا بها صاغرين خالدين.

ثم أردف سبحانه وعيد المكذبين بوعد المصدقين فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من الشرك والمعاصي، المصدِّقين بيوم الدين، مستغرقون يومئذٍ في أنواع التنعم والترفه ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ ممدودةٍ في ظلال البساتين ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ جاريةٍ فيها.

وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ....

﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ كثيرةٍ ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾. ويقال لهم حينئذٍ تلطفاً وتكريماً:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ لكم مريئاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية المثمِرة لتلك الحالات العليّة والمقامات السنيّة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما أنتم عليه من الترفه والتنعم ﴿نَجْزِى﴾ عموم ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ المخلِصين في الأعمال والأخلاق، الراضين بما جرى عليهم من مقتضيات القضاء. وبالجملة:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾، لكم هذا النعيم المقيم، ولهم ذاك العذاب الأليم.

ثم قيل للمكذبين من قبل الحق زجراً عليهم وتوبيخاً لهم بما اختاروا اللذة الفانية على اللذة الباقية على سبيل الفرض والتقدير، كأنهم أُمروا به في النشأة الأولى:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ بالأمتعة الدنياوية زمناً ﴿قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ بالجرائم العظيمة، مؤاخذون عليها في النشأة الأخرى بشؤم تكذيبكم بما أُمرتم بتصديقه وبالجملة:

﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إذ عرضوا أنفسهم على العذاب المؤبّد المخلّد.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَ﴾ كيف لا يؤاخذون أولئك المعاندون المكابرون، كانوا من كمال استكبارهم وعتوهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ إمحاضاً للنصح: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ ﴾ تواضعوا لأمر الله، واخضعوا لحكمه، وانقادوا وصلُّوا نحوه متذلِّلين ﴿ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من غاية استكبارهم واستعظامهم، ولا يمتثلون لحكم الله وأمرِ رسوله، ولا يطيعون لهم تعنتاً وعناداً، بل يكذبونهم ويستهزئون معهم، لذلك يحل عليهم:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ المستهزئين مع رسل الله، الظاهرين عليهم بالإشارة والاستكبار، المتكبرين بما نزلَ عليهم من الكتب المبيِّنة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين.

وبعد ما لم يؤمنوا بهذا الكتاب المبِين المبيِّن لطريق الحق ومنهج الصدق والصواب

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي بعدَ القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أولئك المنكرون المعاندون المسرفون.

جعلنا الله ممن آمن به، وامتثل بما فيه، وتفطن برموزه وإشاراته، بمنِّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي القاصد لسلوك طريق الهداية والتوفيق العازم على التحقق والتمكن في مقعد صدق التوحيد والتحقيق، يسَّر الله عليك مبتغاك: أن تتمسكَ بحبل المتين القرآني، وتتشبثَ بأذيال هدايته وإرشاده، وتمتثلَ بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام الموردة فيه، وتتفطنَ بما رُمزَ له وأُشير إليه من المعارف والحقائق المصفِّية لسرك على الالتفات إلى ما سوى الحق، المعدَّة لقلبك لفيضان الكشف والشهود، فلك أن تتبتل على الله حسب استعدادك، وتتخلق بالأخلاق المحمدية التي هي القرآن.

والتوفيق بيد الله والهداية عنده، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة النبأ

لا يخفى على من انكشف له سرائر التكاليف الإلهية وحِكم الأحكام المورَدة من لدنه ومصالحِ الأوامر والنواهي الناشئة من قدس ذاته: أن مقتضى الألوهية والربوبية تربيةَ المربوب وتأديبه بتحميل المتاعب والمشاق المانعة عن مقتضيات الهوى ومتابعة شياطين الأوهام والخيالات الباطلة التي هي من جنود الأمَّارة بالسوء، وبعد ما لم يمتنع ولم ينزجر عن مقتضيات القوى الطبيعية، ولم يأت بالطاعات والعبادات المكلَّفة المأمورة له، لم يعتدل على صراط العدالة الإلهية، ولم يستقم على الطريق المستقيم الموصِل إلى جنة النعيم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يعذبه بالعذاب الأليم ويدخله في نار الجحيم أبداً مؤبداً خالداً مخلداً.

لذلك وضع سبحانه بمقتضى حِكمته نشأتين:

نشأة الاختبار والإبتلاء، ونشأة الانتقال والجزاء، فجعل الأولى منزلَ العبور والاعتبار، والأخرى دارَ الثبوت والقرار.

فالعاقل العارف لا بد وأن يؤمن ويوقِن بكلتيهما[1]، ويستعد في أولاهما لأخراهما، ومن اغتر بالأولى وشغل بها عن الأخرى فقد لحق بالأخسرين

(١) في المخطوط (بكليها).

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ....

أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وبالجملة: أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، فحبطت أعمالهم، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً؛ لكمال ظهور النشأة الأخرى، ووضوح براهين المرتابين وقوعها وقيامها حيث يتساءلون ويتقاولون في ما بينهم بخبر وقوعها وقيامها، ويتداولونها على سبيل المراء والاستهزاء فقال سبحانه بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب النشأتين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ للكل حسب النشأة الأولى ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾لهم أيضاً حسب النشأة الأخرى.

﴿عَمَّ ﴾ يعني عن ما وعن أيّ شيءٍ وأمرٍ ﴿ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾ ويتقاولون في ما بينهم مراءً ومجادلةً.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾ أي يختلفون في قيام الساعة الموعودة لتنقيد أعمال العباد والجزاء عليهم على وِفقها، مع أن أمره أظهر من أن يُشكَّ فيه ويُسأل عنه ويُستهزأ به، ويُختلف فيه وفي وقوعه.

﴿كَلَّا ﴾ أي من أين يتأتى لهم إنكاره والتساؤل فيه على وجه المراء؟! مع أنهم ﴿ سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ عن قريب بل قربه كلمح البصر بل هو أقرب.

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ حين ألمَّ عليهم بغتة، وهم لا يشعرون.

وبالجملة من أين يتأتى لهم إنكار يوم البعث والجزاء، هل ينكرون

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ....

قدرتنا الكاملة على أمثاله؟!!

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ لهم ممهَّدة مبسوطةً ينتشرون عليه ويستريحون؟.

﴿وَ﴾ لم نجعل ﴿ ٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ عليها تقريراً لها وتثبيتاً؟.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي قدَّرنا أشباحكم أيها المكلفون ﴿ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾ أصنافاً، ذكراً وأنثى، لتتآنسوا وتتناسلوا؟.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾ في الليالي ﴿سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ قطعاً عن الإحساس والحركة؛ ليحصل إرخاء الأعصاب والعضلات لتستريحوا، وزالت كلال القوى وفتورها، فتشتد[1] بالاستراحة وتشتغل بأفعالها في النهار بجرأةٍ تامة وقوةٍ كاملة.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ لكم ﴿ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ غطاًء وغشاءً تستترون فيه، وتختفون به فيما فيه الإخفاء مطلوبكم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ وقتاً تطلبون فيه ما تعيشون من حوائجكم ومطعوماتكم وملبوساتكم.

﴿وَبَنَيْنَا﴾ بكمال قدرتنا ومتانة حكمتنا ﴿فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبعَ سمواتٍ طباقاً ﴿شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ أقوياء محكمات مستحكمات، لا يتأثرن بمر الدهور

---

(١) في المخطوط (فتشددت).

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ....

وكرِّ الإعصار كسائر الأبنية.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ في خلالها ﴿سِرَاجًا﴾ مضيئاً متلألأً متشعشعاً ﴿وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ حاراً سخيناً في غاية السخونة عند الانعكاس؛ لتنضج ما تحتاجون إليه في أمور معاشكم.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾ أيضاً تتميماً لتربيتكم وترتيب معيشتكم ﴿مِنَ﴾ السحبِ ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ بالرياح ﴿مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ مطراً كثير الانصباب متتالي القطر.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِ﴾ أي بالماء ﴿حَبًّا﴾ تقتاتون به ﴿وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ تعلف به مواشيكم.

﴿وَجَنَّاتٍ﴾ منتزهاتٍ لكم وبساتين ﴿أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ ملتفات أشجارُها وثمارُها من كثرتها وكثافتها.

كل ذلك من المقدورات التي يتفطن منها العاقل المنصف على وقوع الحشر والنشر وجميع الأمور الغيبية الموعودة في يوم الجزاء، بل جميع المقدورات الداخلة تحت قبضة القدرة الإلهية، إذ نسبة القدرة الكاملة الإلهية إلى هذه المقدورات وأمثالها، وإلى الأمور الموعودة فيها على السواء والإرادة الكاملة الإلهية ترجّح كلاً منها عند حلول ما قدّر الله له من الوقت والأجل.

وبالجملة من ترقى إدراكه عن مضيق الأُلف، وخرق(١) حجبَ الرسوم

(١) في المخطوط (وحرق).

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ....

والعادات، وخلصَ من ظلمات الأوهام والخيالات العائقة عن الوصول إلى وحدة الذات التي هي منبع عموم الخيرات، ومنشأ جميع الكمالات، انكشف له ولاح عنده أنّ أمر النشأة الأولى والأخرى وأمثالهما، بل أضعافهما وآلافهما في جنب القدرة الغالبة الإلهية سهلٌ يسيرٌ، لكن المحجوبَ المحبوسَ في عالم المحسوس المقيَّد بعقال العقل المبهوتِ المشوب بالوهم المنحوس والخيال المزور المنكوس، يتخيل حصر المظاهر والمجالي الإلهية بسراب عالم الطبيعة والهيولى.

لذلك وقع في ما وقع من البلوى، وزلت نعله في سبيل القرب من المولى.

هب لنا من لدنك رحمة تنجينا عن أمثال هذه المهالك إنك أنت الوهاب.

ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ الفارقِ بين احتجاب أصحاب الحيرة والضلال، وأرباب العناية والوصال ﴿كَانَ ﴾ له ﴿ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ وقتاً معيناً في حضرة علم الله، مقدَّراً في لوح قضائه، لم يُطْلِع أحداً عليه وعلى تعيينه، بل أخبرهم بأمَاراته وعلاماته.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿يَوْمَ ﴾ أي يوم إذ حلّ وقت يوم الفصل وقيام الساعة ﴿ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ النفخةَ الأولى لبعث الموتى، وإذا وصل لهم ذلك الصدى، فيخرجون

فَيَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾

من قبورهم حيارى سكارى مبهوتين، ثم ينفخ فيه ثانياً للحشر ﴿ فَيَأْتُونَ ﴾ المحشر ﴿ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ زمراً زمراً، فرقاً فرقاً.

﴿ وَ ﴾ يومئذ ﴿ فُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ أي خُرقت وشُقَّت ﴿ فَكَانَتْ ﴾ الخرق والشقوق لها ﴿ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ عن وجه الأرض وتحرَّكتْ فطارت أجزاؤها كالهباء نحو الهواء ﴿ فَكَانَتْ ﴾ أشكالها وهيئاتها ﴿ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي كالسراب يُرى على صورة الجبال، ولا حقيقة لها كما هي الآن عند العارف المكاشف.

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ يومئذ ﴿ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾ مرصداً ومصيراً لعموم العباد، يعبُرها أهل الجنة على تفاوت سرعة وبطء، مترتباً على تفاوت أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم، منهم من لا يلتفت نحوها ولا يدركها أين هي وإن عبرها، ومنهم من يعبرها كالبرق الخاطف، ثم الأمثلُ الأمثلُ، فينجون من غوائلها، ويسقط فيها أهل النار، ويُبتلون بأغلالها وسلاسلها، فتصير:

﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ المصرِّين على كفرهم وطغيانهم ﴿ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ مرجعاً ومأوى، لا يخرجون منها، بل يكونون:

﴿ لَّٰبِثِينَ ﴾ ماكثين ﴿ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وأي أحقابٍ، أحقاباً لا كأحقاب الدنيا، بل لا نهاية لها، ولا غاية لحدها، فذكرُها كنايةٌ عن عدم نهايتها، وهم

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ ....

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أي في جهنم البعد والحرمان ﴿ بَرْدًا﴾ لحرمانهم عن لذة برد اليقين في النشأة الأولى ﴿ وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾ لأنهم لم يشربوا في النشأة الأولى من زلال الإيمان شربةً، ولا من رحيق العرفان جرعةً، لذلك لم يشربوا في النشأة الأخرى.

﴿ إِلَّا حَمِيمًا﴾ ماءً حاراً سُخن بنيران غضبهم وشهواتهم، بحيث يقطع أمعاءهم من شدة حرارته ﴿ وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ صديداً يسيل من جراحات أهل النار، بدل ما يأكلون ويشربون من أموال اليتامى والمظلومين ظلماً. وبالجملة جوزوا فيها﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ موافقاً مطابقاً لأعمالهم التي أتوا بها في دار الدنيا، وبالجملة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ حين يمَّمُوا على المعاصي، وعزموا على الآثام ﴿ لَا يَرْجُونَ ﴾ ولا يأملون ﴿ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ ولا يخافون عذاباً.

﴿وَ﴾ لهذا ﴿ كَذَّبُوا۟ ﴾ بآياتنا الدالة على كمال قدرتنا واقتدارنا على وجوه الإنعام والانتقام، وعلى رسلنا المنزلة إليهم بتلك الآيات ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ تكذيباً بليغاً وإنكاراً شديداً، إلى حيث يستهزئون بالآيات والرسل.

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ يعني وهم، وإن بالغوا في التكذيب والعناد، فصَّلنا عليهم أعمالهَم، وأحصينا لهم جميع خصائلهم المذمومة في صحفِ أعمالهم، سيحاسبون عليها على التفصيل، ويجازَون بمقتضاها.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾
وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ ....

وبعد ما يحاسبون ويؤاخذون، يقال لهم زجراً عليهم وتوبيخاً:

﴿فَذُوقُواْ﴾ أيها المسرفون المفرطون ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ بأعمالكم وتكذيبكم ﴿إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ فوق العذاب.

في الحديث صلوت الله على قائله: «هَذِهِ الآيَةُ أَشَدُّ مَا فِي القُرْآنِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ»[1].

ثم أردف سبحانه بوعيدهم وعدَ المؤمنين تشديداً لعذابهم وتأكيداً:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين المتحفظين نفوسَهم عن محارم الله خوفاً من عذاب الله ورجاءً من فضله ﴿مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾ مَخلصاً ونجاةً من جميع المكاره اللاحقة للكفار والعصاة.

﴿حَدَآئِقَ﴾ ذات بهجة ونضارة ونزاهة ﴿وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ.

﴿وَ﴾ إن لهم فيها أزواجاً ﴿كَوَاعِبَ﴾ نواهدَ استدارة ثديهن مثل الرمان ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ أبكاراً، لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جانٌ.

﴿وَكَأْسًا﴾ من خمور المحبة الإلهية ﴿دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ ملآناً.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي [٣١/ ١٨ سورة النبأ:٣٠]، تفسير أبي السعود [٩/ ٩٢ سورة النبأ:٣٠].

وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ ....

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾ أي في الجنة عند شرب خمور المحبة ﴿لَغۡوٗا﴾ فضولاً من الكلام ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾﴾ أي مكاذبةً يكذِّب بعضهم بعضاً، كما يقع بين شاربي شراب الدنيا، وإنما يجازون بما يجازون:

﴿جَزَآءٗ﴾ ناشئاً ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَطَآءً﴾ منه إياهم تفضلاً عليهم وإحساناً، إذ لا يجب عليه سبحانه شيء ﴿حِسَابٗا ﴿٣٦﴾﴾ كافياً وافياً لا يُنقصون ولا ينتظرون.

وكيف لا يتفضل سبحانه على أوليائه مع كونه﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: ﴿رَبُّ﴾] أي مربي العلويات والسفليات ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من الممتزجات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [السياق يدل على أن التفسير جرى على قراءة نافع وابن كثير وغيرهما: ﴿الرَّحْمَنُ﴾] المستوي على عروش الكل بالرحمة العامة والاستيلاء التام والسلطنة القاهرة والبسطة الغالبة بالإرادة والاختيار بحيث ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ ولا يقدرون أي أهل السموات والأرض ﴿مِنۡهُ﴾ سبحانه ﴿خِطَابٗا ﴿٣٧﴾﴾ أي لا يسعُ لهم أن يخاطبوه، ويطالبوا منه شيئاً من زيادةِ ثوابٍ ونقصِ عقابٍ، بل هو بذاته فعّال لكل ما يريد من مقتضيات أسمائه وصفاته، بالإرادة والاختيار، لا يسئل عن فعله، إنه حكيم حميد.

وكيف يملك ويقدر خطابه سبحانه هؤلاء الأظلال الهلكى في حدود

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا
﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ....

ذواتهم. مع أنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ أي الوجودات الإضافية الفائضة على هياكل الهويات من أشعة نور الوجود المطلق ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي الأسماء والصفات الإلهية المجرَّدات عن التعليقات مطلقاً ﴿صَفًّا﴾ صافِّين مصطفِّين ساكتين صامتين من كمال دهشتهم عن سطوة سلطنة الذات القاهرة الغالبة ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ حينئذٍ، ولا يقدرون على التفوه بالحال أو المقال ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالشفاعة والسؤال، فتكلم بإذنه ﴿وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ مرضياً عند الله مستجاباً.

وبالجملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ﴾ أي يومُ الفصل والقيامة هو اليوم ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الكائن وقوعُه بلا خلف ولا ريبٍ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يأمنَ من فتنته، ويخلصَ من عذابه ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وأخذَ في النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾ مرجعاً ومنقلباً يتوجه إليه، ويتحنن نحوه متقرباً بصوالح الأعمال ومحاسن الأخلاق والأطوار.

وبالجملة ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾ أيها المعرِضون عن الله، المنصرفون عن طاعاته وعباداته ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سيلحقكم بغتةً، وأنتم لا تشعرون بأمَاراته ومقدماته ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ ويرى جميع ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ خيراً كان أو شراً، نفعاً كان أو ضراً، ﴿وَ﴾ بعد ما رأى الكل يومئذ ما رأى من المصالح والمقابح

﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾

الصادرة منه، الجارية عليه ﴿يَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ الرائي قوابح أفعاله وفواسد أعماله، متأسفاً متحسراً متمنياً هلاكه على سبيل المبالغة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ لم أُخلق، ولم أُكلَّف حتى لا أستحق هذا الويلَ والثبور.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الرحيم الغفور.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي أن تتزود ليوم الجزاء بالتقوى عن محارم الله والاجتناب عن منهياته والامتثال بأوامره والتخلق بأخلاقه، حتى لا تستحي من الله في يوم الجزاء ولا تتمنى مقتك وهلاكك مثل مَن كفر وعصى.

فلك أن تلازم على أداء الواجبات والمستحبات والمسنونات من الصلوات والزكوات وأنواع الطاعات، والتقرب نحوه بالنوافل من الطاعات والصلوات والصدقات والخدمة بالجوارح والآلات لعموم عباد الله، والسعي إلى مطلق الخيرات والمبرات، والاجتهاد في طريق الحسنات وترك السيئات ومطلق المنكرات، حتى تتخلص من كؤود العقبات، وتصل إلى روضات الجنات، وتفوز بالفوز بالسعادات وأنواع الكرامات.

جعلنا الله من أرباب الهداية والتوفيق، ويسّر لنا الوصولَ إلى مقر التوحيد والتحقيق، بمنِّه وجوده.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة النازعات

لا يخفى على السالكين المندرجين عن مضيق الطبيعة نحو فضاء الحقيقة مهاجراً من بقعة الإمكان ولوازمها نحو الوجوب الذاتي: أن التخلص والنجاة من سلاسل الأماني وأغلال الآمال مطلقاً لا يتيسر إلا بجواذب الحق ووحيه المفوِّض من عنده على أسمائه وصفاته الفعالة في عالم الكون والفساد، الموسومين المتسمين بالملائكة النازعات المخلِّصات للأرواح البشرية التي هي من جنود عالم اللاهوت المسجونة في مضيق الناسوت في حصون الهويات الإمكانية وقلائع الطبائع والأركان.

فبعضهم بعد ما هبطوا إليها وتوطنوا فيها نسوا موطنهم الأصلي ومنزلهم الحقيقي، وبعضهم صاروا محبوسين مسجونين متذكرين الموطن الأصلي، راجين الخلاص عن ورطة الهلاك، وبعضهم مترددون، وبعضهم متحركون مضطربون للخروج، ولا يتأتى لهم.

ولما كان حالهم في سجن الطبيعة وعالم الإمكان هكذا، وكَّلَ عليهم سبحانه عنايةً منه وفضلاً نوازعَ نازلة من عالم الجبروت حسب قيوداتهم التي كانوا عليها حتى يخلصوهم عن مضيق الناسوت، ويوصلوهم إلى فضاء اللاهوت.

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ٣﴾ ....

وأقسم سبحانه بحق هذه النوازع العظيمة الشؤون لثبوت يوم البعث والجزاء الذي انقهرت وانعدمت عند قيامه وظهوره سرابُ عالم الناسوت مطلقاً؛ ليرتدع المنكرون عن إنكاره، وينزجر الملحدون عن الجحود فيه، فقال بعد التيمن:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المقدِّر لأمور عباده حسب ما اقتضته حكمته ومصلحته ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم في النشأة الأولى، ينبههم عن سِنَة[1] الغفلة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ في النشأة الأخرى يخلصهم عن سجن الطبيعة.

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ المخلِّصات أرواح عموم العباد عن محابس الطبائع والأركان ﴿غَرْقًا ١﴾ لاستغراقهم في لوازم الناسوت ومقتضياتها، المغشية صفاء عالم اللاهوت.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ المنزِعات المخرِجات لنفوس أرباب المحبة والولاء، المتشوقين إلى عالم العماء وفضاء اللاهوت ﴿نَشْطًا ٢﴾ رفقاً ولطفاً لكمال تحننهم وشوقهم إلى الخلاص.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ المخرِجات أرواح الأبرار من أشباحهم، هيناتٍ ليناتٍ، يقبضون رفقاً، ثم يمهلون حتى يستريح، ثم يقبضون، هكذا إلى أن يخلصوهم، كالسابح في الماء يتحرك، ثم يستريح، ثم يتحرك ﴿سَبْحًا ٣﴾ لكونهم سابحين في بحر الحيرة حتى وصلوا إلى بحر اليقين.

(١) في المخطوط (سعة).

فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ....

﴿فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ﴾ أي النفوس الفانية في الله، الباقية ببقائه، المبادرة إلى الخروج قبل نزول النازعات ﴿سَبْقًا ﴿٤﴾﴾ لكمال شوقهم وانبعاثهم، وتجرُّدِهم عن ملابس عالم الناسوت، وانخلاعهم عن مقتضيات الطبيعة والأركان قبل حلول الأجل وهجوم المخرِجات المخلِّصات.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ الموكَّلات على تدابير عموم المظاهر من الأرزاق والآجال وجميع الأمور الجارية في عالم الكون والفساد ﴿ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ لكونهم مأمورين بها، موكَّلين عليها بمقتضى حكمة القدير العليم، يعني وحقِّ هذه الحوامل العظام والموكِّلات الكرام، لتبعثنّ من قبوركم، ولتحاسبنّ على أعمالكم أيها المكلفون. اذكروا:

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾ المتقررة الساكنة التي لا حركة لها أصلاً كالأرض وسائر الجمادات، وبعد تحرك هؤلاء الجوامد

﴿ تَتْبَعُهَا﴾ في الحركة والاضطراب والاندكاك ﴿ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ أي العلويات السائرة المتحركة، حيث تتشقق السموات، وتنتثر الكواكب، وبالجملة تختلط العلويات بالسفليات، وتتمازجان بحيث لا علوّ ولا سفل.

ومن شدة الهول ونهاية الفزع﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ قلقةٌ حائرةٌ شديدةُ الاضطراب.

﴿ أَبْصَـٰرُهَا﴾ أي أبصار أصحاب القلوب حينئذٍ ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ شاخصةٌ

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ....

ذليلةٌ من شدة الخوف والهول، مع أن هؤلاء الشاخصين الواجفين[1] كانوا ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا﴾ في النشأة الأولى حين أخبرهم الرسل بالبعث والحشر على سبيل الاستبعاد والإنكار: ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ أي إلى الحالة التي كنا عليها، يعني أنبعث أحياءً كما كنا من قبل، ثم يزيدون الإنكار على الإنكار بقولهم:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾ بالية رميمةً نُبعث ونحيا؟ كلا وحاشا، من أين يتأتى لنا هذا؟ وبعد ما استبعدوا واستكبروا بما استنكروا

﴿قَالُوا۟﴾ منهمكين ومستهزئين: ﴿تِلْكَ﴾ الحالة المفروضة لو وقعت ورُددنا إلى الحياة بعد الموت كما زعم هؤلاء المدَّعون يعنون الرسل، يحصل لنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ﴾ عودةٌ ورجعةٌ ﴿خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ ذا خسرانٍ وخذلانٍ؛ لأننا كنا نكذِّب بها، ولا نصدِّق من أخبرَ بها، وبعد ما وقعت كنا خاسرين خسراناً عظيماً.

وبعد ما تقاولوا من بطرهم وخيلائهم ما تقاولوا، قيل لهم من قبل الحق مقرّعاً على استماع استعداداتهم: لا تستبعدوا أمر الساعة ولا تستصعبوها،

﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي أمر الساعة وقيامها عند كمال قدرتنا الغالبة القاهرة ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي نفخةٌ واحدةٌ يُنفخ في الصور بأمرنا وحكمنا، فإذا نفخت النفخة الثانية:

(١) في المخطوط (الراجفين).

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ....

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ أي فوجىء بنو آدم بأجمعهم، فصاروا أحياء على وجه الأرض كما كانوا عليها في النشأة الأولى من الهيئات والأشكال والهياكل والهويات.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثه على الاصطبار بأذيات أصحاب التكذيب والاستكبار فقال:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ يعني بما اضطربتَ بتكذيب قومك وإنكارِهم عليك وإعراضِهم عن هدايتك وإرشادك يا أكمل الرسل، أليس قد أتيتك حديث أخيك موسى الكليم حتى يسليك ويزيح كربك ويرشدك إلى الصبر والثبات مثل أخيك، حتى تظفر على أعدائك مثله، وذلك وقت:

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بلا وسيلة المَلَك وسفارة السفير، إذ هو حينئذٍ من إفراط المحبة ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار والالتفات إلى ما سوى الملك الجبار ﴿طُوًى ﴿١٦﴾﴾ أي طُويت دونه حينئذٍ مطلق التعينات والنقوش الطارئة على بحر الوجود من رياح الإضافات المعوجة الممنوحة، وبعد ما تقرر في مقعد الصدق، وتمكّن على مكمن اللاهوت، أمره سبحانه بالالتفات إلى عالم الناسوت، والرجعة نحوه للإرشاد والتكميل تتميماً لقضية الحكمة البالغة المتقَنة الإلهية بقوله:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ العالي العاتي الباغي الطاغي ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ وتجاوز

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

عن مقتضى العبودية طغياناً فاحشاً، إلى أن ادعى الألوهية لنفسه.

﴿فَقُلْ﴾ مستفهماً أولاً على طريق الملاينة اللازمة لمرتبة النبوة والإرشاد: ﴿هَل لَّكَ﴾ بعد ما انحرفتَ عن جادة العبودية بهذه الدعوى الكاذبة الباطلة ميلٌ ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ وتتطهرَ عن رذيلة الكفر والطغيان، ونقيصة الظلم والعدوان.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وأرشدُك أنا بإذن الله ووحيه ﴿إِلَىٰ﴾ توحيد ﴿رَبِّكَ﴾ وتقديس مربيك الذي أظهرك من كتم العدم، ورباك بأنواع اللطف والكرم، وبعد ما تعرفُ وحدةَ ربك، وتؤمنُ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتصدقُ بكمال قدرته واقتداره على وجوه الانتقامات والإنعامات وباستقلاله في عموم التدبيرات والتصرفات ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ حينئذٍ عن بطشه وقهره، وتشتغل بأداء المأمورات، وترك المنكرات والمحرمات، والاجتنابِ عن مطلق المنهيات، وبالجملة تكون من زمرة أرباب العناية والكرامات، وتتخلص من نيران الطبيعة ودركاتها.

وبعد ما ذهب موسى لمقتضى أمر الله ووحيه إلى فرعون الطاغي الباغي، وبالغ في التبليغ وإظهار الدعوة والملاينة على وجه الرفق والمداراة.

﴿فَأَرَىٰهُ﴾ على سبيل التبيين والتوضيح ﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ يعني العصا وتقليبها حيةً، أو جنس الآيات النازلة عليه.

وبعد ما سمع فرعون من موسى ما سمع ورأى من الآيات ما رأى استكبر وعتا

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ....

﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعونُ موسى ﴿وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ على المولى، وزاد على البغي والطغيان.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما أقبل عليه موسى بالإرشاد والتكميل بأمر الله ﴿أَدْبَرَ﴾ فرعونُ عن الإقبال، وأقبل على البغي والضلال، لذلك ﴿يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ ويجتهد في المعارضة والإبطال.

﴿فَحَشَرَ﴾ جنوده وسحرة بلاده ﴿فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ على رؤوس الملأ على سبيل الاستعلاء والاستكبار.

﴿فَقَالَ﴾ ذلك المسرف المفرط من كمال البطر والافتخار: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾ ومربيكم الأجل ﴿الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ من كل من يلي أمرَكم أيها البرايا.

وبعد ما أفرط في البغي والطغيان، وبالغ في الظلم والعدوان:

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ القدير القهار بمقتضى اسمه المضلِّ المذلِّ، فجعل سبحانه طغيانه وعدوانه ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي سببَ الأغلال والسلاسل في النشأة الأخرى، وسبباً للإهلاك والإغراق في النشأة الأولى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الشأن الذي جرى على فرعون من أنواع البلاء في النشأة الأولى والأخرى ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظةً عظيمةً، وتذكيراً بليغاً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ عن غضب الله ومقتضيات قهره وجلاله.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المنكِرين للنشأة الأخرى وتقريعهم وتسفيههم بمقتضى عقلهم فقال:

ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ
ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ
أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ....

﴿ءَأَنتُمۡ﴾ أيها المنكرون المفرِطون المسرفون ﴿ أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلۡقًا﴾ وإيجاداً على سبيل الإعادة ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ التي هي أرفع الأبنية وأعلاها، وأشدُّها نظاماً، وأقواها بنياناً، إذ هو سبحانه ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ بقدرته الكاملة، وأحسن بناءها حيث:

﴿ رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾ وسقفها بلا أعمدة وأسانيد وإسطوانات ﴿فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ وعدلها بلا قصورٍ وفتورٍ.

وبعد ما سواها أدارها على الاستدارة، ورتَّب على حركاتها الجديدين[1] ﴿وَأَغۡطَشَ﴾ أي أظلم ﴿ لَيۡلَهَا﴾ الحاصلَ من حركاتها ﴿وَأَخۡرَجَ﴾ أبرز وأظهر ﴿ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ ضوء شمسها في النهار الحاصل من تلك الحركات.

﴿ وَ﴾ بعدما رتبها كذلك خلق ﴿ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد خلق السموات وأعجب في خلقها بأن ﴿دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ مهّدها وبسطها لمن يسكن عليها، ويستقر فيها، وبعد بسطها كذلك:

﴿ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا ﴾ حيث فجّر فيها عيوناً وأجرى أنهاراً ﴿وَ﴾ إن ظهر عليها أيضاً ﴿مَرۡعَاهَا ﴿٣١﴾﴾ تقويتاً لمن عليها وما عليها.

﴿وَ﴾ رتَّبَ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ الطوال الثِّقال عليها حتى ﴿أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ وأثبتها،

---

(١) في المخطوط (الجديدان).

مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا
سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾

وإنما مهّدها وبسطها، وأنبت عليها وفجّر منها لتكون:

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ أي تمتيعاً لكم عليها ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ أيضاً، فإنها من لواحق معائشكم ومتمماتها.

وبعد ما فضل عليكم سبحانه بأنواع الخيرات والبركات.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ والداهية العظمى، التي هي عبارةٌ عن قيام الساعة الموعودة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ حيث يُعطى لهم صحائف أعمالهم مفصَّلةً فينظرون فيها، ويتذكرون بها جميع ما صدر عنهم من الأعمال الصالحة والفاسدة، فيجازون بمقتضاها.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أي ظهرت ولاحت ﴿لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي لكلٍّ من يتأتى منه الرؤية، أي ظهر أمرها بحيث لا يخفى على أحد.

ثم قسّم الناس حينئذٍ قسمين:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ في النشأة الأولى

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ أي اختار الحياة المستعارة الدنية الدنيوية ولوازمها من اللذات والشهوات الفانية على الحياة الأخروية، وما يترتب عليها من اللذات اللدنية الباقية.

فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ
﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ....

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ المسعَّرةَ بنيران غضبهم وشهواتهم ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ لهم مقصورة عليهم، لا مأوى لهم سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي خاف عن قيامه بين يدي الله ووقوعه في المحشر للحساب وعرض الأعمال عليه سبحانه والجزاء عليها، ﴿وَ﴾ مع خوفه وخشيته ﴿نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي كفَّ نفسه عن مقتضياتها التي هي ترديها وتغويها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي مأواهم مقصورةٌ على الجنة، وهم فيها أبداً خالدون لا يتحولون إلا إلى ما هو أولى منها وأعلى درجة ومقاماً.

ثم قال سبحانه:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ وقيامها التي هي من جملة الغيوب التي لا نُطْلِع عن درجاتها ومقاماتها أحداً عليها ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ أي متى إرساؤها وإقامتها، وفي أي آنٍ إتيانها وقيامها، عيّنْ لنا وقتها؟

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أي أنت في أيّ شيء وشأن منها أن تذكر لهم وقتها، أو تعينها، مع أنا لا نطلعك على وقتها، سوى أنا أوحينا لك أنيتها وثبوتها وتحقق قيامها، فما لك إلا تبليغ ما يوحى إليك.

بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ أي منتهى علمِها وتعيينُ وقتِها، إنما هو

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾

مفوضٌ إلى حضرة علم الله، موكولٌ إلى لوح قضائه.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ أي أنت ما تُبعث إلا لإنذار الخائفين الموفقين على الخوف من أهوالها وأفزاعها، لا من المقدِّرين[1] المعيِّنين لوقتها.

وكيف يسع لك هذا التعيين والتقدير، إذ هي من جملة الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلع أحداً عليها.

ثم قال سبحانه تهويلاً على المنكرين:

﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا﴾ ويعاينون قيامها، تيقنوا حينئذٍ على سبيل الجزم إنهم ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ ولم يمكُثوا في دار الدنيا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ أي عشيةَ يومٍ ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ أي ضحى تلك العشية، يعني يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، بالنسبة إلى هول يوم القيامة وطولها.

نعوذ بك من النار وما قرب إليها يا غفار.

(١) في المخطوط (المتذكرين).

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المحقق الموقِن بقيام الساعة وما فيها من الثواب والعقاب والجنة والنار: أن تزرع في محرثك هذا ما ستحصده هناك من بذور الأعمال الصالحة والأخلاق المرضية والأطوار المحمودة وسائر السنن والآداب المقبولة المأثورة من النبي المختار وعترته الأخيار الأطهار، لا بد لك أن تكون على ذِكرٍ من قيامها وأهوالها في عموم أحوالك.

وإياك إياك الاغترار بالحياة المستعارة، والالتفات إلى مزخرفات الدنيا الغدارة المكارة، فإنها تمكر بك وتغويك وتضلك عن طريق الحق وترديك.

فعليك أن لا تتبع بغوائلها، ولا تنخدع بمخائلها، حتى لا تكون من زمرة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

جعلنا الله من زمرة الآمنين الفائزين المستبشرين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة عبس

لا يخفى على من تمكن بمقر عز الوحدة وتوطن في السوأد الأعظم اللاهوتي: أن علامة التمكين والتثبيت ألا يبقى للموحد المحقق شيء من لوازم عالم الناسوت، بحيث لا يتكبر على من دونه، ولا يتحسر على من فوقه، بل لم يبق في عين شهوده سدل الاثنينية ورمد الفوقية والتحتية مطلقاً، بل صار كلٌ في نظر شهوده على السواء بحيث ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، سيما ترجيح أصحاب الثروة والغفلة الفاقدين نظر البصيرة والاستبصار على أرباب الإرادة والاعتبار، وإن فقد منهم حس الظاهر.

ثم لما كان ﷺ مشغوفاً بإيمان رؤساء مكة وصناديدهم ودعوتهم، جلس يوماً من الأيام معهم على سبيل الملاينة رجاء أن يوفقوا للإيمان ويرغبوا إلى قبول الدعوة.

وكان ﷺ يصاحبهم ويداريهم، حتى دخل عليه ﷺ ابن أم مكتوم الأعمى رضي الله عنه، ولم يدر مَن هم عنده فقال: يا رسول الله علّمني مما علمك الله، ولم يلتفت إليه ﷺ واشتغل مع أهل الثروة، فناداه بما نادى مرة بعد أخرى، حتى غضب رسول الله ﷺ، وقطب وجهه، فصار عبوساً، فجرى في

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ ....

نجواه ما جرى من لحوق العار، بأن يعيب هؤلاء الصناديد بأن أتباعه ما هي إلا العجزة والعميان والمساكين، فكان عليه ﷺ حتى أوحى إليه سبحانه، معاتباً عليه، مؤدباً فقال متيمناً:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على قلوب أوليائه بمقتضى سعة رحمته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بحفظ مرتبتهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ عليهم يوقظهم عن غفلتهم.

﴿عَبَسَ﴾ وجهه من الكراهة عن المسترشد، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ أي أعرض عنه، وحول صفحة وجهه عنه كارهاً إياه وقت:

﴿أَن جَآءَهُ﴾ المسترشد ﴿ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ أخرج الكلام سبحانه مع حبيبه ﷺ على طريق الغيبة؛ إظهاراً لكمال الغيرة والحمية الإلهية عن هذه الغفلة الغير مرضية.

ثم التفت إلى الخطاب لكمال التأديب والتشنيع، فقال على سبيل التهويل:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي وأيّ شيء يكشف لك حاله وقلبه ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ ويتطهر عن الآثام، ويهتدي إلى طريق الإسلام بهدايتك وإرشادك، بخلاف أولئك الجهلة الغفلة الذين تحننتَ نحوهم وتحببتَ دعوتهم، فإنهم لا يهتدون ولا يتطهرون.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أي يتعظ ويتذكر هذا المريد الفقير من كلامك.

فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ ....

﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ والعظة وتوجّهٌ هو بسببها إلى المولى.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾﴾ عن الله وأعرض عن تذكيرك ودعوتك، مستكبراً بماله وثروته وسيادته وكمال نخوته.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾ تميل وتتعرض بالإقبال إليه، وتتحنن بكمال المحبة نحوه.

﴿وَمَا عَلَيۡكَ﴾ أي أيّ شيء عرض عليك ولحِق بك عن المكاره الإمكانية ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾ ولا يتطهر عن خباثة الآثام وأدناس العصيان، حتى يبعثك عن الإعراض عن أهل الحق وعدم الالتفات نحوهم، مع أن ما عليك إلا البلاغ والتبليغ.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ﴾ من أرباب الطلب والإخلاص ﴿يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾﴾ ويسرع بطلب الخير والهداية.

﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾﴾ عن[1] غضب الله ويرجو ثوابه.

﴿فَأَنتَ﴾ مع كونك مبعوثاً عن الهداية والإرشاد إلى أصحاب الإرادة والقبول ﴿عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ تتشاغل وتنصرف، كأنك تحقره ولا تبال بشأنه وإيمانه، لرثاثة حاله وفقره.

ثم بالغ سبحانه في تأديب حبيبه ﷺ وأكّده حيث قال:

﴿كَلَّآ﴾ أي ارتدع عن فعلتك هذه، ولا تمل إلى أصحاب الزيغ والضلال،

---

(١) أي: من.

إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي
سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ....

معرضاً عن أرباب الهداية والكمال، إذ ما عليك التخيير والاختيار، إن عليك إلا التبليغ والإنذار ﴿إِنَّهَا﴾ أي دعوتك وتذكيراتك بالآيات ﴿تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ نازلةٌ من ربك، مأمورةٌ لك تبليغها إلى الناس.

﴿فَمَن شَاءَ﴾ سبحانه اتعاظه من عباده ﴿ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ أي بالقرآن ووعظه به، سواء كان فقيراً أو غنياً.

وكيف لا يوعظ به مع أنه منزلٌ من عند الله:

﴿فِي صُحُفٍ﴾ نازلةٍ على رسل الله ﴿مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾ عنده سبحانه.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ مقبولةٍ لديه درجةً ومكاناً، ملقاةٍ من عند الله إلى رسل الله ﴿مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي ملائكةٍ يتوسلون بين الله ورسله.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزةٍ من عند الله، ذو كرامة على أهل الإيمان ﴿بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أنقياء مبرورين في أنفسهم، بارين على عباد الله مع هذه الكرامة العظيمة الإلهية، والإشفاق البليغ من لدنه سبحانه، والرحمة العامة من عنده.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ أي لُعن وطُرد عن ساحة عز القبول ﴿مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾ أي أيّ شيء حداه، وبعثه إلى الإعراض عن الله المنعم المفضل والانصراف عن طاعته وعبادته، مع أنه عالم بكمال كرامته سبحانه عليه، معترفٌ ببدائع صنعه وصنعته معه، متذكرٌ في نفسه، مستحضرٌ بشؤونه وتطوراته السالفة.

مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ
فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ....

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ﴾ مسترذلٍ مستنزلٍ ﴿خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ وأوجده حسب قدرته.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مهينةٍ خبيثةٍ ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي هيأ آلاته وأعضاءه منها، فعدله وسوى هيكله، ومن أنى تكبر وافتخر وبطر؟!.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ الموحدَ الموصلَ إلى ربه وموجِده الذي هو مبدؤه ومعاده ﴿يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ وسهّل عليه بأن أفاض عليه، وأودع فيه العقل الفطري المنشعب من العقل الكلي الإلهي؛ ليعرف به مبدأه ومعاده.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ عن نشأة الاختبار والابتلاء تخليصاً وتقريباً له إلى ربه ﴿فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ في البرزخ.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾ وتعلق مشيئته للإحياء ﴿أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ من القبر، وحشره إلى المحشر، فحاسبه فجازاه على مقتضى حسابه، خيراً كان أو شراً، فضلاً منه وعدلاً.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له وويلٌ عليه: ما هذا النسيان والكفران لهذه النعم العظام والكرامات الجسام ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ أي لم يقض ولم يجر من لدن وجوده وظهوره على ﴿مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ الحق به، إذ لا يخلو أحدٌ من أفراد الإنسان عن الكفر والكفران، والإثم والعدوان، إلا أن بعضه متداركٌ متلافٍ، قد جَبر بالتوبة والإيمان ما كسر بالكفر، وبعضه مغمور في عصيانه ونسيانه إلى حيث لا يتنبه قط. وبالجملة:

فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا
فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾
مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾ ....

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ المجبول على الكفران والنسيان ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ المسوق له من لدنا تفضلاً وتكريماً لتقويته وتقويم بنيته.

﴿أَنَّا﴾ من مقام عظيم جودنا كيف ﴿صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ﴾ وأنزلنا من جانب السماء ﴿صَبّٗا ﴿٢٥﴾﴾ ترويجاً له وتهيئةً لأسباب معاشه.

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ بعد ما صببنا الماء عليه ﴿شَقّٗا ﴿٢٦﴾﴾ بديعاً.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾﴾ من أنواع الحبوب التي يقتات بها الإنسان ﴿وَعِنَبٗا﴾ متضمناً لأنواع الأدم والمشروبات.

﴿وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾﴾ نباتاً يقطع مرةً بعد مرةٍ يعين للأكل.

﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿حَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾﴾ مملوءةً بأنواع الأشجار والثمار.

﴿وَفَٰكِهَةٗ﴾ أي ألوان الفاكهة وأنواعها وأصنافها ﴿وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ علفاً لمواشيه ومراكبه التي بها يتم ترفهه وتنعمه.

وبالجملة أعطاكم وأحسن إليكم سبحانه ما أعطى وأحسن من النعم العظام والكرم الجسام ليكون:

﴿مَّتَٰعٗا﴾ وتمتيعاً ﴿لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾ التي بها يتم ترفهكم وتنعمكم، وإنما أنعم عليكم سبحانه؛ لتعرفوا المنعم، وتواظبوا على شكر النعم، وأنتم

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾
لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾

تكفرون للنعم والمنعم جميعاً، اذكروا:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ الصيحة[1] المقرعة لصماخكم وأسماعكم، فحينئذٍ شق عليكم الأمر، وصعب الهول، مع أنه لا نصرَ يومئذٍ ولا مظاهرةَ ولا إغاثةَ من أحدٍ ولا إعانةَ.

بل ﴿يَوۡمَ﴾ أي يومئذٍ ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ شقيقه وشفيقه ﴿وَأُمِّهِۦ﴾ التي يأوي إليها.

﴿وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾ الذي يظاهر ويفتخر به ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ التي هي أحب إليه من عشائره.

﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ الذين هم أعز عليه من عموم أقاربه.

وسبب النفرة والفرار اشتغالُ كلٍ بحاله بلا التفاتٍ منه إلى حال غيره،

إذ ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ يشغله عن شؤون غيره، ويزعجه على الاهتمام به، مع أنه لا يكفه ولا يكفيه.

وكيف لا يكون كذلك إذ:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾﴾ مضيئةٌ مشرقةٌ متنورةٌ بنور الإيمان والعرفان، ﴿ضَاحِكَةٞ﴾ فرحاً وسروراً بلقاء الرحمن ﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾﴾ بعلوّ الدرجات

(١) في المخطوط (المصخة).

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

والمقامات بأنواع السعادات والكرامات.

﴿وَوُجُوهٌ﴾ أخر ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ غبارٌ وكدورةٌ ناشئةٌ من أكدار الكفر والكفران وأنواع الآثام والعصيان، مظلمةٌ إلى حيث:

﴿تَرْهَقُهَا﴾ وتغشيها ﴿قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ مذلةٌ وصغارٌ وذلةٌ وخسارةٌ، وبالجملة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن ساحة عز القبول، المكدرون بكدورات الكفر والشرك وأنواع الفسوق والفجور ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ الخارجون عن مقتضى الحدود الإلهية، ونور المعرفة والإيمان بمتابعة القوى البهيمية من الشهوية والغضبية، إذ كلتاهما مناطُ عموم الشرور والخسران.

أعاذنا الله وعموم عباده من شرهما.

خاتمة السورة

عليك أيها المستنشط القاصد لتبشير الحق وتيسره: أن تسمع نداء البشارة والتوفيق الإلهي من ألسنة عموم رسل الله وكتبه، فلك أن تقتفي أثر هؤلاء الكرام، وتمتثل بما في كتاب الله العليم العلام من الأوامر والنواهي ومطلق الأحكام والعِبر والتذكيرات الموردة فيه، المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن عن الميل والإلحاد إلى الأمور المؤدية إلى إفساد العقائد والعناد.

فلك الفرار عن أصحاب الزيغ والضلال والانصراف عن مخالطتهم ومصاحبتهم في كل حالٍ، حتى تكون من زمرة أصحاب المتنعمين في جنات النعيم، لا من الضالِّين المكذِّبين المخلَّدين في دركات الجحيم، المعذَّبين بالعذاب الأليم.

نسأل منك يا ذا القوة المتين الفوزَ بدرجات النعيم، والعوذ عن دركات الجحيم، يا من فضله وكرمه عميم !

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة التكوير

لا يخفى على المنكشفين بسطوة سلطنة جلال الله وقهره الغالب: أن قيام الساعة ووقوعَ الطامة الكبرى التي انقهرت دونها نفوس السوى مطلقاً في جنب القدرة الكاملة الإلهية، إنما هي في غاية اليسر والسهولة. والمنكرُ المستبعدُ لها وللأمور الموعودة فيها مكابرةً عن مقتضى عقله، سيما بعد ورود الوحي الإلهي، وبالجملة ليس إنكار المنكر بعد وضوح الآيات وسطوع البينات، إلا من اعتيادِهِ بمزخرفات الوهم والخيال اللذَين هما من أقوى أسباب الكفر والضلال، ومن خَلَصَ عن رِقِّيةِ تلك القوتين، ونجا من غوائلهما وتغريراتهما، فقد جزم بوقوع عموم ما أخبر الحق به في هذه السورة بلا ترددٍ وارتيابٍ على الوجه الذي نص عليه سبحانه وفصّله بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المتجلي بعموم كمالاته في النشأتين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ في النشأة الأولى لانبساط وبسط ظلاله على عموم الأشياء ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في النشأة الأخرى لقبضه الكل إلى ما منه بدأ.

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ ....

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾﴾ يعني إذا قامت القيامة، ولاحت شمس الذات الأحدية عن مكمن العماء، وغلبت نشأة اللاهوت على نشأة الناسوت، كُور الوجود الإضافي، المنعكس من الوجود المطلق الإلهي، المنبسط على صفائح مطلق العكوس والأظلال، ولُفَّ وطُويَ، بحيث لم يبق له أثرٌ عند ظهور شمس الحقيقة الحقية.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ يعني انقضت واضمحلت حينئذٍ نجوم الهويات وهياكل الماهيات الحاصلة من الأوضاع والنِّسب والإضافات العدمية الاعتبارية المحضة، بحيث لم يبق لها رسمٌ وأثرٌ عند ظهور الهوية الذاتية الإلهية الحقية.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾﴾ يعني سارت وانقلعت وطارت عن أماكنها جبال الأنواع والأجناس الواقعة في عالم التعينات.

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ﴾ يعني السحب الماطرة لمياه المعارف والحقائق الفائضة على أراضي الاستعدادات القابلة لها، اللائقة لفيضانها ﴿عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾﴾ وتُركت لاضمحلال محالّها، وتلاشي قوابلها بانقضاء نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ﴾ أي النفوس المستوحشة الأبية الوحشية التائهة في بوادي الطبيعة وقفر الهيولى ﴿حُشِرَتۡ ﴿٥﴾﴾ وجُمعت إلى ما منه انتشرت وبدت.

وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ....

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ﴾ أي البحار الحاصلة من اعتبارات الوجود وشؤونه ظاهراً وباطناً، غيباً وشهادةً، دنيا وعقبى ﴿سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ جُمعت وملئت واتحدت، فيُصار بحر الوجود بحراً واحداً زخاراً، لا ساحل له أصلاً.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ﴾ يعني الأرواح الفائضة على هياكل الأشباح من عالم الأمر الإلهي ﴿زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ وقُرنت يومئذٍ ببواعثها، التي هي الأسماء والصفات الإلهية والأسباب اللاهوتية.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾ أي أبكار المعاني والمعارف الإلهية المودعة المدفونة في أراضي الطبائع والأركان، مع اتصافها بالحياة الأزلية الأبدية، سئلت من سكان تلك البقاع، ومن تلك المخدرات الحسان ﴿ بِأَىِّ ذَنۢبٍ ﴾ وجريمةٍ ﴿قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ تُركت ودُفنت، مع أنها إنما جاءت في أراضي الطبائع والاستعدادات، مع أنها إنما حيُيت وجُبلت لكسب أنواع الخيرات واقتراف أصناف السعادات والكرامات.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ أي صحائف تفاصيل الأعمال المشتملة على عموم الأماني والآمال المطوية فيها جميع الأحوال الصادرة من أصحاب الغفلة والضلال ﴿ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ فرُقت وكُشفت بين أصحابها.

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ ﴾ أي سماء الأسماء والصفات الإلهية المتجلية على شؤن الظهور والنزول ﴿كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ طُويت وأُزيلت عن هذه الشؤون إلى شؤون البطون والخفاء.

وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ....

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ﴾ المعدُّ لأصحاب الغفلة والضلال، التائهين في بوادي الجهالات بمتابعة أهويتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة العاطلة ﴿سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾ أُوقدت وأُحميت بنيران غضبهم وشهواتهم التي كانوا عليها في نشأة الاختبار.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ﴾ المعدَّة لأرباب العناية والوصال، المتصفين بالتقوى عن مطلق المحارم، والامتثالِ بمقتضيات الأوامر والنواهي وعموم الأحكام الموردة في الكتب الإلهية المتعلقة بإرشادهم وتكميلهم ﴿أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ قُرِّبت وقُرنت بهم، بحيث فازوا بعموم ما وُعدوا من قبل الحق.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ يعني علمت حينئذٍ كل نفسٍ من النفوس المودعة في هياكل الهويات لحكمة المعرفة والتوحيد، أي شيء أُحضرت عند الحساب عليها من الأمور المأمورة لها، حتى تجازى بها وعلى مقتضاها.

وبعد ما عدَّ سبحانه أحوالَ القيامة وأهوالها، أشار إلى ما يدلّ على التأكيد والمبالغة في وقوعها فقال:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أي لا حاجة إلى القسم لإثبات هذه المذكورات، إذ هي في غاية السهولة والظهور عند القدرة الغالبة الإلهية، بل أُقسم ﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾ أي بالنفوس الزكية عن لوث الناسوت، الراجعة إلى عالم اللاهوت وحضرة

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ....

الرحموت قبل قيام الساعة لصفاء مشربها ونظافة طينتها.

﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ أي أُقسم أيضاً بنفوس الشطّار الطائرين إلى الله، المختفين تحت قباب عزه وشمس ذاته، بحيث لا يعرفهم أحدٌ سواه سبحانه.

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ٱلَّيْلِ﴾ أي عالم العماء الإلهي ﴿إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أقبل ظلامه واشتد، بحيث اختفى فيه عموم ما ظهر وبطن.

﴿وَ﴾ بِحَقِّ ﴿الْصُّبْحِ﴾ أي عالم الجلاء المنعكس من ذلك[1] العماء اللاهوتي ﴿إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي أضاء وأشرق على أهل الفناء، الفانين عن الفناء، المتعطشين بزلال البقاء.

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني أقسم سبحانه بهذه المقسمات العظيمة أن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ مرسلٍ من قبل الله ﴿كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ متصفٍ بالكرامة والأمانة، يعني العقل الكل المسمى بجبريل.

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ غالبةٍ على حمل الوحي الإلهي ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيمِ المحيطِ بعروش عموم المظاهر ﴿مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ ذي مرتبةٍ ومكانةٍ عظيمةٍ.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي في عالم الأسماء والصفات، إذ عموم المدارك والقوى تابعةٌ مطيعةٌ للعقل الكلي، الذي هو حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾

(١) في المخطوط (تلك).

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ ....

حفيظٍ على الوحي الإلهي بالتوفيق الإلهي، بحيث لا يشذّ عنه شيء من أوامره ونواهيه.

﴿وَ﴾ أيضاً أقسمَ سبحانه بتلك المقسمات على أنه ﴿مَا صَاحِبُكُمْ﴾ الذي نزل عليه هذا، إلا أمينٌ بهذا الكتاب المبين، يعني محمداً ﷺ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ ومختلّ القوى والآلات كما زعمتم، إذ زعمكم هذا بالنسبة إليه ﷺ، إنما هو من غاية انحطاطكم عن رتبته وجهلكم بمكانته، وإلا فهو ﷺ في أعلى طبقات الإدراك.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون ﷺ في أعلى طبقات الإدراك والمعرفة ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ يعني علمَ وعرفَ ﷺ جبريلَ الذي هو العقل الكل ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ الذي هو حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه.

﴿وَمَا هُوَ﴾ ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي أطلعه الحق عليه من المعارف والحقائق والرموز والإشارات المتعلقة بتصفية الظاهر والباطن وتخلية السر والضمير عن الالتفات إلى الغير مطلقاً ﴿بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ بخيلٍ شحيحٍ، سيما بعد ما أمره سبحانه بنشرها وتبليغها، وما هو على المغيبات التي نطق بها بمقتضى الوحي الإلهي وإلهامه بظنينٍ متهمٌ يتهمه أحدٌ، وينسبه إلى الافتراء المستبعد عن علوّ شأنه ورفعة قدره ومكانه ﷺ بمراحل.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مَا هُوَ﴾ يعني القرآن الذي هو تكلم به ونزل عليه ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي ما هو شِعرٌ وكهانةٌ ناشئةٌ من شياطين الوهم والخيال

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

كما زعمه أهل الزيغ والضلال، المترددين في أودية الجهل والغفلة، وهاوية العناد والجدال.

وبعد ما لاح عظم شأن القرآن ورفعة قدره وعلو مكانته:

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تعدلون وتنصرفون عن جادة العدالة الإلهية أيها الضالون المضلون؟.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآن العظيم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ كبيرةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي لعموم من جُبل على فطرة التذكر وقابلية الإرشاد والتكميل.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ أي عظةٌ وتذكيرٌ لمن قصد الاستقامة على صراط العدالة الإلهية، تذكَّرَ به واتعظ لإرشاده وهدايته.

﴿وَ﴾ غاية ما في الباب أنه ﴿مَا تَشَاءُونَ﴾ وتختارون طريق الهداية والرشاد لأنفسكم ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتكم، ويوفقكم على الاستقامة والرشاد عنايةً منه وفضلاً، إذ عموم أفعالكم إنما هي مستندةٌ إلى الله، صادرةٌ منه سبحانه أصالةً، إذ هو سبحانه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لا مربي في الوجود سواه، ولا مدبر في الشهود إلا هو، ومقتضى تربيته وتكميله إرشادُ عباده وتوفيقِهم إلى ما هو أصلحُ لهم، وأليقُ بحالهم.

وفقنا بفضلك وجودك بما تحب وترضى أنت عنّا يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتوفيق الحق وتربيته على الوجه الأصلح الأليق: أن تفوض عموم أمورك وأعمالك وأحوالك كلها إلى مشيئة الله، وتسلمها إليه سبحانه طوعاً ورغبةً بلا توهمِ تخييرٍ واختيارٍ منك وإرادةٍ جزئيةٍ أو كليةٍ، إذ ليس لك من الأمر شيء، بل الأمور الجارية كلها لله وبمقتضى تقديره وقضائه، وليس لك إلا التسليم والرضا بجميع ما جرى عليك من القضاء.

وإياك إياك الاغترار بحياة الدنيا، الفرارَ الفرارَ، وما فيها من المزخرفات الخداعة المكاره، فإنها دار العتو والاعتبار، لا منزل الإقامة والقرار. واللائق بحال الفطن الذكي ألا يتمكن فيها إلا على وجه الضرورة والاضطرار، لا على سبيل الرضا والاختيار.

جعلنا الله ممن تنبه ببطلان الدنيا الدنية، وعموم ما فيها وعدم ثباتها وقرارها.

سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ....

فاتحة سورة الانفطار

لا يخفى على من لاح عليه أثر القدرة العالية الإلهية، وانكشفت دونه غناه سبحانه في ذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته: أن جميع ما ظهر وبطن، غيباً وشهادةً، إنما هو محكوم كلمةِ المحكم وقضائه المبرم، له أن يتصرف فيها ويقلبها كيف يشاء إرادةً واختياراً. لكنها مرهونةٌ بأوقاتٍ، ومسبوقةٌ بأماراتٍ مقدرةٍ من عنده سبحانه، ومن تلك العلامات ما ذكر سبحانه في هذه السورة بعد ما تيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي ظهر على ما ظهر وبطن حسب قدرته الغالبة ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ على عموم مظاهره بإعطاء الوجودات الإضافية ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليها بخَلْعها عنها عند ظهور الوحدة الذاتية على صرافتها.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ﴾ المعبَّر بها عن العلويات المتأثرات عن الأسماء والصفات الإلهية ﴿ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾ انشقت وانخرقت، ولم يبق قابليتها للتأثر والاستمداد من الأسماء والصفات.

﴿ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ﴾ التي تعينت عليها بالهويات وتكثرت بالهياكل

انتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ ....

والماهيات ﴿انتَثَرَتْ ۝٢﴾ وتفرقت أوضاعها، وتلاشت أشكالها وهيآتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ﴾ المستحدثة من صعود الأمواج المتراكمة المترادفة على بحر الوجود، واتصف كل واحدٍ منها بالصفات المتنوعة مثل الغيب والشهادة والأولى والأخرى إلى غير ذلك من العوالم التي لا تُعد ولا تُحصى ﴿فُجِّرَتْ ۝٣﴾ انفجرت وانفتحت بعضها على بعض وارتفعت صور الأمواج، واتصل الكل فصار بحراً واحدً وحدانياً على ما كان أزلاً وأبداً.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ﴾ المندرسةُ المنتكسةُ التي لم يبق في أجوافها شيءٌ من أمارات عالم الناسوت ﴿بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ قُلبت وبُحثرت، وخرج من مطاويها ما فيها من حصة عالم اللاهوت.

﴿عَلِمَتْ﴾ يومئذٍ ﴿نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ في نشأة الاختبار والاعتبار من صوالح الأعمال ومحاسن الأخلاق والأطوار ﴿وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ أَهملت وتَركت فيها منها.

ثم نادى سبحانه مظهر الإنسان المصور بصورة الرحمن بداءً معاتبةً وتخجيلاً على ما عُرض عليه من الغفلة والنسيان مع أنه جُبل على فطرة التوحيد والعرفان فقال:

﴿يَٰأَيُّهَا الْإِنسَٰنُ﴾ المنعَم عليك بأنواع الإنعام والإحسان ﴿مَا غَرَّكَ﴾

﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ ....

أي أيّ شيء خدعك ومكر بك حتى جبرك على الكفر والعصيان ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أوجدك وصوَّرك في أحسن تقويم ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي سوى أعضاءك وجوارحك سليمةً عن مطلق العيوب.

﴿فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ أي جعلك معتدلَ المزاج، متناسبَ الأعضاء، مطبوعَ الهيكل.

وبالجملة ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ يعني في أي صورة بديعةٍ عجيبةٍ ممتازةٍ عن صور عموم الحيوانات، تعلق بها مشيئته وإرادته ركبك عليها، أي انتخبَ صورتك من صور جميع المظاهر، فركبك عليها.

قيل للفضيل بن عياض قدس سره: لو أقامك الله تعالى يوم القيامة، وقال: يا فُضيل ما غرك بربك الكريم ! ماذا كنت تقول؟!

فقال: أقول غرني ستورك المرخاة.

وقال يحيى بن معاذ قدس سره: لو أقامني سبحانه بين يديه، فقال: يا يحيى ما غرك بي؟

قلتُ: غرني برُّك بي سالفاً وآنفاً.

وقال أبو بكر الوراق قدس سره: لو قال لي: ما غرك بربك الكريم؟

لقلتُ: كرم ربي الكريم.

وأنا الفقير الحقير، خادم الفقراء وتراب أقدامهم، أقول لو قال لي ربي:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ ....

ما غرك بربك؟

لقلتُ: كفالتك بي، وكونك سمعي وبصري، وعموم قواي ومشاعري، ياربي.

ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً للإنسان عن الغفلة والاغترار بإيراد الأعذار الكاذبة ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ أيها المفترون المسرفون ﴿بِالدِّينِ ۝٩﴾ وترتبِ الجزاء على أعمالكم وأخلاقكم، حسناتها وسيئاتها، لذلك اغتررتم[1] بالحياة المستعارة، وفعلتم ما فعلتم من المفاسد والمقابح بشدة الإنكار والإصرار، بلا مبالاةٍ وخشيةٍ من القدير العليم.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من قِبل الحق ﴿لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾ رقباءَ من الملائكة، يحفظون عليكم أعمالكم على التفصيل الذي صدر عنكم.

﴿كِرَامًا﴾ في حفظها، أمناء لا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها لكونهم ﴿كَاتِبِينَ ۝١١﴾ مثبتين في صحف أعمالكم.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ منكم جميع ﴿مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ فيقررون عليكم وقت حسابكم، ثم تجازون على مقتضاها.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ البارين المبرورين ﴿لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ ومسرةٍ دائمةٍ وفوزٍ عظيمٍ.

(١) في المخطوط (اغترتم).

وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ
لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ....

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ المسرفين المفترين ﴿لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ معذبين بعذابٍ أليمٍ.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾ والجزاء بعد ما حوسبوا.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ متحولين مفارقين أبداً، صاروا فيها خالدين مخلدين.

ثم أبهم ذلك اليوم على السامعين تعظيماً له وتفخيماً على سبيل التهويل:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأعلمك أيها المغرور ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾ وما شأنه وشدة هوله وقوته.

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يا مغرور ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ وما يجري عليك فيه من الشدائد والأهوال وأنواع الهموم والأحزان.

وبالجملة يومٌ وأيّ يومٍ:

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ ترفعُ وتدفعُ ﴿نَفْسٌ لِّنَفْسٍ﴾ حميمٌ لحميمٍ، أو صديقٌ لصديقٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ مما حكم عليها واستحق بها من الجزاء، بل كل نفس رهينةُ ما كسبت، مشغولةٌ بما اقترفت، بلا التفاتٍ إلى غيرها من شدة هوله وحزنه

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾

﴿وَٱلۡأَمۡرُ﴾ أي أمور العباد وما جرى عليهم من الثواب والعقاب كلها ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ مختصةٌ به، موكولةٌ لمشيئته، مفوضةٌ إلى إرادته، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فضلاً وعدلاً لا يُسئل عن فعله، إنه حكيم حميد.

اصنع بنا ما أنت أهل به يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقب بفضل الحق ولطفه في يوم الجزاء: أن تفوض أمورك كلها إلى الله في نشأتك هذه، وتقوم بين يدي الله في كل الأحوال، وتنخلع عن مقتضيات ناسوتك في عموم الشؤون والأطوار الطارئة عليكم على تعاقب الأدوار في مدة حياتك المستعارة(١).

وإياك إياك الاغترار بخداع هذه الغدارة المكارة، فاعتبر من أهل هذه الدار إن كنت من ذوي العبرة والاستبصار، فاعبر عنها فإنها ما هي دار القرار، بل منزل الخبرة والاعتبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(١) في المخطوط (حياتك المستعار).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة المطففين

لا يخفى على من تمكن في جادة العدالة الإلهية ورسخ قدم عزمه وهمته على صراط الاستقامة الحقية الموصلة إلى ينبوع بحر الوحدة الذاتية: أن الانحراف والميل عن مقتضى القسط والإنصاف الإلهي، إنما هو من طغيان القوى البهيمية واستيلاء شياطين الأمارة على جنوده المطمئنة وغلبة مقتضيات لوازم الإمكان ولواحق الطبيعة المورث لأنواع الخذلان والخسران.

ولا شك أن طريان هذه الخصال المذمومة إنما نشأ من متابعة الهوى والركون إلى مزخرفات الدنيا، ومن جملتها: البخس والتطفيف في المكايل والموازين الموضوعة لحفظ الاعتدال ولمراعاة الاتصاف والانتصاف بين المسلمين، مَن عَدَلَ عنها مفرِطاً أو مفرِّطاً، فقد استحق الويل الأبدي والهلاك السرمدي، كما قال سبحانه متيمناً باسمه:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المستوي على صراط العدالة والتقويم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بوضع القسطاس المستقيم القويم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾لخواصهم يهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ.

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ ....

﴿وَيۡلٞ﴾ عظيمٌ وعذابٌ أليمٌ ﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ الذين ينقصون المكيال والميزان ويبخسون حقوق الناس، سماهم سبحانه مطففين؛ لأنهم يسرقون من الحقوق طفيفاً حقيراً على وجه الدناءة والخساسة، وهو لَمِن أخس الأفعال الذميمة، وأدناها وأخبثها.

في الحديث صلوات الله وسلامه على قائله: «مَا نَقَضَ العَهْدَ قَوْمٌ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوْا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهَ إِلَّا فَشَا فِيْهِمُ الفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَتْ فِيْهِمُ الفَاحِشَةُ إِلّا فَشَا فِيْهِمُ المَوْتُ، وَلَا طَفَّفُوْا الْكَيْلَ إِلَّا مُنِعُوْا النَّبَاتَ وَأُخِذُوْا بِالسِّنِيْنَ، وَلاَ مَنَعُوْا الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَلَيْهِمُ القَطْرُ»[1]، وهم

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي أخذوا منهم لأنفسهم ﴿يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾﴾ ويزيدون على المكيال قليلاً قليلاً ترجيحاً لأنفسهم عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ أي للناس ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ لأجلهم ﴿يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

(١) رواه ابن ماجة بلفظ: «عن عبد الله بن عُمَرَ قال أَقْبَلَ عَلَيْنَا رسول الله ﷺ فقال: يا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إذا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لم تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حتى يُعْلِنُوا بها إلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا ولم يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عليهم ولم يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إلا مُنِعُوا الْقَطْرَ من السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لم يُمْطَرُوا ولم يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ إلا سَلَّطَ الله عليهم عَدُوًّا من غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ ما في أَيْدِيهِمْ وما لم تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ الله إلا جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ) سنن ابن ماجة [٢/ ١٣٣٢ رقم/ ٤٠١٩/ باب: العقوبات] والبيهقي في السنن الكبرى [٣/ ٣٤٦ رقم / ٦١٩٠/ باب: الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى] وغيره وللحديث ألفاظ وطرق متعددة أنظر مجمع الزوائد [٥/ رقم ٣١٧ / باب: ما نهي عن قتله من النساء وغير ذلك].

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ ....

يُنقصون منه قليلاً قليلاً ترجيحاً لغبطتهم عليهم، مع أن الكيل والوزن إنما هو للتسوية والتعديل.

ثم قال سبحانه على وجه التعجب والتشنيع:

﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ بل يستيقن ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ المسرفون المفرطون بارتكاب هذه الخصلة الذميمة ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ لعظم ما فيه من الشدائد والأهوال، وأنواع الأفزاع والأحزان، سيما على أهل العصيان، إذ يُفتضحون على رؤوس الأشهاد.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ بأجمعهم لأجل العرض ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ ليحكم(١)

عليهم سبحانه على مقتضى السؤال والحساب، إما بالجنة وإما بالنار، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّآ﴾ ردعاً للمطففين بفجورهم وخروجهم عن مقتضى العدالة الإلهية الموضوعة فيما بينهم بالقسط، يعني كيف يخرجون عن مقتضاها ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أي ثبتَ فيه تفاصيل أعمالهم وأفعالهم وأخلاقهم وأطوارهم المذمومة كلها، مضبوطةً محفوظةً فيه، محكومٌ عليهم من قِبَل الحق بمقتضى ما في كتبهم إنهم ﴿لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ أي مقرُّهم في الدرك الأسفل من النار.

---

(١) في المخطوط (لتحكم).

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٩﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ....

ثم أبهمه سبحانه تهويلاً وتفخيماً فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أيها المسرف المفرط ﴿مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾ ما لم تقع فيه، ولم تذق من عذابه ونكاله، وبالجملة كتاب الفجار:

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٩﴾﴾ مسطورٌ بين الرقوم والرسوم، يعرفه من نظر إليه: أن لا خيرَ فيه ولا نفعَ في ضمنه، بل إنما هو مشعرٌ بأنواع العذاب والعقاب. وبالجملة ﴿وَيۡلٌ﴾ عظيم ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أي يوم أُعطي ذلك الكتاب ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾ له في النشأة الأولى، وبواسطة تكذيبهم وإنكارهم به يرتكبون من الجرائم والمعاصي ما لا يُعد ولا يُحصى، يعني وهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾ والجزاء بجميع الأمور الأخروية من السؤال والحساب، وإعطاء الكتب وسائر المعتقدات.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾ سيما بعد نزول الآيات القاطعة والبراهين الساطعة من قِبل الحق بالحق على أهل الحق ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ متجاوزٍ عن الحد في الإفراط والغلو، منكِرٍ لكمال قدرة الله وإحاطة علمه، حتى أنكر القدرة على الإعادة، مع أن الإبداء الإبداعي مقدورُ قدرته الغالبة أيضاً ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ مبالغٍ في الجهل والغفلة بارتكاب الشهوات المعمية لقلوب بصائره عن إدراك آيات القدرة الغالبة الإلهية الفانية للحصر والإحصاء.

مع أن كل واحدةٍ من تلك الآثار دليلٌ مستقلٌ على الإعادة عند المتأمل

إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّآ ....

المنصف، إلا أن المنكر مكابرٌ عن مقتضى عقله، وما أجرأه وأغراه على الإنكار والإصرار إلا شياطين الأوهام والخيالات المورثة له من إِلف الطبيعة ورسوخ العادات المبنية على التقليدات الراسخة، المتقررة في قلوب أصحاب الغفلة والضلال.

لذلك ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الدالةُ على كمال قدرتنا واختيارنا واستقلالنا في عموم المرادات والتصرفات الواقعة في ملكنا وملكوتنا ﴿ قَالَ﴾ من فرط جهله ونهاية غفلته وإعراضه عن الحق وأهله: ما هي إلا ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي أكاذيبهم المسطورة في دواوينهم، ثم قال سبحانه:

﴿ كَلَّا﴾ ردعاً له عن هذا الافتراء والمراء على سبيل الإنكار والاستهزاء: يعني ما هذه الآيات البينات من المفتريات كما زعمها أولئك البغاة الطغاة، الهالكين في تيه البغي والطغيان والغي والعدوان ﴿ بَلْ رَانَ﴾ يعني حدث في نفوسهم رينُ الغفلة وصدأُ الجهل والضلال، وازداد وغلب حتى علا وأحاط ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ فكسفها وكدرها إلى حيث أظلمها واسودَّها ولم يبق فيها لمعةٌ من بياضِ نور الإيمان، وما ذلك إلا بسبب ﴿ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ من المعاصي والشهوات المذهِبة لجودة الفطرة الأصلية والفطنة الجِبلِّية التي فُطروا عليها في أصل الخلقة، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّآ﴾ ردعاً لهم عن اقتراف الرين المصدئ لقلوبهم، كيف يكسبونه

﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ ....

مع أنهم جُبلوا على فطرة الإيمان والتوحيد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي أولئك المفسدون المسرفون ﴿عَن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم لمصلحة المعرفة والإيمان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم اقتراف المعاصي الرائنة ﴿لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ عن الله وظهورِ نوره اللامع في صفائح الأنفس والآفاق، مع أنه لا سترة له سبحانه ولا حجاب في حال من الأحوال، إلا أن خفافيش بقعة الإمكان لا يرَوْنَ شمس ذاته اللامعة بواسطة غيوم هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ بعد ما حُجبوا عن الله وحُرموا عن مطالعة وجهه الكريم ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ أي داخلوها وخالدون فيها أبداً.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تعييراً وتشديداً لعذابه من قِبَل الحق حينئذٍ: ﴿هَٰذَا﴾ العذاب هو العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ مصرُّون على تكذيبه وإنكاره، بل مستهزئون به، متهكمون. ثم كرر سبحانه لفظة:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً لهم بعد ردعٍ تأكيداً وتقريعاً، وليكون توطئةً وتمهيداً لتعقيب وعيدهم بوعد المؤمنين مع أن في هذا التعقيب زيادةُ زجرٍ وتقريعٍ عليهم بما اقترفوا من الآثام والعصيان المؤدية إلى دار الندامة والحرمان ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ أي ما كُتب فيه عموم آثارهم الصالحة الصادرة عنهم إيماناً واحتساباً ثقةً بالله ، وخوفاً من غضبه، محفوظةٌ فيه جميع ما ذُكر، محكومٌ عليهم بمقتضى ما فيه، إنهم ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ أي متمكنون في

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن
رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ ....

أعلى درجات الجنة وأرفع مقاماتها.

ثم أبهمه سبحانه تعظيماً وتفخيماً فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أيها البارُّ المبرور ﴿مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ وما شأنه الرفيع ومكانته البديعة، وما فيها من اللذات الروحانية التي من لم يذقها لم يعرفها.

رزقنا الله الوصول إليها والحصول[1] دونها، وبالجملة كتاب الأبرار ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾﴾ بين الرقم والرسوم.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي أرباب العناية والتوفيق، فيعلمون أن ما فيه خيرٌ كله بمجرد رؤيتهم وشهودهم في بادىء النظر. وبالجملة:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ البارين على الله، المبرورين بين الناس ﴿لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مقيمٍ. متكئين﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ المصوَّرة من صالحات أعمالهم وصفاء عقائدهم وأخلاقهم ﴿يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى ما يسرهم ويفرحهم من الصور الحسنة والمنتزهات البديعة. بحيث ﴿تَعۡرِفُ﴾ أيها الرائي ﴿فِي وُجُوهِهِمۡ﴾ في بادي الرأي ﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ بهجةَ التنعم وبرقَ الرضا والتسليم. ومع ذلك ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ خمرٍ من خمور المحبة والولاء ﴿مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ مطبوعٍ على غيرهم، بحيث لا يشمون روائحها أصلاً.

(١) أي: الحصول منها.

خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا
يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ
﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ....

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ﴾ أي روائحه الواصلة لهم منا قبل كشفهم عنه ختامه كالمسك، بلا كراهةٍ وبشاعةٍ كخمور الدنيا ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ أي في رحيق التحقيق وكأس المحبة والتصديق ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي فليرغب الراغبون لنفاسته وسرعة سوغه وانحداره، وكمال لذته وذوقه.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أي ما يخرج به ويخلط من ماء المعارف والحقائق منتشياً ﴿مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ مقام عالٍ، هو ينبوع بحر الوجود الذي هو الوحدة الذاتية الإلهية. فكان ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي يشرب من عذبها وفُراتها من تقرب نحو الحق باليقين الحقي، فإنهم يشربون من عين الوحدة بلا مزجٍ وخلطٍ.

ذقنا حلاوة نعيمك وبرد يقينك وشربة تسنيمك يا خير الرازقين.

﴿إِنَّ﴾ المشركين المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بالجرائم العظام الموجِبة لأنواع الإنتقام، من جملتها أنهم ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ويستهزئون بفقراء المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾ متهكمين ﴿يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي يغمز بعضُهم بعضَهم، ويشيرون بأعينهم كبراً عليهم وخيلاءً.

وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ
﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ....

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ وأماكنهم وإخوانهم ﴿ٱنقَلَبُواْ﴾ وصاروا ﴿فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ متلذذين متهكمين بما رأوا من شِيَم المؤمنين من صلاتهم وخشوعهم فيها وتضرعهم واستكانتهم وتواضعهم مع إخوانهم.

﴿وَ﴾ هم من شدة شكيمتهم وغيظهم ﴿إِذَا﴾ مروا، ﴿رَأَوۡهُمۡ﴾ أي المؤمنين ﴿قَالُوٓاْ﴾ متهكمين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ السفلة المستحسنين ﴿لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ منحرفون عن مقتضى الرشد والهداية بمتابعة هذا المجنون، يعنون الرسول ﷺ.

﴿وَ﴾ هم يقولون هكذا من كمال ضلالهم في أنفسهم، بل من حسدهم عليهم مع أنهم ﴿مَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على المؤمنين ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون بهدايتهم وضلالهم، بل الأمر بالعكس.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي اليوم الموعود المعهود الذي هو يوم القيامة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وصدّقوا بالآخرة وبجميع الأمور الموعودة فيها ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ المصرين على العناد والإنكار ﴿يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي يضحك المؤمنون يومئذ عكسَ ما كانوا عليه في النشأة الأولى، إذ يرونهم أذلاءَ صاغرين، مغلولين في نار القطيعة، معذَّبين بأنواع المحن. مع أن المؤمنين حينئذٍ متكئين ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ المعدّة لهم جزاءَ ما يتكلون على الله، ويتكئون إلى فضله

يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وإحسانه، مواظبين على أداء المأمورات وترك المنكرات، صابرين على متاعب الطاعات ومشاقّ التكاليف القالعة لعرق المستلذات الجسمانية والمشتهيات النفسانية ﴿يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حينئذٍ بنور الإيمان وصفاء اليقين والعرفان إلى وخامةِ ما فيه أصحابُ الكفر والكفران، ويشكرون بنعمة الإيمان والإحسان.

﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ وقد جوزوا يومئذٍ بأسوأ الجزاء بسبب ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين، وضحكهم بأعمالهم، وتغامزهم في ما بينهم بعيونهم، تهكماً عليهم.

جعلنا الله ممن بصّره بعيوب نفسه، وأعماه عن عيوب غيره بمنّه وجوده.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المراقب على تربية النفس، المداومُ على تهذيب الأخلاق: أن تصَّفي نفسك عن مطلق الرذائل المنافية لصفاء مشرب التوحيد، وتخلصَها عن عموم القيود الإمكانية المتولدة من طغيان الطبيعة، وتُحليها بمحاسن الأخلاق والأطوار المناسبة للفطرة الأصلية التي جُبلتَ عليها في مبدأ خلقك، فلك الإتكال على الله والفرار من على أصحاب الغفلة والضلال.

وإياك إياك أن تخالطهم وتجالس معهم؛ لأن صحبة الأشرار تميت القلوب وتؤثِّرُ في السرّ، وتُذهِبُ جودةَ الفطنة وتكدِّرُ صفاء مشربِ الوحدة، وتزيدُ الوحشة، وتُورِثُ النسيانَ المستلزمَ لأنواع الخسران والحرمان.

جعلنا الله ممن أذاقه حلاوة خلوته وأنسه مع وحدته.

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإنشقاق

لا يخفى على من سلك عن مضيق الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وتوجَّه إلى كعبة الوحدة مهاجراً عن عالم الكثرة: أن العود والرجوع إنما هو على مقتضى البدء والظهور، وأن التدلي والارتفاع إنما هو على طبق التدني والانحطاط، فكما نزلت(١) نفس الإنسان وهبطت روحه في النشأة الأولى من سماء الأسماء المعبر بعالم اللاهوت المقدس عن شوائب النقص وسمات الحدوث مطلقاً إلى عالم الطبيعة والهيولى المكدَّرة بأنواع الكدورات. كذلك صعدت نحوها منها. بعد ما وفقّه(٢) الحق وأدركته العناية من جانبه.

وللصعود والعروج علاماتٌ وأوقات قدرها الله العليم الحكيم في سابق علمه ولوح قضائه، ولم يُطلع أحداً على وقته، بل أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض علاماته وأمَاراته فقال بعد ما تيمن:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي ظهر على عموم ما ظهر في بدء الوجود بمقتضى الجود ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليها بإمدادها وإبقائها إلى اليوم الموعود ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾على

(١) في المخطوط (نزل).

(٢) أي: الإنسان صاحب تلك النفس والروح.

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ....

خواص عباده يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ﴾ أي سماء عالم الطبيعة والأركان ﴿ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ وانخرقت لتصعد وتعرج الأرواح الفائضة إلى الأشباح نحو سماء الأسماء والصفات، بعد خرق التعينات ورفع الإضافات.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي أصغت وانقادت لحكم ربها وأمرِه الذي مضى على انشقاقها ﴿وَ﴾ بعد ما أمرت ﴿حُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ لها ولاقت بحالها أن امتثلت بالمأمور وانقادت.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ﴾ أي أرض الطبيعة والهيولى القابلة المجبولة لانعكاس تأثيرات سماء الأسماء والصفات ﴿مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ امتدت وانبسطت لقبول مطاويها.

﴿وَأَلْقَتْ﴾ أخرجت[1] فظهرت ﴿مَا فِيهَا﴾ من التقوى المودعة القابلة لفيضان أنوار الذات ﴿وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ عن حفظ الأمانات الإلهية.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلية ﴿وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ لها للاستئذان والإصغاء ولاقتضاء مرتبة العبودية ذلك، حينئذٍ انكشفت لها جزاء ما كسبت واقترفت في نشأة الاختبار.

ثم نادى سبحانه الإنسانَ نداء تنبيهٍ وتخطيةٍ وتحريكِ حميةٍ فطريةٍ وسلسلةٍ جِبلّيةٍ فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المصوَّر على صورة الرحمن، المنتخبُ من بين سائر

(١) في المخطوط (أجرفت).

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ....

المظاهر لحكمة الخلافة والنيابة ومصلحة المعرفة في التوحيد فاعرف قدرك ولا تغفل عن حقيقتك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ساعٍ للتقرب والتوحيد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ وسعياً منتهياً إلى إفناء هويتك في هوية الحق، وبالجملة ﴿فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ يعني أنت ملاقٍ ربَّك[1] بمقتضى سعيك واجتهادك، فلك أن لا تفترق[2] ما يوصلك إليه ويفنيك فيه بعد جذبٍ من جانب الحق وتوفيقٍ من لدنه، لتكون من أرباب اليمن والكرامة، الموسومين بأصحاب اليمين المؤتين[3] لهم صحف أعمالهم من قبل أيمانهم التي هي علامة إيمانهم وعرفانهم.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ المطويَّ المشتملَ على تفاصيل ما صدر عنه ﴿بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾﴾ الذي هو عنوان اليُمن والكرامة والرضوان.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ سهلاً سريعاً.

﴿وَيَنقَلِبُ﴾ ويرجع بعد الحساب ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ الذي هم رفقاؤه في سبيل السعادة والكرامة ﴿مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ مبسوطاً فرحانَ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ الذي هو عنوان الشقاوة ودليل العتاب والعقاب وأنواع الملامة والندامة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟﴾ ويتمنى ﴿ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ ويلاً وهلاكاً؛ لصعوبة حسابه وغلبة

(١) في المخطوط (بربك).
(٢) في المخطوط (أن تقترف).
(٣) في المخطوط (المائتين).

وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ ....

سيئاته على حسناته.

﴿وَ﴾ بالآخرة ﴿يَصْلَىٰ﴾ ويُطرح صاغراً ذليلا ﴿سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ مسعراً بنيران الشهوات والغفلات الصادرة منه بمتابعة الأوهام والخيالات وأنواع الضلال والجهالات الناشئة من القوى البهيمية الحاصلة من طغيان الطبيعة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ في دار الدنيا ﴿مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ بطِراً فرحانَ، فخوراً بالمال والجاه والثروة والسيادة، متفوقاً على الأقران، يمشي على الأرض خيلاء.
وإنما حمله عليه ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ﴾ بل تيّقن جهلاً وعناداً ﴿أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي لن ينقلب ويرجع إلى الله، ولن يقوم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء، لذلك اجترأ من المعاصي، ثم قال سبحانه:

﴿بَلَىٰٓ﴾ ردعاً عما قبله وتصديقاً لما بعده على سبيل التعريض ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾ الذي رباه على فطرة المعرفة، وجَبَلَه على نشأة التوحيد ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ عالماً بتفاصيل أعماله الصادرة عنه على وجه الخبرة والبصارة، بحيث لا يشذّ عن حيطة علمه شيءٌ من أعماله وأحواله، فلا يهمله، بل يعيده ويجازيه، ثم قال سبحانه:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لإتيان يوم القيامة وإثبات ما فيها من الثواب والعقاب والجزاء والحساب وغير ذلك، إذ هي أمورٌ ظاهرةٌ مكشوفةٌ عند ذوي الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء، الواصلين إلى بحر الوحدة

بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ....

وينبوع الحقيقة، بل أقسمُ ﴿بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ المنبئ عن الشفقة والترحم الإلهي، وهو البياض المعترض من أفق عالم اللاهوت عند انقضاء نشأة الناسوت، حين حكم سبحانه بانطواء سجلات عموم التعينات والهويات.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي أُقسم بالليل، أي مرتبة العماء الإلهي ﴿وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ أي ضمّ وجمع من الأنوار المنعكسة إليها هياكل الأشباح.

﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ أي أُقسم أيضاً بالقمر، أي الوجود الكلي الإضافي المنبسط على مرآة العدم المنعكس من شمس الذات الأحدية، المتشعشعة المتجلية عن مطلع الفضاء اللاهوتية ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ تمّ وعمم وشمل الكل، وصار بدراً كاملاً بلا نقصان.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ أيها المكلفون ولتُطرحن في نار القطيعة والحرمان ﴿طَبَقًا﴾ مجاوزاً ﴿عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ بعيداً عنه، متجاوزاً في شدة الأهوال والأقراع، وبعد الغور والطور في الحرقة وأنواع العذاب والنكال.

وبالجملة بحق هذه المقسمات العظام لدخلتم في طبقات النيران، لو كفرتم بالله وعصيتم أمره وخرجتم عن مقتضى حدوده وأحكامه.

وبعد ما سمعوا ما سمعوا من الصادق الصدوق

﴿فَمَا لَهُمۡ﴾ أي أيّ شيء عرض عليهم ولحقهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ولا يتصفون بالانقياد والتسليم، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من قِبل

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

الحق على ألسنة الرسل والكتب.

﴿وَ﴾ من كمال غفلتهم عن الله، وضلالِهم عن سنن الهداية والرشاد ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ المبيِّن لطريق الحق وسبيل الإيمان والعرفان ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ لا يخضعون ولا يتذللون، مع أنه إنما نزل لهدايتهم وإرشادهم، عناداً ومكابرةً، فكيف التذلل والخضوع.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ به وبمنزله وبمن أُنزل إليه جميعاً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلعُ بما في ضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي بعموم ما يضمرونه في نفوسهم من الكفر والكفران، وأنواع البغي والعدوان، والغفلة والطغيان، يجازيهم على مقتضى علمه بهم وخبرته بما في نفوسهم، وبالجملة

﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا أكمل الرسل بشارةً على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ نازلٍ عليهم حين أُخذوا بعصيانهم وآثامهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم، وخرجوا عن ورطة الطغيان، مستمسكين بعروة الإيمان، متشبثين بحبل القرآن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيمٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ أي غير مقطوعٍ ومنقوصٍ، إن أخلصوا في إيمانهم وإذعانهم.

اصنع بنا ما أنت به أهل يا مولانا.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المجبول على فطرة الإيمان والعرفان، مكنك الله في ما يسر لك وثبّتك عليه: أن تتمسك بحبل التوفيق الإلهي، وتتشبث بأذيال همم أرباب التحقيق من الأنبياء والرسل الهادين المهديين والأولياء الألبّاء المهتدين لهدايتهم، إذ هم خلاصة الوجود وزبدة أرباب الكشف والشهود.

فلك أن تتخلق بأخلاقهم وتقتفي بآثارهم المأثورة عنهم وتسترشد من المرشد الرشيد الذي هو القرآن المجيد الموصِلُ لأرباب التوفيق إلى زلال التوحيد، المسقطُ لأنواع التقاليد الراسخة في قلوب أصحاب الغفلة والتخمين.

فلك أن تتأمل ظاهره وباطنه، وحدّه ومطلعه، حتى تتوسل بها إلى ما فوقها من الرموز التي وهبها سبحانه، وجاد بها لبعض النفوس القدسية الفانية في قدس الذات الباقية ببقائها.

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة البروج

لا يخفى على من تحقق بسماء الأسماء اللاهوتية المشتملة على بروج عالم الجبروت، وقصور مملكة الملكوت الموهوبة لسكانها من حضرة الرحموت: أن الوصول إليها والحصول دونها، إنما يتيسر للمستوحشين عن لوازم الإمكان ومقتضيات نشأة الناسوت، المستأنسين بسكان عالم اللاهوت وسواد أعظم الفقر.

ولا شك أن الاستئناس معهم إنما يحصل بجذبةٍ غالبةٍ وخطفةٍ جالبةٍ إلهيةٍ، والجذبةُ الإلهيةُ مسبوقةٌ بالمحبة المفرطة والمودةِ المزعجة إلى الفناء في المحبوب الحقيقي، والمحبةُ إنما تنشأ من الشوق الغالب الجالب، والشوقُ إنما ينبعث من الإرادة والطلب الصادر عن العزيمة المذكورة الخالصة، والعزيمةُ ما خلصتْ وصَفَتْ عن أكدار الطبيعة إلا بالخلوة والعزلة عن الناس، ودوام العفة والقناعة، ومقارنة الرضا والتسليم، والتفويض والتوكلِ على وجه التبتل إلى العليم الحكيم.

فالكل مسبوق برفاقة التوفيق والتصبر على متاعب الطاعات ومشاق العبادات والرياضات القالعة لمقتضيات القوى البشرية المورثة من القوى الطبيعية.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشْهُودٖ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ ....

والمنهمكون في بحر الغفلة والضلال، لا يتيسر لهم الاستئناس بالكبير المتعال، لذلك لُعنوا وطُردوا عن ساحة عزِّ القبول والحصولِ على وجه المبالغة والتأكيد، كما قال سبحانه في شأن طردهم ولعنهم مقسماً بالأمور العظام متيمناً:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي في عموم المجالي بمقتضى أسمائه وصفاته، إظهاراً للقدرة الكاملة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ للكل تتميماً لتربيته ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان تعظيماً لحكمته ومصلحته المودَعة في نشأته.

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي وحقِّ سماء الأسماء والصفات المتشعشعة المتجلية في عالم اللاهوت ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ من النفوس القدسية القابلة لانعكاسها وتشعشعها المستعدةِ لفيضان أنوارها الذاتية.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ للانجلاء الكامل والانكشاف التام المنعكسِ عن عالم العماء عند ارتفاع سُدلِ الأسماء والصفات عن البين ﴿وَ﴾ اتحاد ﴿شَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ في العين إنكم أيها المحجوبون عن الله، المطرودون عن ساحة عزِّ حضوره، الملعونون، مردودون عن كنف قربه وجواره، يعني كفار مكة لعنهم الله؛ لأن السورة نازلةٌ في تثبيت المؤمنين على أذاهم، كما ﴿قُتِلَ﴾ ولعن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ الخد: الشقّ في الأرض وغيرها.

روي أنه كان لملِك ساحرٌ فكبر، فضم إليه غلاماً ليعلمه، وكان في طريق

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ ....

الغلام راهبٌ يستمع منه كلاماً، فرأى في طريقه يوماً حيةً حبست الناس، فأخذ الغلام حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها، فقتلها، وكان بعد ذلك يُبرئ الأكمهَ والأبرصَ ويشفي المريض، فعمي جليسٌ للملك، فابرأه، فأسلم، فسأله المِلك من أبرأك؟ فقال: ربي.

فغضب المِلك عليه، فعذّبه فدل على الغلام، فعذّبه فدل على الراهب، فقدَّه بالمنشار، وذهب بالغلام إلى جبلٍ ليُطرح من أعلاه، فرجفَ بالقوم، فطاحوا ونجا الغلام، فذهب به إلى سفينةٍ ليغرق، فاكفأت السفينة بمن معه ونجا.

وقال الغلام للمِلك: لستَ بقاتلي حتى تأخذ سهماً من كنانتي، وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به، فرماه فقال: بسم الله رب الغلام، فأصاب صدغه، فوضع عليه يده فمات، فآمن الناس.

وقيل للمِلك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمرَ بحفرِ أخاديدَ، فأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأةٌ مع صبيٍ رضيعٍ، فتقاعست، فقال الرضيع بإلهام الله إياه مع أنه في غير أوان تكلمه مثل عيسى النبي صلوات الله عليه: يا أماه اصبري ! فإنك على الحق، فأقتحمت في

﴿ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ من لفظه الأخدود بدل الاشتمال ﴿ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ والحطبِ الكثير تهويلاً عليهم بشدة التهابها وسورتها؛ لينزجروا عما اختاروا، ويعودوا عن الإسلام والتوحيد.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ....﴾

ثم لما طُرح المؤمنون فيها التهبت النار التهاباً شديداً، وخرجت على أطرافها، فأحرقت كثيراً من صناديد أولئك الظلمة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ وفي أطرافها ﴿قُعُودٌ ۝٦﴾ قاعدون على الكراسي حول النار.

﴿وَهُمْ﴾ أي رؤساؤهم ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ أي الموكَّلون ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الأخذ والإفناء ﴿شُهُودٌ ۝٧﴾ عدولٌ مشرفون من قبل الملك، أمناء من جانبه، أقعدهم حولها؛ لئلا يتهاون الأعونة في إهلاك المؤمنين، وطرحِهم في النار.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَقَمُوا﴾ وانتقموا أولئك الظالمون المنهمكون في بحر الغيّ والعدوان ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من المؤمنين بهذا الانتقام الصعب الهائل ﴿إِلَّا﴾ أنهم كرهوا منهم، واستكرهوا عليهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الحي القيوم الحقيق بالإيمان والإطاعة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب القاهر على من دونه من السّوى والأغيار مطلقاً ﴿الْحَمِيدِ ۝٨﴾ المستحق لأصناف الأثنية والمحامد استحقاقاً ذاتياً ووصفياً.

وكيف لا يكون سبحانه عزيزاً حميداً، مع أنه القادر﴿الَّذِي لَهُ﴾ وفي حيطة قدرته وإرادته ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مظاهر العلويات والسفليات وما بينهما من الممتزجات.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ
عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ
جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ ....

﴿وَ﴾ كيف لا، هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المستقلُّ بالألوهية والوجود ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ لمع عليه برق وجوده ﴿شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ حاضرٌ غير مغيب، وبالجملة:

﴿إِنَّ﴾ المسرفين المفسدين ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ وأحرقوا ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ظلماً وعدواناً، كراهةَ هدايتهم وإيمانهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما فعلوا من الإفراط والإسراف ﴿لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ إلى الله، ولم يرجعوا نحوه سبحانه عن ظلمهم، ولم يستغفروا نادمين ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ الطردِ والحرمانِ عن حضور الحنَّان المنَّان ﴿وَلَهُمۡ﴾ ولَحِق بهم بسبب كفرهم بالله وإنكارهم توحيده ﴿عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ بدل ما فعلوا بالمؤمنين من حرقهم في الأخاديد.

ثم عقَّب سبحانه وعيدهم بوعد المؤمنين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بوحدة الحق ﴿وَ﴾ أكّدوا إيمانهم بأن ﴿عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقرونة بالإخلاص في النيات ﴿لَهُمۡ﴾ عند ربهم جزاءَ إيمانهم وأعمالهم تفضلاً عليهم ﴿جَنَّٰتٞ﴾ منتزهاتُ العلم والعين والحق ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر الحقيقة، وبالجملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول العظيم الشأن، البعيدُ رفعةً ومكانةً عن أفهام الأنام هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ والفضل العظيم الذي لا فوزَ أعظم منه

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾

وأرفع.

ثم أشار سبحانه إلى تهديد أصحاب الضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال، مخاطباً لحبيبه ﷺ فقال:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل وأخذَه بالعنف لعصاة عباده المائلين عن سبيل سداده وجادّة رشاده ﴿لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ بحيث لا يُقاس على شدة بطشه وتضاعف عذابه وانتقامه.

وكيف يُقاس على بطشه ويُقاوم مع أخذه؟!

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ القادر الغالب الذي ﴿يُبْدِئُ﴾ ويُظهر عموم المظاهر والموجودات من كتم العدم بالقدرة الغالبة الكاملة، ثم يخفي ويعدم كلها أيضاً بكمال قدرته ﴿وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ ويُخرج عن فضاء الظهور مرةً بعد أخرى بمقتضى قدرته واختياره، فكيف يقاوَم ويقاس مع قدرته سبحانه هذه.

وكيف يطيق أحدٌ أن يقوم بمعارضته تعالى شأنه أن يعارَض حكمه وينازَع سلطانه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يُسأل عن فعله، إنه حكيمٌ حميدٌ.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه بمقتضى سعة جوده ورحمته ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الستَّارُ المحَّاءُ لذنوب من تاب ورجع نحوه مخلصاً نادماً، وإن كبُرت وكثُرت، فإن رحمته أوسع منه وأشمل ﴿ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ المحبُّ لإخلاص المذنبين وتوبة

ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ....

المستغفرين وضراعة الخائفين المخبتين، المستحيين من الله، النادمين على ما صدر عنهم وقت الغفلة والغرور.

وكيف لا يودُّ ولا يغفر سبحانه مع أنه:

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ المستوي على عروش ما ظهر وبطن بالاستيلاء التام والاستقلال الكامل ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ العظيم في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، إذ لا وجودَ لسواه، ولا كونَ لغيره، فظهر أنه ﴿فَعَّالٌ﴾ بالاستقلال الاختيار ﴿ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ وجميعُ الأفعال الجارية في ملكه وملكوته صادرةٌ عنه باختياره وبلا شركةٍ فيها ومظاهرةٍ، إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء بمقتضى علمه الشامل وحكمته الكاملة، سواءً كان إنعاماً أو انتقاماً.

ثم أشار سبحانه إلى تسلية حبيبه ﷺ، وحثَّهُ على الصبر بأذيات قومه وتكذيبهم إياه مكابرةً فقال:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي قد أتاك ووصل إليك وثبت ذلك عندك يا أكمل الرسل بالتواتر ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ أي أخبار الأمم السالفة وقصة تكذيبهم للرسل والكتب وانتقامنا عنهم بعد ما بلغ أذيات الرسل غايتها يعني.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي وملاءه كيف كذّبوا أخاك موسى الكليم عليه السلام، وكيف قصدوا لمقته وهلاكه مراراً، وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم ﴿وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ المردودَ، كيف كذبوا أخاك صالحاً عليه

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾
فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾

السلام، وكيف انتقمنا عنهم، تذكر يا أكمل الرسل قصصهم مع رسلهم وما جرى عليهم من لدنّا، فاصبر على ما أصابك من قومك فإن ذلك من عزم الأمور، فسننتقم عنهم، مثل ما انتقمنا من الأمم السالفة الهالكة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك وبكتابك ﴿فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾﴾ أعظم من تكذيب الماضين، إنهم سمعوا قصصهم، وما جرى عليهم بشؤم تكذيبهم، فلم يعتبروا، ولم ينزجروا، فسيلحقهم أشدّ مما لحقهم من العذاب عاجلاً وآجلاً.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱللَّهُ﴾ المطّلعُ لعموم ما جرى في ضمائرهم من الكفر والشقاق ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ أي وراء هوياتهم الباطلة وتعيناتهم العاطلة ﴿مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ لهم بالإحاطة الذاتية، بحيث لا يفوت منه سبحانه شيءٌ من جرائمهم وآثامهم، سيجازيهم عليها بمقتضى إحاطته، وهم منكرون إحاطته، لذلك ينكرون كتابه الجامع لجميع الكمالات الدنيوية والأخروية الغيبية والشهادية، ينسبونه إلى الشعر والكهانة وأنواع التزويرات والمفتريات الباطلة عناداً ومكابرة، مع أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ﴾ فرقانٌ بين الحق والباطل والهداية والضلال ﴿مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾﴾ عظيمٌ عند الله، مبينٌ مبيّن لأحكام الدين المستبين. مثبتٌ ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ هو حضرة العلم الإلهي ولوح قضائه، المصونِ عن مطلق التحريف والتغيير.

جعلنا الله ممن تنور بنور الإيمان، وانكشف بحقية القرآن الفرقان.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي المنكشف بحقية القرآن، هداك الله إلى حقيقته: أن تعتقد إلى أن تنكشف أن مطلق الحوادث الجارية في عالم الكون والفساد، إنما هو مثبتٌ في لوح القضاء المصون عن سمتَ التبديل والتغيير، إذ ما يبدل القول والحكم لدى القادر الحكيم العليم.

والتصرفاتُ الواقعة في عالم المُلك والملكوت إنما هي مرفوعةٌ مرسومةٌ فيه على وجهها، بحيث لا يشذّ شيء منها عنه، والقرآنُ المجيد منتخبُ منه، حاوٍ على عموم ما ثبت فيه إجمالاً.

ومن أدركته العناية السرمدية وجذبته الجذبة الأحدية، تفطن من رموز القرآن إلى نور الأسرار والمعارف التي فصلها الحق في لوح قضائه وحضرة علمه، لكن الواصل إلى هذه المرتبة العلية أقلّ من القليل.

وبالجملة فكن راجياً من الله الجميل، ولا تيأس من رَوح الله، إنه لا ييأس من رَوح الله إلا القوم الخاسرون.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الطارق

لا يخفى على من تحقق بحيطة الحق وحفظه ورقابته لعموم عباده: أن كل ما صدر عمن صدر، وعلى أي وجهٍ صدر، فإن الله عليه رقيبٌ عتيدٌ، يحافظه ويراقبه سواءً كان خيراً أو شراً، نفعاً أو ضراً، عملاً أو اعتقاداً، حالاً أو مقاماً.

والسر في ذلك أن لا يغفل العبد عن الله بحال من الأحوال وشأنٍ من الشؤون، وكيف يغفل عنه سبحانه، فإنه مستمدٌ منه سبحانه دائماً في عموم حالاته حسب أنفاسه ولحظاته وخطراته.

لذلك أقسم سبحانه لإثبات هذا المطلب العزيز بما أقسم؛ ليكون العبد على ذكرٍ من ربه وحضورٍ عنده، بحيث لا يغيب عنه لمحةً وطرفةً، حتى لا يصدر عنه ما لا يرضى به سبحانه بمتابعة شياطين القوى الأمارة، فقال سبحانه متيمناً:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المراقب لأحوال عباده كيلا يوسوس في صدورهم الشيطانُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم يحفظهم عن موجبات الندامة والخذلان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يهديهم إلى طريق الجنان.

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ....

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي وحق سماء الأسماء اللاهوتية المصونة عن مطلق التغيير والزوال، المتعالية عن مدارك الوهم ومشاعر الخيال ﴿وَ﴾ بحقٍّ ﴿الطَّارِقِ ﴿١﴾﴾ الذي يتخطف منها على آحاد الرجال، بعد ما هاجروا عن بقعة الناسوت، متشمرين بالعزيمة الخالصة نحو فضاء اللاهوت بمقتضى الجذب الجِبِلّي والميل الفطري المعنوي.

ثم أبهمه سبحانه على حبيبه تعظماً وتفخيماً فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أيها المظهر الكامل اللائق لفيضان الطوارق اللاهوتية ﴿مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾﴾ حين كنت مقيَّداً في عالم الناسوت، وبعد ما أطلقك الحق عن قيود عالم الناسوت، عرفتَ أن الطارق الذي يطرقك من عالم اللاهوت والجبروت.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ أي الجذبة المضيئة الأحدية اللامعة المتشعشعة الناشئة من عالم العماء، الذي هو محل كمال الجلاء والانجلاء الذاتي والجذوة المشتعلة الساقطة من نار العشق والمحبة المفرطة الإلهية إلى شجرة ناسوتك القائلة لك بعد ما أمرك بالانخلاع عن كسوة ناسوتك: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [٢٠-طه:١٢].

واطرح لوازم نشأتك بعد ما سمعت ما سمعت يا أكمل الرسل، فاسترح في مقعد صدقك عند ربك ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ [٢٠-طه:١٢،١٣] لمظهرية المعارف والحقائق ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[٢٠-طه:١٣]

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ....

إليك الآيات البينات لمراسم التوحيد واليقين، وبالجملة وحق هذين القَسَمَين العظيمين ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي ما كل نفسٍ من النفوس الزكية والخبيثة ﴿لَّمَّا﴾ أي إلا ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ من قِبل الحق يحفظ لها أقوالها وأفعالها وأحوالها وحالاتها ومقاماتها، حتى لا يدفعها ويسلمها إلى المقادير التي حصل منها، وصدر على طِبقها حتى جوزيت على مقتضاها.

وبعد ما سمع الإنسان ما سمع من الحكمة العلية الإلهية.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المركَّبُ من الجهل والنسيان، وليتأمل في منشئه ﴿مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ يعني فليراجع وجدانه، ولينظر مبدأه ومنشأه، حتى يظهر له من أي شيء قدّر وجوده، فعرف قدره، ولم يتعد طوره.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ﴾ مهينٍ مسترذلٍ ﴿دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ مدفوقٍ مصبوبٍ في الرحم على وجه التلذذ والاضطراب من كلا الجانبين. مع أنه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ أي من ظهر الرجل وصدر المرأة.

وبعد ما تأمل الإنسان في مبدئه وعرف أصل منشئه، تفطن منه إن وفَّقه الحق إلى قدرة الصانع العليم الحكيم الذي خلقه من هاتين الفضلتين الخبيثتين، وربّاه إلى أن صار بشراً سوياً، قابلاً لفيضان أنواع المعارف والحقائق، لائقاً للخلافة الإلهية، مهبطاً للوحي والإلهام، وتفطَّن أيضاً بل جزم وتيقن أن من قدِر على خلقه وإيجاده ابتداءً

إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ
ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ....

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ وإعادته وبعثه من القبور ﴿لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ البتة، فكيف ينكر قدرته سبحانه على البعث والحشر، مع أن الإعادة أهون عنده من الإبداء.

تأملوا أيها المجبولون على فطرة العبرة والتكليف.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ وتُكشف الستائر، ويُظهرُ ما خفي في الضمائر من الإنكار والإصرار وفواسد النيات والأعمال.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي للإنسان حينئذٍ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يدفع عن نفسه ما يترتب على أعماله وأحواله من العذاب والعقاب على وجه الجزاء ﴿وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ يدفعه عنه وينصره، إذ كل نفس يومئذٍ رهينةٌ بما كسبت، مشغولةٌ بجزاء ما جرت، خيراً كان أو شراً.

ثم أقسم سبحانه بما أقسم لإثبات حقية القرآن وفضله وكونه بريئاً عن قدح القادحين وطعن الطاعنين فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ أي وحقِّ سماء الأسماء اللاهوتية التي هي في أعلى درجات الارتفاع ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ والعود، إذ تدور على هياكل عالم الناسوت طرفةً، وترجع في الحال كالبرق الخاطف آثارها إلا لأرباب العناية من البدلاء الذين بُدِّلتْ لوازم ناسوتهم في المرة بخواص اللاهوت، ولا تدوم وتستقر.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض الطبيعة والهيولى القابلة لانعكاس ما لمع عليها من سماء الأسماء ﴿ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي التأثرِ والتشقق بقبولِ أثر مؤثرات عالم

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾

اللاهوت، يعني: وبحق هذين القَسَمين العظيمَين.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ فاصلٌ بين الحق والباطل، والهداية والضلال.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ كما زعمه المسرفون المفرطون في شأنه، بل هو جدٌّ كله، صدر عن حكمةٍ بالغةٍ إلهيةٍ لمصلحة الهداية والرشاد لعموم العباد. وبالجملة﴿ إِنَّهُمْ﴾ يعني طغاة مكة ﴿ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ ويمكرون مكراً في إبطال القرآن وإطفاء نوره مراءً ومكابرةً، فيرمونه بأنواع القدح والطعن الفائض على عموم الأعيان، وينسبونه إلى ما لا يليق بشأنه.

﴿وَأَكِيدُ﴾ أيضاً في أخذهم وانتقامهم بعد ما استحقوا الأخذَ والانتقامَ ﴿كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ على سبيل الاستدراج والإمهال، بحيث لا يحتسبون، بل يحملون إمهالنا على الإهمال، لذلك يغترون ويجترئون في قدحه وطعنه.

وبعد ما سمعتَ ما سمعت يا أكمل الرسل:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنت أيضاً، ولا تستعجل بانتقامهم، ولا تشتغل بالدعاء عليهم سريعاً، إذ إمهالنا إياهم ابتلاءً منا لهم، وفتنةٌ جالبةٌ لمصيبةٍ عظيمةٍ، ومتى تحققت يا أكمل الرسل ما قلنا لك ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ وأعرِض عن المراء والمجادلة معهم، وانتظر لمقتهم، وترقب لهلاكهم ﴿ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ إمهالاً يسيراً في زمان قليل، وسيظهر عن قريبٍ دينُك على عموم الأديان، وهم يُقهرون ويُستأصلون.

جعلنا الله ممن صبر وظفر على مبتغاه بمنِّه ولطفه.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوكل على الحق، المتبتلُ نحوه بالعزيمة الخالصة: أن تفوِّض عموم أمورك إلى ربك، بحيث لا يخطر ببالك أن تلتفت إلى تحصيلها باستدراكٍ، وتتخذه كفيلاً حسيباً كافياً بجميع حوائجك وأشغالك، وبالجملة كن فانياً في الله يكفيك جميع مؤنك، إذ الكل بالله ومن الله وفي الله، بل أنت ما أنت، بل أنت[1] هو، بل هو هو، لا حول ولا قوة إلا بالله، كل شيء هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون.

(١) هذا الكلام مدسوس على الشيخ ولم يكن الشيخ من اهل وحدة الوجود وإنما إحيا الشيخ قدس سره سنة جده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سُورَةُ الأَعْلَى

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعلى

لا يخفى على الموحدين الواصلين إلى مقام التمكين بلا تلعثمٍ وتلوينٍ: أن العارف المحقق بعد ما وصل إلى مقام الفناء في الله، وحصل دون ذروة التوحيد الذاتي والبقاء السرمدي، لم يبق في عين شهوده سوى الوحدة الذاتية الصرفة، الخالية عن تعدد الأسماء والصفات مطلقاً.

إذ تلوُّن الأوصاف وتعدد الأسماء من جملة الحجب والغطاء عند أرباب المحبة والولاء، المتحققين بعالم العماء الذي لا يمكن التعبير عنه مطلقاً لاضمحلال الحجب والآلات التي بها يُتوسل إلى التعبير والإشارة والرمز والغمز والإيماء.

وبالجملة لا يسع حينئذٍ سوى التقديس والتسبيح، إذ لا يحتاج المسبِّحُ المقدِّسُ إلى التوسل مطلقاً.

لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ بعد ما وصل إلى القرب والشهود بالتسبيح، ولقَّنه بالتقديس المقارن باسمه الأعلى، لا على وجه الإسمية والإضافة، ولا على وجه الوصفية، إذ الإسم والوصف وسائر الاعتبارات لا يسع في ذلك المقام؛ ولا على معنى التفضيل، بل على وجه العجز والقصور عن الإدراك

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ ....

والتغيير والإشارة ومطلق الوسائل المؤدِّية إلى الإخبار عنه سبحانه.

إذ كلّتْ حينئذٍ ألسنة الاستعدادات عن مطلق الإيماء والإشارات، وانحسرت المدارك والعقول، فصار الكل مبهوتاً حائراً هائلاً، بل فانياً مضمحلاً، لم يبق له رسمٌ ولا اسمٌ ولا خبرٌ ولا أثرٌ.

وبعد ما وقع ما وقع، فقد وقع أجره على الله بأمره بما أمره بمقتضى حكمته وعلمه حسب إرادته ومشيئته، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المتعالي ذاتُه عن أحلام الأنام وأفهام الخواص والعوام ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ لعموم مظاهره يدعوهم إلى دار السلام ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾لخواصهم يهديهم إلى أرفع المكانة وأعلى المقام.

﴿سَبِّحِ ﴾ يا من غرق في تيار بحر زخَّار الوجود، وتلاشى في لمعات شمس الشهود ﴿ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ وإن لم يبق لك التوسل بمطلق الأسماء، بعد ما فنيتَ في المسمى، ثم تَذَكَّر بمقتضى حصة عبوديتك نِعَمَهُ الواصلة إليك، بعدما فزتَ بخلع البقاء، وتذكيراً استحضاراً لما جرى عليك من الشؤون والأطوار في نشأة ناسوتك، إذ هو سبحانه القادر.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وأوجد عموم ما خلق وأظهر ﴿ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ خَلَقَ الكل بحوله وقوته، مع ما يتعلق به، ويترتب عليه في معاشه ومعاده.

﴿وَ﴾ هو ﴿ ٱلَّذِى قَدَّرَ ﴾ المقادير ودبر التدابير وأحسن التصاوير وأودع فيها ما أودع من الاستعدادات والقابليات الجالبة لأنواع الكمالات، وبعد

فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ ....

ما عدَّلها وهيأها ﴿فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي هدى الكلَّ إلى ما جُبلوا لأجله بوضع التكاليف المشتملة على الأوامر والنواهي والأحكام الواجبة والمندوبة والأخلاق المرضية والآداب السنية؛ ليتمرنوا على الأمور المذكورة، ويترسخوا فيها بالعزيمة الخالصة، حتى يفيض عليهم طلائع سلطان الوحدة الذاتية المنقِذة لهم عن ورطة الناسوت، الموصلة إلى فضاء اللاهوت.

﴿وَ﴾ هو سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ﴾ بكمال قدرته ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي أنبت وأظهر المرعى الحاصل في مرتع الدنيا بأجناسها وأنواعها وأصنافها؛ تتميماً لتربية دواب الطبائع وحوامل الأركان القابلة لتأثيرات عالم الأسماء والصفات؛ ليتقوموا بها، ويستعدوا لفيضان المعارف والحقائق، وأنواع الكمالات اللائقة التي هم جُبلوا لأجلها.

وبعد ما حصل لهم ما حصل من الكمالات المنتظرة في نشأة الناسوت.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ سبحانه مرعى العالم مع كمال نضارتها وبهائها في نظر شهود أولي الألباب، الناظرين بنور الله من وراء سُدل الأسماء والصفات ﴿غُثَآءً﴾ يابساً، بل سراباً باطلاً، بعد ما تحققوا بمقر التوحيد، ورفعوا وسائل الأوصاف والأسماء عن البين، فصار الكل حينئذٍ هباء ﴿أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾﴾ عدماً لا يبقى، أسودَ موحشاً مظلماً، بعد ما كان أخضرَ مفرحاً.

ثم التفت سبحانه نحو حبيبه ﷺ على سبيل التفضل والامتنان فقال على وجه الوِصاية والتذكير:

﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ ونجعلك قارئاً مراقباً على وجوه الوحي والإلهام النازلِ من

فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ ....

لدنّا عليك، مع أنك أميٌ لم يعهد منك أمثالها ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ يعني عليك أن تضبط هذه النعمة وتحفظها على وجهها، وتواظبَ على أداء شكرها بلا فوت شيءٍ منها وزيادةٍ عليها وتحريفٍ فيها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ العليمُ الحكيمُ نسيانه منك، بأن نسخ تلاوته أو حكمه أو كلاهما على مقتضى حِكمته[1] المتقنة المستحكمة ومصلحته.

وبعد ما سمعت يا أكمل الرسل ما سمعت قَدُم[2] عليها، ولا تغفل سراً وجهراً، وحالاً ومقالاً عنها.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿يَعۡلَمُ﴾ منك ﴿ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾ أي ظاهرَك وباطنَك، يعني ما امتثلت بظاهرك من مقتضيات الوحي والإلهام، وبباطنك من الإخلاص في النيات والحالات والخلوص في العزائم والمقامات.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أنا بمقتضى عظيم جودنا معك ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ ونوفقك على التدين والتحفظ بمقتضيات الوحي ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾ أي للطريقة السهلة السمحة البيضاء.

وبعد ما يسرنا لك وسهَّلنا عليك طريق الهداية والإرشاد.

﴿فَذَكِّرۡ﴾ يعني عِظ بالقرآن وبيِّن الأحكام الموردة فيه للناس ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾ أي سواءً نفعت عظتك وتذكيرك إياهم، أو لم تنفع، إذ ما عليك

---

(١) في المخطوط (المنعمة).

(٢) في المخطوط (قدم).

سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ....

إلا البلاغ، وعلينا الحساب.

ولا تيأس يا أكمل الرسل من مبالغتهم في الإعراض والانصراف عنك وعن تذكيرك.

إنه ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ ويتعظ بتذكيرك ﴿مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ عن بطش الله، وعن كمال قدرته على وجوه الانتقام.

وبعد ما تاملتَ في القرآن مراراً وتدبرتَ في فحاويه تكراراً، تنبَّه على حقيقته، فتذكر به، وامتثل بما فيه.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي يعرض عنها وعن سماعها يعني الذكر والعظة التي هي القرآن ﴿ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ أي الكافر الذي جُبل على فطرة الشقاوة وجِبِلَّة الجهل والغباوة.

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى﴾ ويدخل في النشأة الأخرى ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ التي هي بأضعاف نار الدنيا في الحرقة والحرارة، لذلك قال: (كبرى) أو في الدرك الأسفل منها وهو أكبرها.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما دخل في نار القطيعة والحرمان بأنواع الخيبة والخذلان ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ يعني يستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ حياةً نافعةً طيبةً كسكان بقعة الإمكان، الداخلين في نيران الشهوات ودركات الأماني والآمال، لا يموتون حتى يستريحوا، ولا يحيون بلا منيّةٍ إلا منيّةَ وغلَّ الأمل وسلسلة الحرص.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ﴾ ....

وبالجملة هم معذبون في عموم الأوقات والأحوال، لا نجاة لهم عنه ما داموا في قيد الحياة، وبعد ما ماتوا بأنواع الحسرات، سيصلون في أسفل الدركات وأصعب العقوبات.

هب لنا جذوةً من نار المحبة، تنجينا عن نيران الإمكان في النشأة الأولى والأخرى.

ثم قال سبحانه على سبيل التنبيه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بالدرجة القصوى والمرتبة العليا ﴿مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ وتطهرَ عن أدناس الطبائع وأكدار الهيولى من الميل إلى الدنيا وما فيها من اللذات الفانية والشهوات الغير الباقية، وتوجه نحو المولى بالعزيمة الخالصة.

﴿وَذَكَرَ﴾ في أوائل الطلب ومبادئ الإرادة ﴿اسْمَ رَبِّهِ﴾ أي جنس الأسماء الإلهية متفطناً بمعناها، يقظانَ فرحانَ متشوقاً ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ ومال نحوه سبحانه في الأوقات المأمورة المحفوظة، محرماً على نفسه عموم مبتغاه من دنياه.

﴿بَلْ﴾ هؤلاء الحمقى الهلكى التائهون في تيه الضلال، المغلولون بأغلال الأماني والآمال ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ المستعارة الفانية على الحياة الحقيقية الأخروية الباقية، لذلك يجمعون أسباب الفساد والإفساد ولا يتزودون ليوم الميعاد.

﴿وَ﴾ الحال انها أي ﴿الآخِرَةُ﴾ وما وُعد فيها من اللذات الروحانية الباقية

خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿خَيْرٌ﴾ مما في الدنيا وأمانيها ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ وأدوم بحيث لا انقطاع لها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي وعظك الحق به يا أكمل الرسل، ووصَّاك بالفلاح ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي مثبتٌ مسطورٌ على وجهه، وتلك الصحف ﴿صُحُفِ﴾ جدك يا أكمل الرسل ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ الفائقُ في الخلة والفلاح على عموم أرباب الصلاح والنجاح ﴿وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ الكليمُ الفائزُ من عند الله بالفوز العظيم، وهو مرتبة التكليم مع الله العزيز العليم.

جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأخروي الحقيقي والنجاح المعنوي: أن تزكيَ أولاً نفسك عن مطلق الرذائل العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، وتصفي سرَّك عن الميل إلى مزخرفات الدنيا الدنية وأمانيها الغير الهنية، فلك أن ترغب نفسك عن مقتضيات الإمكان، ولا تغريها إلى لذاتها وشهواتها، فعليك أن تلازم الخلوة والخمول، وتجتنب عن أصحاب الثروة والفضول، حتى يعينك الحق إلى التلقي بالقبول بما يوجبك الفلاح والفوز بالنجاح.

افتح لنا أبواب رحمتك إنك أنت الفتاح.

سورة الغاشية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الغاشية

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخروية، المتحققين بظهور الحق حسب النشأتين: أن الوقوف بين يدي الله وعرض الأعمال عليه سبحانه والحساب عليها والجزاء على مقتضاها مشهودةٌ للعارف المحقق، مكشوفةٌ عنده في كل آنٍ وزمانٍ، وبعد الحساب والجزاء فرقةٌ منهم رابحون مقبولون عند الله، وفرقة خاسرون مردودون.

فالمقبولون في كنف جوار الله مسرورون متنعمون والمردودون في نار القطيعة والحرمان محرومون مطرودون.

لذلك أخبر سبحانه في كتابه بطريق المبالغة والتحقيق مخاطباً لحبيبه ﷺ فقال بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ القادر المقتدر على عموم مقدوراته حسب النشأتين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ على عموم عباده ينبههم نحو المرجع والمعاد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم يهديهم إلى سبيل الرشاد.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أي قد أتاك ووصلَ إليك يا أكمل الرسل ﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ....

أي الداهيةِ العظيمةِ التي تغشى الناس وتحيط بهم يوم القيامة بشدائدها حين وَقَفوا بين يدي الله للعرض والجزاء، وهم حينئذٍ من شدة الهول والفزع حيارى سكارى تائهون هائمون مرعوبون[1] عما يُفعل بهم، وكيف يحكم عليهم.

وبعد ما أُخذوا للحساب وحوسبوا:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ ذليلةٌ شاخصةٌ منكوسةٌ.

﴿عَامِلَةٌ﴾ يومئذ بأعمال لا تنفعها كالتوبة والتوجه وطلب العفو والمغفرة بعد مضي أوانها ﴿نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ مبالغةٌ في التعب والمشقة، رجاء أن يعفى عنها ويغفل لها، فلا تنفعها حينئذٍ عملها، وإن أتعبت نفسها لانقضاء نشأة الاختبار المأمورة فيها الأعمالُ.

﴿تَصْلَىٰ﴾ وتطرح حينئذٍ ﴿نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ في نهاية الحر والحرقة، تأكيداً وتشديداً لعذابها.

﴿تُسْقَىٰ﴾ عند إشرافها على الهلاك من شدة العطش ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ متناهيةٍ في الحرارة، وكيف لا، قد أوقدت حولها نار جهنم منذ خلقت، هذا شرابهم.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ شبرقٍ يابسٍ أمرُّ من الصبر، وأبشعُ من جميع الأشياء البشعة، ومع نهاية بشاعته ومرارته وشدة حرارته.

(١) في المخطوط (تائهين هائمين مرعوبين).

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ....

﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ حتى يزيد في قوتهم ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولا يدفع ﴿مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾، وبالجملة لا يفيد البدن أصلاً.

﴿وُجُوهٌ﴾ أخرُ ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ متنعمةٌ مبتهجةٌ مسرورةٌ.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي تحملته من أنواع المتاعب والمشاق في نشأة الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ سيما بعد ما رأت ما ترتب على سعيها من الجزاء.

وكيف لا ترضى إذ هي متنعمة بسبب ذلك بالسعي:

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ متعاليةٍ أوصافُ نزاهتِها ونضارتِها عن مدارك العقول ومشاعر الحواس، مصفاةٍ عن مطلق المكاره. بحيث ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ كلمةً ﴿لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾ لا فائدة لها، ولتتميم نزاهتها ونضارتها:

﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ ماؤها في غاية البياض والصفاء ﴿جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ في خلالها وأنهارها أبداً، ولتتميم ترفههم وتنعمهم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ مرتفعةٌ عن الأرض على قوائمٍ طوالٍ.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ أوانٍ لا عروة لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ بين أيديهم.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائدُ في غاية الصفاء، متلونةٌ بالألوان المطبوعة ﴿مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾ مفروشة بعضها في جنب بعض.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ ....

﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بسطٌ أخرُ فاخرةٌ متلونةٌ ﴿مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ مبسوطةٌ بين أيديهم، فلا تستبعدوا ولا تستغربوا عن قدرة الله أمثال هذا.

﴿أَ﴾ ينكرون ويستبعدون أولئك البعداء المنكرون المفرطون قدرة الله القدير الحكيم على أمثال هذه المقدورات ﴿فَلَا يَنظُرُونَ﴾ بنظر التأمل والاعتبار ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ على الهيكل الغريب والشكل العجيب، تحمِل كثيراً، وتأكل قليلاً، وتصير منقادةً لكل أحد حتى النسوان والصبيان، مع عظمة جسمها وكمال قوتها وقدرتها، وتتحمل على الجوع والعطش مدةً وتتأثر من المودة والغرام، وتسكر منها إلى حيث تنقطع عن الأكل والشرب زماناً ممتداً، وتتأثر أيضاً من أحسن الأصوات والحدي، وصارت من كمال التأثر إلى حيث تُهلك نفسها من سرعة الجري، وتجري الدمع من عينها.

وبالجملة ظهر منها حين حُدِي عليها عجائب كثيرة، يتفطن بها أهل العبر والاستبصار.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ بلا عمدٍ وأسانيدَ منثورةٍ عليها من الكواكب التي لا ندرك حقائقها وأوصافها وأشكالها وطبائعها وحالاتها، وما لنا منها إلا الحيرة والنظر على وجه العبر.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ الرواسي ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ على وجه الأرض، مشتملةً

وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ....

على معادن ومياه وأجسام.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي هي مقر أنواع الحيوانات وأصناف المعادن وأنواع النباتات ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ مُهِدت وبُسِطت.

ومع وضوح هذه المقدورات العظيمة الشأن، الصادرة من الحكيم المنان ذي الطول والإحسان، ينكرون قدرته سبحانه على المقدورات الأخروية.

فالعجب كل العجب عن من شهد آثار القدرة الغالبة الإلهية في نفسه وفي الآفاق، فتردد في المقدورات الأخر الأخروية، وأنكر عليها.

وما ذلك إلا من ظلمات الألف والعادات المترتبة على الأوهام والخيالات الباطلة والطارئة على أهل الغفلة والضلال، المسجونين في سجن الإمكان بأنواع الخيبة والخسران، وإلا فظهور آثار القدرة الغالبة الإلهية أجل وأعلى من أن تتردد فيه الآراء، أو تنكر عليه الأهواء، وبالجملة: من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وبعد ما سمعت ما سمعت من كمال قدرة الله:

﴿فَذَكِّرْ﴾ يا أكمل الرسل بالقرآن بمقتضى ما أُمرت به وألهمت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ مبلِّغٌ فلا بأس عليك إن لم ينظروا ولم يعتبروا، ما عليك إلا البلاغ، فلا تقصر في تبليغك.

إذ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ مسلطٍ ملزِمٍ مكرِهٍ للقبول البتة.

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ ﴾ يعني لكن من أعرض وبغى بعد تذكيرك وتبليغك ﴿ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وطغى بما سمع منك، واستهزأ معك وكذبك.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ﴾ العزيزُ الحكيمُ المقتدرُ على وجوه الانتقام ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الذي لا عذاب أعظم منه وأشد، وهو حرمانهم عن رتبة الخلافة وخلودهم في نار القطيعة بأنواع الخذلان والخسران.

وبالجملة بلّغ يا أكمل الرسل جميعَ ما أنزل إليك على كافة البرية، ولا تبال بإعراضهم وتكذيبهم.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ ﴾ لا إلى غيرنا من الوسائل والأسباب العادية ﴿ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ ورجوعهم، كما أن منا مبدأهم وصدورهم.

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما رجعو إلينا صاغرين ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ على أعمالهم التي صدرت عنهم في نشأة الاختبار، وبعد ما حاسبناهم، جزيناهم أحسن الجزاء، إن كانوا من أصحاب اليمين، وعذبناهم بأنواع العذاب والنكال، إن كانوا من أصحاب الشمال.

رب يسر حسابك علينا، وقِنا عذابك، إنك أنت الرؤوف الرحيم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو الحق الحقيق بالتوجه والرجوع: أن ترجع إلى الله قبل حلول الأجل المقدَّر للقيامة الصغرى والكبرى، وتفوض أمورك كلها إليه سبحانه بالإرادة والرضا، وتنخلع عن لوازم ناسوتك بالمرة.

وبالجملة عليك أن تتصف بالموت الإرادي قبل حلول الأجل الاضطراري الطبيعي، حتى تكون عند ربك دائماً وفي كنف حفظه وجواره، بلا انتظارٍ منك إلى الطامة الكبرى والحساب والجزاء، ولا يتيسر عليك هذا إلا بتوفيق الله وجذبٍ من جانبه، فلك السعيُ والاجتهادُ، واللهُ الملهمُ للرشاد والهادي إلى سبيل السداد.

سورة الفجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الفجر

لا يخفى على من ترقى عن حضيض الغفلة وغور الغرور إلى ذروة المعرفة وأوج السرور: أن التدني من مضيق الناسوت والترقي نحو فضاء اللاهوت إنما يحصل بالجذبةِ الغالبة الإلهية المثنية للقوى البهيمية عن مقتضياتها الطبيعية مطلقاً، المعطلةِ للوهم والخيال عن التصرف في عالم المثال، الرادعةِ للعقل الفطري المنشعب من العلم الإلهي، المقتبسِ من مشكاة لوح القضاء عن متابعة القوى الداركة البشرية وآلاتها[1] وسفارة الحواس الظاهرة والباطنة إياهم، ومعاونة الواهمة المتخيلة اللتَين هما من جنود إبليس الأمّارة بالسوء.

ولا شك أن هذا الترقي إنما يتيسر بعد الموت الإرادي وبعد التبدل عن مقتضيات الأوصاف البشرية.

وحصولُه إنما هو بالميل الفطري المترتب على الرابطة المعنوية والعلقة الحقيقية التي هي مناط التكاليف الإلهية المثمرة لأنواع المعارف والحقائق اللدنية، المنتشئة عن صفاء مشرب التوحيد.

لذلك أقسم سبحانه بمسالك أرباب السلوك المهاجرين عن عالم

(١) في المخطوط (والاقها).

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ....

الناسوت نحو فضاء اللاهوت، وابتدأ بفلق صبح الانجلاء اللاهوتي، فقال بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ﴾ المدبر لأمور عباده ليخرجهم من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة ﴿ الرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بوضع التكاليف الشاقة القالعة لعرق الإلف والعادة الموروثة لهم من مقتضيات عالم الناسوت ﴿ الرَّحِيمِ﴾ لهم يميتهم بالموت الإرادي عن لوازم بشريتهم ولواحق هويتهم الباطلة الإمكانية.

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ أي وحق انفلاق صبح السعادة المتنفسِ بأنفاس الرحمانية المتلألئ من سماء العماء وأفق عالم الأعلى اللاهوتي.

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ أي وبحق ليالي الحواس العشر المقبلة إلى الإدبار والانمحاء عند انجلاء الفجر اللاهوتي وصبح العماء الذاتي.

﴿وَالشَّفْعِ﴾ أي شفع الملوَين الجديدَين،وارتفاعهما عن العين وانمحائهما عن البين ﴿وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ أي الوجود الوحداني المطلق المنزَّه عن التعدد والتكثر مطلقاً في ذاته.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ أي ليلِ العدم المظلمِ في ذاته ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ وذهبت ظلمته بامتداد أظلال الوجود وشروق شمس الذات عليه.

﴿ هَلْ﴾ يُحتاج ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في كل واحدٍ من المقسمات العظيمة الشأن ﴿قَسَمٌ﴾ ويمينٌ يؤكدها ﴿ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ عقلٍ فطري خالصٍ عن

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ ....

شوب الوهم والخيال، خالٍ عن مزاحمة مطلق الألف والعادات الحاصلة من الرسوم والتقليدات، الناشئة من ظلمات الطبيعة.

وبالجملة أقسم سبحانه بحق هذه المقسمات الرفيعة القدر والمكان: أنه سبحانه يعذب أصحاب الزيغ والضلال المقيدين بسلاسل الحرص وأغلال الآمال في الدنيا بشهوات الإمكان، وفي الآخرة بدركات النيران، يعني كفار مكة خذلهم الله.

أستبعدت يا أكمل الرسل تعذيبنا إياهم وانتقامنا عنهم؟

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم تعلم ولم تخبر بالتواتر الموجب للجزم واليقين ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ يعني كيف أهلك عاداً.

﴿إِرَمَ﴾ اسمٌ لبنائهم وبلدهم ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ أي الأساطين الطوال شديدة الأساس، رفيعة السمك، عريضة الجدار.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ﴾ ولم يوجد ﴿مِثْلُهَا﴾ أي مثل بنائهم وبلدهم ﴿فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ في الإحكام والرفعة وأنواع النزاهة واللطافة، وهم كانوا أكثر الناس أعماراً وأولاداً وأموالاً وجاهاً وثروةً بأضعاف هؤلاء المسرفين المفسدين، فأهلكهم سبحانه، واستأصلهم بعد ما أفرطوا في أطوارهم الخارجة عن حد الاعتدال ﴿وَثَمُودَ﴾ يعني كيف فعل بثمودَ أيضاً ما فعل من الهلاك، مع أنهم ﴿الَّذِينَ جَابُوا﴾ قطّعوا ونقّبوا ﴿الصَّخْرَ﴾ أي صخور الجبال ﴿بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ أي

وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ....

بوادِ القرى، واتخذوا فيها بلاداً حصينةً منيعةً من شدة قدرتهم وقوتهم، ومع ذلك أهلكهم سبحانه.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ الطاغي الباغي ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ أي ذي العسكر الكثير المشتملِ على المضارب والخيام، المشتملة على الأوتاد والأطناب.

وهؤلاء المذكورين هم:

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ واستكبروا على ضعفاء العباد اتكالاً بما عندهم من المال والجاه والثروة والسيادة.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي أنواع الكفر والظلم والعناد.

وبعد ما بالغوا في الفساد والإفساد:

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ أي نوعاً من العذاب، كأنه يُصّبُّ عليهم ويُمطَر كالماء من السحاب، وهو كناية عن ترادف موجات الهلاك وتتابعها، وبالجملة أهلكهم بأشد العذاب وأكثره.

ثم قال سبحانه مخاطبا لحبيبه ﷺ، منبِّهاً له على كمال قدرته على انتقام عصاة عباده:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك على كمال المعرفة واليقين ﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ أي مراقبٌ محافظٌ لطرق عباده، يرقبهم سبحانه كيف يسلكون نحوه: هل في سبيل الضلال والفساد، أم في طريق الهداية والرشاد؟ مع أن الكل مجبولٌ

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا
ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ....

على فطرة التوحيد لكن الحكمة الإلهية تقتضي الابتلاء والاختبار.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المذبذبُ بين الإحسان والكفران ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ اختبره وجرَّبه ﴿رَبُّهُۥ﴾ بالغنى واليسر ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بالجاه والثروة ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالأموال والأولاد ﴿فَيَقُولُ﴾ شكراً لما وصل إليه من النعم ومقتضيات الكرم: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ وتفضل عليَّ بما أعطاني من الخير والحسنى.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ ربه بالفقر والعسر بعد اليسر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ وقصَر على قدر كفايته وحاجته وقوتِ يومه، بحيث لم يزد على مؤنة معاشه ﴿فَيَقُولُ﴾ مشتكياً إلى الله باثاً[1] للشكوى عنده سبحانه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ وأذلني، حيث لم يعطِ لي ما أعطى لفلانٍ وفلان، مع أن الفقر خير من الغنى، إذ الفقر لو قُرن بالتسليم والرضا، لأدى صاحبه إلى جنة المأوى ومُلكٍ لا يبلى، والغنى لو لم يقرن بالشكر والإنفاق والإحسان، لأدى صاحبه إلى دركات الجحيم وأودية النيران، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً له عن هذا الاعتقاد بأن الكرامة باليسر والتوسعة، والإهانة بالفقد والفقر ﴿بَل﴾ الكرامةُ بالإنفاق والإطعام على فقراء الله، طلباً لمرضاة الله، وأنتم أيها الأغنياء ﴿لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ ولا تتفقدونه بالنفقة والكسوة.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ أي لا تأمرون غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) في المخطوط (بإثار الشكوك).

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ
إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ....

وإطعامه.

﴿وَ﴾ أنتم أيها الأغنياء ﴿تَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي ميراث الأيتام ﴿أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ أي أكلاً على سبيل الجمع بين سهامكم وسهامهم، بأن تأخذوا وتحرزوا أموالهم؛ لترقبوها لهم، وتزيدوها لأجلهم، فتأكلوا منها ومن غالِّها دائماً.

﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أنكم ﴿تُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ كثيراً مع حِرصٍ شديدٍ وأملٍ كاملٍ، ولا تطعمون الفقراء والمساكين خوفاً من نفاذه، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّآ﴾ ردعاً لهم عما هم عليه من حب المال والخلط عليهم بين الحرام والحلال، يعني: كيف تؤدون أيها البخلاء الممسِكون حسابها وقت ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي كُسرت واستوت، فصارت ﴿دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ وهباءً منبثاً.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وظهرت طلائعُ هيبته وآثارُ قهره وجلاله ﴿وَ﴾ جاء ﴿الْمَلَكُ﴾ أي الملائكة الموكَّلون من عنده سبحانه؛ لتنقيد أعمال العباد والحساب والسؤال ﴿صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي صفاً بعد صفٍ، حسب ما يؤمرون من قبل الحق.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أي أُحضرت تهويلاً على أصحابها وتفظيعاً.

يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ....

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة التي ظهرت فيها هذه الآثار ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ معاصيه وقول من يزجره عنها وينذره، فيندم عليها ويتأسف ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ أي من أين ينفعه التذكر والذكرى حينئذٍ، إذ نشأة الاختبار والتلافي قد انقضت.

وبعد ما جزم أنه لا نفعَ يومئذ لتذكره

﴿يَقُولُ﴾ متمنياً على وجه الحسرة والندامة: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ في الابتلاء والاختبار ﴿لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ ونجاتي في هذا اليوم، وبالجملة:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي لا يعذب أحدٌ من الزبانية مثلَ ما عذب هو نفسَه بالحسرة والندامة وأنواع الكربة والكآبة والخذلان.

﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ ويحكم ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ ونكاله ﴿أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ مثل ما أوثقه وأحكمه هو على نفسه، بأنواع الخيبة والخسران والغصة والحرمان، إذ العذاب الروحاني الطارئ من الندامة والخذلان، لا يُقاس شدة تأثيره إلى سائر العذاب الجسماني.

ثم أشار سبحانه إلى حُسن أحوال أرباب العناية والكرامة يومئذٍ من المؤمنين الموقنين الذين تزودوا في النشأة الأولى للأخرى، واتصفوا بالتقوى، ولم يعصوا في مدة أعمارهم إلى المولى، ولم يتبعوا الهوى، واطمأنوا ووطّنوا نفوسهم بما جرى عليهم من مقتضيات الانقضاء،

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

وبالجملة لم يضطربوا في السراء والضراء، ولم يبالوا في الشدة والرخاء، فيقال لهم يومئذ:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ المتقررة المتمكِّنةُ بمقام الرضا والتسليم.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ واصعدي على الطريق الذي هبطتِ عنه ﴿رَاضِيَةً﴾ متصفةً بالرضا كما كنتِ راضيةً بالقضاء في النشأة الأولى ﴿مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ مقبولةً مكرمةً عند المولى.

وبعد ما رجعتِ على الوجه المذكور:

﴿فَٱدْخُلِى فِى﴾ زمرة ﴿عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ الذين وصلوا إلى كنف جواري، وحصلوا في مقعد الصدق لدي.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ ٱدْخُلِي جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ أي جنة وحدتي واستريحي في خلوة لاهوتي.

جعلنا الله ممن خوطب بهذا الخطاب المستطاب، إنه هو الملهم للصواب، وعنده حسن المآب.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحِّد المترقب بهذا النداء، والمحبُّ المترصد لسماع هذا الصدى: أن تكون في عموم أوقاتك على حضورٍ مع ربك، بحيث لا يشغلك عنه سبحانه الالتفاتُ إلى غيره مطلقاً من الميل إلى الدنيا وأمانيها وعموم ما فيها، بل تكون مطمئناً راضياً بما جرى عليك من مقتضيات القضاء، مفوضاً أمورك كلها إليه، على وجه التسليم والرضا، متوجهاً بالعزيمة الخالصة نحو المولى، حتى تكون مخاطباً بهذا الخطاب المستطاب في كل نفسٍ من أنفاسك التي جرت عليك في عموم أوقاتك وحالاتك.

وبالجملة لا تغفل عن الله مطلقاً تقرّ بتشريف أمثال هذه الخطابات العلية والكرامات السنية.

جعلنا الله من زمرة المستيقظين المطمئنين.

سُورَةُ البَلَدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة البلد

لا يخفى على من وصل إلى مقام القلب الذي هو عبارةٌ عن البيت الحرام الحقيق والكعبة المعنوية التي دُحيت وبُسطت من تحتها أراضي الاستعدادات، وتوجهتْ نحوها زوار القابليات من كل فجٍ عميقٍ ومرمىً سحيقٍ من بوادي الإمكان وأودية الطبائع والأركان، إنما وصل إليه وتشرف بطوافه، ووقف بين يدي الله ناوياً الموت الإرادي، محرِماً عن لوازم الطبيعة ومقتضيات الإمكان من ميقات الطلب والإرادة الصادقة، مغتسلاً بزمزم التوبة والإنابة عن الالتفات إلى مطلق السوى والأغيار، متجرداً عن ثياب الغفلة وجلباب الاغترار، ساعياً بين صفاء المحبة ومروة المودة الإلهية بكمال الشوق والذوق، متوجهاً للوقوف إلى عرفات اللاهوت، متعرضاً عن عوارض عالم الناسوت، ذابحاً كبش نفسه تقرباً إلى الحي الذي لا يموت، منخلعاً عن جلباب البدن ولوازمه في منى الفناء، معاملاً مع الله في سوق البقاء، طلباً لربح اللقاء، حلَّ له أن يقاتل عند الحرام الإلهي مع جنود الأمّارة وكفار القوى والآلات، إلى أن يغلب عليهم ويهلكهم، ويصفي البيت العتيق الإلهي الذي هو قلب الإنسان الكامل عن أصنام الأحلام وأوثان الأماني

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ ....

والآمال الحاصلة من الخيالات والأوهام.

لذلك رخص سبحانه لحبيبه ﷺ القتال في حرم مكة، مع أن الحرمة فيها مؤبدة، فقال بعد ما تيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي اختار لنفسه بيتاً صورياً ليكون قبلةً لأصحاب الصورة، وبيتاً معنوياً ليكون وجهةً لأرباب القلوب ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعباده حيث يدعوهم إلى كعبة المقصود ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى عرفات الوحدة وبيت معمور الوجود.

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾ الذي هو كعبة آمال أرباب الإرادة والطلب، ألا وهو السواد الأعظم اللاهوتي، إذ لا حاجة بالقسم لأرباب المعرفة، بل أقسمَ لأصحاب الغفلة {بِهَذَا الْبَلَدْ} يعني مكة شرفها الله التي وُضعت بيتاً حراماً، لا يحل لأحدٍ أن يفعل فيها شيئاً من المحظورات المباح.

﴿وَ﴾ من جملة خواصك التي اصطفيناك وميزناك بها عن سائر الناس يا أكمل الرسل هي أنه ﴿ أَنتَ حِلُّۢ﴾ يعني أنت لجمعك وجامعيتك وحيازة مرتبتك عموم المراتب، مستحلٌ للتعرض، خاصةً للقتل والأسر في الحرم من بين عموم الناس، لمزيد فضيلتك ومنزلتك عند الله، وزيادة خصوصيتك ﴿ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ الذي حُرّم على عموم العباد، وإنما أُحل لك أيضاً ساعةً من نهارٍ لا أزيدَ منها، وبعد ذلك يَحرُم لك أيضاً.

﴿ وَوَالِدٖ﴾ أي أقسم بالوالد الذي هو آدم الصفيّ عليه السلام في عالم

وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ....

اللاهوت ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ ﴾ منه في عالم الطبيعة بعد هبوطها إلى مضيق الناسوت، وبالجملة بحقٍّ هذه المقسمات العظام.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ أي أظهرنا نشأة ناسوته مغموراً ﴿ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ تعبٍ ومشقةٍ كثيرةٍ، شاغلةٍ لعموم حواسه ومداركه، بحيث يستوعب ويحيط بجميع القوى والآلات حوائج المعاش وأسبابه، فاشتغلَ عن الله بسبب ذلك، وتركَ أمر معاده، فأخذه في كسب الأموال وجمع الحطام والآثام المبعِدة عن الحكيم العلام، فصار من غاية استغراقه بالدنيا نسي العقبى وزلت نعله عن طريق المولى، لذلك كذب وتولى، واستكبر واستولى، واستظهر بأمواله وأولاده، واستعلى وترقى أمره في الغفلة والغرور إلى أن طغى على الله، وبغى على عباده، وخيل أنه لا يُغلب ولا يُعلى، كما قال سبحانه مقرِّعاً عليه مسفهاً له :

﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ المجبول على الكفر والنسيان ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ ﴾ أي أنه لن يستطيع ﴿عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ ﴾ فينتقم عنه ويأخذه على ما صدر عنه من العتو والعناد.

ومن كمال بطره وغروره ومفاخرته على بني نوعه

﴿يَقُولُ ﴾ على سبيل الخيلاء والسمعة والرياء: ﴿أَهْلَكْتُ ﴾ وأنفقت في سبيل الله ﴿مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ ﴾ مالاً كثيراً ملبَّداً منضداً مجتمعاً متراكماً.

﴿أَيَحْسَبُ ﴾ ويعتقد ذلك الأحمق ﴿أَن ﴾ أي أنه ﴿لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾ أي لم

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ
ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾

يعلم اللهُ إنفاقه ونيته فيه واعتقاده عليه وإبطاله بالمن والأذى.

وكيف يتأتى إنكار إطلاعنا إياه وإلى ما صدر عنه؟!

﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ﴾ ولم نُظهر في جسده حين صورناه بمقتضى حولنا وقوتنا وكمال قدرتنا ﴿عَيۡنَيۡنِ ٨﴾ ليبصر بهما عجائب صنعتنا وغرائب حكمتنا.

﴿وَلِسَانٗا﴾ ليعرب ويترجم به ما جرى في خلده ﴿وَشَفَتَيۡنِ ٩﴾ مبينين على التكلم والتعريب على وجه الإفصاح والتوضيح.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿هَدَيۡنَٰهُ﴾ بإعطاء هذه النعم العظام ﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ أي طريقي الخير والشر، والهداية والضلال، واختبرناه بهما، وابتليناه أيّ طريقٍ يختار لنفسه، بعد ما وفقناه لكليهما، ونبهناه عليهما.

وبعد ما أعطيناه ما أعطيناه وهديناه:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ﴾ وما دخل الإنسان ﴿ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾ أي الكؤودة الوعرة على نفسه الشاقة لها، حتى يؤدي شكر ما أعطيناه.

ثم أبهمها سبحانه تعظيماً وتفخيماً فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أيها المغرور بالحياة المستعار ولوازمها ﴿مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾ الكؤودة في طريق أهل الإيمان والعرفان، ثم بيَّنها بقوله:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾ أي العقبةُ الكؤودةُ فكُّ الرقبةِ عن رقية الأماني والآمال.

﴿أَوۡ﴾ العقبةُ ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾ على فقراء الله وعَجَزةِ عباده ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾ أي حاجةٍ شديدةٍ وجوعٍ مفرطٍ، يعني:

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ ....

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي له قرابةٌ إلى المُطعم.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أسكنه الفقر وأغبره في تراب المذلة والصغار.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما أقدم على اقتحام العقبة المذكورة ﴿كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وأيقنوا أن ما في يدهم لله، وهم منفقون بإقدار الله في سبيل الله ﴿وَ﴾ مع إيمانهم بالله واتصافهم بالأعمال الصالحة المؤكِّدة لإيمانهم ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم أي أوصى بعضُهم بعضاً ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على مشاق التكاليف الإلهية ومتاعب الطاعات المأمورة لهم ﴿وَ﴾ كذلك ﴿تَوَاصَوْا﴾ بينهم ﴿بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ والشفقة على عباد الله وتعظيمهم، والتحنن نحوهم، والإحسان معهم ولو بكلمة طيبة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء الموصوفون بلذة الكرامة العظمى ﴿أَصْحَٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ عند الله، أي ذوي اليُمن والكرامة وأنواع اللطف، وأعلى الدرجة والمقامة.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة في كتابه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذّبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على عظمة ذاتنا، وكمالات أسمائنا وصفاتنا ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾ أي ذوو الملامة والندامة،

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

المأخوذون بشؤم كفرهم ومعاصيهم، المجزيون[1] بفواسد ما اقترفوا من الجرائم والآثام، لذلك

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ مطبقةٌ مغلقةٌ مكتوبةٌ، بحيث لا يمكنهم من لوازمها التنفس فيها أصلاً؛ لكونهم منهمكين في النشأة الأولى في لوازم الإمكان بحيث لا يمكنهم في لوازمها ومقتضياتها.

نعوذ بك من النار، وما قرب إليها يا غفار.

خاتمة السورة

عليك أيها المترقبُ للكرامة الإلهية والسعادة الأبدية، يسَّر الله لك طريق الوصول إليه: أن تشتغل بصوالح الأعمال، وتجتنب عن فواسدها وتكتسب الأخلاق المرضية المقربة إلى الله، المبعدة عن شآمة أصحاب الزيغ والضلال المنهمكين في بحر الغفلة بأنواع الشهوات واللذات البهيمية والوهمية الفانية العائقة من الوصول إلى اللذات الروحانية الباقية.

وإياك إياك الاختلاط مع أصحاب الثروة المفتخرين بالمال والجاه، المتصفين بالنخوة الحاصلة منها، فإنّ صحبتَك معهم تزلّ قدمك عن منهج التوكل، وتميل قلبك عن الرضا والتسليم.

ثبّت أقدامنا على جادة توحيدك يا ذا القوة المتين.

(١) في المخطوط (المحزبون).

سورة الشمس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الشمس

لا يخفى على من انكشف بوحدة الوجود وسريان شمس الذات على صفائح ذرات المظاهر والمجالي الفانية الإلهية والإحصاء: أن انبساط الحق وظهور الوجود، إنما هو على مقتضى الجود الإلهي وحسب اقتضاء رقائق الأسماء والصفات الكاملة المندرجة فيه للظهور والجلاء بمقتضى الحب الذاتي، المنبعث عن التجلي الجمالي على شؤونٍ متنوعةٍ وأطوارٍ شتى.

لذلك أقسم سبحانه بكليات الأطوار، وابتدأ بظهور شمس الذات، التي هي ينبوع بحر الوجود، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المنزَّه عن الظهور والبطون بحسب ذاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي وحقِّ شمس الذات الأحدية لإظهار كمالات أسمائه وصفاته ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بإخفائها في وحدة ذاته.

﴿ وَٱلشَّمْسِ﴾ أي وحقِّ شمسِ الذات الأحدية المتلألئة من سماء عالم الأسماء العماء، وأفق فضاء اللاهوت ﴿وَ﴾ بحق ﴿ ضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ المنبسطِ على مرآة العدم القابلة لانعكاسها.

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ ....

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿القَمَرِ﴾ أي الوجود الإضافي الكلي المحيطِ على مطلق العكوس والأظلال المنعكسة من مرآة العدم التي هي عبارةٌ عن سراب العالم، غيباً وشهادةً ﴿ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾﴾ تَبِعها ولحِقَها أي شمسَ الذات في الإحاطة والشمول.

﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي نشأة الظهور والبروز المنعكسة من عالم الأسماء والصفات ﴿ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾﴾ أي شمس الذات، وفصلت آثار أسمائها وصفاتها الكامنة فيها على صفحات الكائنات.

﴿ وَاللَّيْلِ﴾ أي نشأة البطون والخفاء المنعكسة من عالم العماء والسواد الأظلم الذي اضمحلت دونه نفوس عموم الكثرات، وتلاشت آثار الأسماء والصفات لكمال تشعشعها وبريقها ﴿ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾ حيث خفيت شمس الظهور من إفراط النور وكمال تشعشعها في البريق والظهور.

﴿وَالسَّمَاءِ﴾ أي سماءِ الأسماء والصفات المزيَّنة بنجوم الآثار والشؤون المترفعة عليها ﴿وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ من التجليات الحبية الجمالية والجلالية.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي استعدادات القوابل السفلية القابلة لانعكاس آثار العلويات ﴿وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾ ونشرها من الآثار المرتبة على الصفات الفعالة الإلهية.

﴿وَنَفْسٍ﴾ أي روحٍ فائضةٍ من عالم الأسماء والصفات على هياكل المسميات وقوابل العلويات والسفليات؛ ليستفيد بتذكر الموطن الأصلي

وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ ....

والمنشأ الجبلي ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾ أي عدّلها وركَّبها ممتزجةً من الآثار العلوية والسفلية.

وبعد ما سواها وعدلها كذلك:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ على مقتضى ما أودع فيها من الآثار العلوية والسفلية، ثم كلَّفها بما كلفها؛ ليتميز المحق من المبطل، والضالّ من الهادي، والكافر من المؤمن، تتميماً للحكمة المتقَنة البالغة الإلهية، وإظهاراً للقدرة الغالبة.

ثم قال سبحانه جواباً لهذه المقسمات المذكورة على سبيل الكناية والتنبيه:

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بما أفلح وفاز عند الله من الدرجات العلية ﴿مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ أي طهّر نفسَه عن الرذائل السفلية، ومقتضيات اللاهوتية الإمكانية وأمانيها.

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسِر وهلك ﴿مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أنقص عن كمالاتها، وأضلها، حيث حملها على اقتراف المعاصي والآثام المترتبة على سفليات الطبائع والهيولى ورذائل الإمكان المورث لها أنواعَ الخيبة والخسران، وأصنافَ الحرمان والخذلان.

لذلك ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ المبالغُ في إهلاك النفس وتضليلها وتقريرها بمن أُرسِل إليها وأُمر لإرشادها، حين انحرفت عن جادة العدالة ﴿بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ ....

أي بسبب طغيانها وتقليبها حظوظَ السفليات على حظوظ العلويات، وبِعدوان القوى الأمّارة على جنود المطمئنة، وبانقهار نشآت اللاهوت بغلبة مقتضيات الناسوت، وذلك أنهم قد بالغوا في العتو والعناد والتكذيب والإفساد، سيما وقت:

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أي قام وأقدم مسرعاً ﴿أَشۡقَىٰهَا ۝١٢﴾ أي أشقى القبيلة وأرداها وأضلَّها عن طريق الحق، وهو قدار بن سالف إلى عَقر الناقة المعهودة المحفوظة المخصوصة بالوصية الإلهية، وبعد ما صمم عزمه إلى العقر.

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وهو صالح عليه السلام على مقتضى شفقة النبوة: ذروا ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ واحذروا عقرها، وبالجملة لا تمسوها بسوءٍ مطلقاً، فيأخذكم عذابٌ عظيمٌ ﴿وَسُقۡيَٰهَا ۝١٣﴾ التي عَيَّن الله لها، ولا تذبوها عن الماء.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ولم يقبلوا قول الرسول واجتمعوا على عقرها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ فخرج الرسول من بينهم خوفاً من حلول عذاب الله وسطوة قهره وجلاله، وبعدما ارتكبوا المحظورَ المنهي ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ أي طبّق عليهم الصيحة الهائلة، فأهلكهم بها بالمرة ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الذي صدر عنهم، وهو تكذيب الرسول المرشِد لهم من قِبل الحق ﴿فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ أي سوى الدمدمة عليهم، وأعمت بينهم، بحيث لا ينجو منهم أحدٌ، وبالجملة

وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

أقدم العاقر اللعين على عقرها، واتفقوا معه.

﴿وَلَا يَخَافُ﴾ هو وهم ﴿عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ أي ما يعقُب عقرها، ويتبعها من أنواع البلاء والمصيبة والعناء، وأخبرهم بها الرسول فكذّبوه واستهزؤوا معه، لذلك لحقهم من سيئات أعمالهم.

نعوذ بك من سيئات الأعمال، وتشتت الأحوال، وتفاقم الأهوال[1].

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للفلاح الأبدي والصلاح السرمدي المترتبِ على العناية الإلهية وفضله أن تصفّي نفسك عن مقتضيات الإمكان وظلمات الهيولى والأركان، حتى تأمن عن طغيانها وعدوانها، فلك أن تحليها[2] بالمعارف والحقائق ومحاسن الشيم والأعمال والأخلاق الموجبة لفيضان لوامع الكشف والشهود المخلص عن مطلق القيود لقرافة إطلاق الوحدة الذاتية المسقطة لعموم الكثرات المتفرعة على الإضافات الطارئة على التعينات العدمية.

وفقنا الله لتخلية النفوس عن مطلق الرذائل، وتحليتها لمحاسن الشيم والخصائل.

---

(١) في المخطوط (وتفاقم الأعمال).

(٢) في المخطوط (تخليها).

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الليل

لا يخفى على المنكشفين بنشآت الحق وشؤونه الغيبية والشهادية: أن تنزلات الحق عن مطلق العماء اللاهوتي نحو فضاء الناسوت على أطوارٍ متفاوتةٍ وشؤنٍ شتى، حسب اقتضاء رقائق أسمائه الذاتية المقتضية للظهور والجلاء.

لذلك أقسم سبحانه بنشأتي الغيب والشهادة، وما امتزج منهما في البرزخ الجامع الإنساني المحتوي على نشأتي الغيب والشهادة، المتفرعة عليهما التكاليف الإلهية فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على عموم شؤونه المترتبة على أسمائه الغير المحصورة ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لجميع مظاهره، حيث يطلعها على ذاته؛ ليتوجه الكل نحوه طوعاً ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لنوع الإنسان حيث نبّه عليه سر سريان وحدته الذاتية على صحائف الكثرات المترتبة.

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ أي وحقِّ الهوية الغيبية الإلهية المتمكنة في مكمن العماء، المغشي لنقوش الكثرات المترتبة على الأسماء والصفات من شدة

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ ....

بريقها ولمعانها

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ أي وحقِّ الهوية الشهادية الإلهية الظاهرة في عالم البروز والجلاء، المظهرة لآثار الأسماء والصفات، إظهاراً للحكمة البالغة التي هي ترتب الإيمان والعرفان على تلك الآثار.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي وحق القادر الحكيم الذي خلق وقدّر وصوّر برزخ الإنسان المصوَّر على صورة الرحمن، الجامع لعموم مراتب الأكوان حيث ركبّه وأودع فيه من الحصص اللاهوتية الغيبية والناسوتية الشهادية، ثم كُلِّف بالتكاليف الشاقة؛ ليترقى من حضيض الناسوت إلى ذروة اللاهوت، لذلك استخلفه واصطفاه وانتخبه من عموم مظاهره؛ ليترتب على مرتبة هذه المصلحة العليّة والخصلة السنيّة، وإنما خلقه زوجاً ليدوم في نشأة الشهادة وجودُ مرتبته التي هي الغاية القصوى لنشأة الشهادة.

ثم قال سبحانه جواباً للقسم مخاطِباً على أفراد الإنسان تربيةً لهم وتنبيهاً على مفاسدهم ومصالحهم:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ الذي سعيتم به أيها المكلفون في نشأة الاختبار ﴿لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ مختلفةً متفاوتةً حسب تفاوت ما أودع الله فيكم من الحصص المذكورة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ مما ساق له الحق من الرزق الصوري والمعنوي، مقارناً للخشوع والخضوع وخلوص النية والطوية وأنواع الطاعات والعبادات المأمورة له ﴿وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ عن مطلق المحارم والمنهيات التي وردت الزواجر

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ
﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾

الإلهية فيها.

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي صدّق بعموم مقتضيات الأسماء الإلهية، وبآثار صفاتها العليا التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ أي نُعدُّه ونوفِّقُه ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ للطريق السهلة الموصلة إلى مقصد التوحيد والمعرفة المنجِية عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ولم ينفق على مقتضى ما أمره الحق ﴿ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ عن مقتضيات الأسماء

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونستعده ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي للطريق العَسِرة الوعِرة[1] التي هي طريق الكفر والمعصية المؤديةِ إلى أودية الشهوات الإمكانية المستلزِمةِ للدركات النيرانية.

﴿وَ﴾ بعد ما نأخذه في النشأة الأخرى بسبب بُخله وكفره ﴿ مَا يُغْنِي﴾ يكفُّ ويدفعُ ﴿عَنْهُ مَالُهُ﴾ شيئاً من غضب الله ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾﴾ أي هوى وهلك في قعر جهنم الإمكان وسعير النيران.

ثم قال سبحانه تعريضاً للمسرِفين المفرِطين:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ يعني ما علينا من إصلاحكم إلا الهداية والإرشاد، فهديناكم ولم تهتدوا.

(١) في المخطوط (الوعيرة).

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ ....

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ يعني ما لنا إلا التبيين والتنبيه بأن الآخرةَ خيرٌ من الأولى، فبينَّا طريق المعاش في النشأة الأولى، وطريقَ التزود والتهيئة للآخرة، فلم تقبلوا منا، ولم تمتثلوا بما بينّا، ومع ذلك أكدنا هدايتكم وإرشادكم بالإنذار البليغ.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تتوقدُ وتتلهبُ من شدة سورتها.

وبينّا لكم أيضاً أنها:

﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ ولا يدخل فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾

﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالكتب الإلهية وما فيها من الأحكام ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ أعرضَ عن الرسل، وانصرفَ عن دعوتهم، ومع ذلك لم يقبل منا.

﴿وَ﴾ كذا بينّا لكم أيها المكلفون أنها ﴿سَيُجَنَّبُهَا﴾ أي يُبعد عن النار المسعرة في دركات الجحيم ﴿الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾

﴿الَّذِي يُؤْتِي﴾ يعطي ويتصدق ﴿مَالَهُ﴾ في سبيل الله طلباً لمرضاة الله على فقراء الله كيف ﴿يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ ويتطهرَ عن قاذورات الدنيا، ولم يبق في قلبه سوى المولى، حتى وصل إلى سدرة المنتهى، ومع وجود هذه الآيات لم يتنبهوا ولم يتفطنوا.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾﴾ يعني ما يصح[1] ويليق

---

(١) في المخطوط (يفتح).

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

لأحد أن يتصدق بماله على طمع الجزاء والعوض والمكافأة، بل اللائق بحاله ألا يعطي ما يعطي على من يعطي.

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ يعني طلباً للقاء الله في يوم الجزاء لا[1] الثناء الدنياوي، ولا للثواب الأخروي، بل رجاء أن يلقى ربه ويطالع وجهه الكريم.

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ عن الله بالفوز بشرف اللقاء، عند كشف الغطاء.

اللهم ارزقنا لقاءك يوم نلقاك.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لرضاء الله، والراجي مطالعة جمال الله وجلاله: أن تحسن الأدب مع الله في عموم أحوالك في النشأة الأولى، وتزكّي نفسك عن مطلق الأماني والآمال الشاغلة عن التوجه نحوه، فعليك التبتل والاجتهاد على وجه الإخلاص والتوفيق من الله، يهديك إلى سبيل الرشاد.

وإياك إياك أن تلتفت إلى مزخرفات الدنيا الدنيّة، فإنها تلهيك عن الدرجات العليّة الأخروية، وتغويك إلى الدركات الهوية الجهنمية الإمكانية، فلك أن تطرح كلها، حتى تخلص عن غوائلها.

جعلنا الله ممن تَنَفَّر عن الدنيا وما فيها.

(١) غير موجودة في المخطوط.

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الضحى

لا يخفى على من دخل تحت قباب العز الإلهي وفني في هويته: أن عموم أحوال العباد وأخلاقهم وأطوارهم بعد ما انخلعوا عن لوازم ناسوتهم، واتصفوا بخلع اللاهوت، وصارت راجعة إلى الله مستندةً إليه، صادرةً منه سبحانه، وهم حينئذٍ في كنف حفظه وحضانته، يرقبهم حيث شاء بمقتضى حكمته البالغة.

ولا شك أن أفضلَ من تخلق بأخلاق الله، وخيرَ من دخل تحت حيطة حضانته سبحانه، وتمكن في سواد أعظم اللاهوت، هو نبينا صلوات الله عليه وسلامه.

لذلك خاطب معه سبحانه خطابَ ملاطفةٍ وتكريمٍ وسلّاه عما زوَّر المشركون في شأنه من أنه قد قلاه ربُّه وودَّعه.

وبالغ سبحانه في تسليته حيث أقسم بما أقسم بعد التيمن:

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي ظهر على حبيبه ﷺ حتى أخرجه عن مضيق الناسوت، مهاجراً إلى فضاء اللاهوت ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعموم عباده حيث أرسل حبيبه ﷺ إليهم رحمةً للعالمين ﴿الرَّحِيمِ﴾ لخواصهم يرشدهم بمتابعته إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ ....

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾﴾ أي وحق شروق شمس الذات الأحدي الصمدي عند ضحى بعثة الحضرة الأحمدية.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي وحق الانجلاء التام المنعكس من عالم العماء اللاهوتي المغشي لمطلق الأضواء والأنوار المتفاوتة المرئية في نشأتي الغيب والشهادة، المقتبسة من الأسماء والصفات المستتبعة للإضافات المتكثرة في عالم التفضيل.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ وقطع عنك قطع المودِّع ﴿رَبُّكَ﴾ الذي رباك على عينه واصطفاك لنفسه ﴿وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ أي ما أبغضك، يعني لا تحزن من قول المشركين وزعمهم في حقك: أنك ودعك ربك وقلاك في نشأتك الأولى، بل رعاك، واتصل بك في أخراك.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ﴾ التي هي نشأة لاهوتك ﴿خَيۡرٞ لَّكَ﴾ وأليق بحالك ﴿مِنَ﴾ نشأتك ﴿ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ التي هي نشأة ناسوتك.

وكيف لا تكون الآخرة خيراً لك من الدنيا، إذ هي باقية ببقاء الله، دائمة بدوامه، وهذه محدثة فانية، بل باطلة زاهية زائلة بزهوق التعينات وبطلان الأوضاع والإضافات التي هي حاصلة منها.

﴿وَ﴾ لا تحزن أيها النبي المستوي على جادة العدالة اللاهوتية من هذيانات أهل الضلال ﴿لَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ﴾ بعد انخلاعك من ملابس

فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ....

ناسوتك ومقتضيات بشريتك من اللذات اللاهوتية، التي لا يدرك كنهها إلا من اتصف بها، وذاق منها، ﴿فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ حينئذٍ من ربك، ورضي بك عنك.

وبعد ما سمعتَ يا أكمل الرسل من الوعد الإلهي ما سمعتَ تذكر كرم ربك منك في ما مضى، وترقب من كراماته التي ستأتيك.

وبالجملة لا تيأس من رَوح الله ورحمته، وكيف تيأس أيها النبي المغمور في بحار لطفه وجوده؟

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ ويصادفك ربك مع كونك ﴿يَتِيمًا﴾ بلا رشدٍ ومرشدٍ ﴿فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ أي ضمَّك نحوه سبحانه، وجذبك عنك إليه، وقرن اسمك باسمه.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ خالياً عن الحِكم والأحكام، منهمكاً في لوازم الإمكان ﴿فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي هداك وأرشدك إلى الإسلام، وأوصلك إلى زلال التوحيد والعرفان.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فقيراً حسب إمكانك ومقتضيات بشريتك الموروثة لك من نشأة ناسوتك ﴿فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ أي أغناك بغنائه، بعد ما أفناك فيه، وشرَّفك بخلع اللاهوت، بعد ما أخرجك عن ملابس الناسوت.

وبعد ما كنت يتيماً فآواك ربك، ووجدك ضالاً فهداك، ووجدك فقيراً فأغناك، وبالجملة كرَّمك واصطفاك وعظَّمك واجتباك.

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ﴾ الفاقد للرشد والرشيد ﴿فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾ متى يأوي إليك للاسترشاد، لا تردعه، ولا تزجره، وكلِّم معه حسب استعداده وقابليته إلى حيث توصله وترشده إلى طريق الطلب والإرادة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ﴾ الذي يسأل من مكنونات ضميرك ومن السرائر المودعة فيك من الودائع اللاهوتية ﴿فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ أي لا تمنعه، ولا تخيِّبه، بل أحسن إليه كما أحسن الله إليك، حسب استفاضته واستعداده.

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ وهدايته وإرشاده ﴿فَحَدِّثۡ ١١﴾ يا أكمل الرسل مع المسترشدين المستكملين، فإن حديثك من سرائر الدين وأسرار المعرفة واليقين مع المؤمنين المسترشدين، والطالبين المستوجبين الشكر منك لنعم الله، وأداءٍ لحقوق كرمه واستجلابٍ لمزيد إنعامه وإفضاله.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملازمُ لتعديد نعم الحق على نفسك: أن تداوم وتواظب على أداء حقوق ما وصل إليك من النعم العظام والكرم الجسام، فلك أن تحدث في عموم أوقاتك وحالاتك عن كرم مولاك، وتشكره على ما أولاك من الآلاء والنعماء في أُولاك، ووعد لك في أخراك.

وبالجملة كن من الشاكرين لنِعَم الله، المحدِّثين بحقوق كرمه، ولا تكن من الغافلين في حال من الأحوالِ، وسبِّح بحمد ربك بالغدو والآصال.

سُورَةُ الشَّرۡحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة ألم نشرح

لا يخفى على من شرح الله صدره للإسلام ووسَّع قلبَه لقبول عموم الأحكام إلى حيث وسَّع الحق فيه مع شؤنه وتطوراته الغير المتناهية المترتبة على أسمائه وصفاته: أن تفسيح الصدر وتوسيعه، إنما هو من علامات العناية الإلهية لخلص عباده، إذ مقام الخلة والخلافة، إنما يترتب على هذا الشرح والتوسيع، وهو من أعظم الفتوحات الإلهية.

لذلك خاطب سبحانه حبيبه ﷺ في مقام الامتنان، به وعاتبه عليه تنبيهاً على جلالة شأنه ورفعة مكانه عند الله، فقال متيمنا باسمه، مستفهماً على سبيل التأكيد والتقرير:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي شرح صدور عباده لقبول سرائر المعرفة واليقين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بدفع الأوزار والأثقال المانعة عن القبول، بعد ما هداهم إلى الطريق المستبين ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يُعليهم ويرفع ذكرهم، بعد ما أخرجهم عن مقتضيات بشريتهم إلى أعلى عليين.

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ ﴾ يا أكمل الرسل من اجتبينا واصطفينا للنيابة

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ....

والرسالة، ولم نفسح ونوسع خلدك لقول الآيات الواردة عليك منا، والامتثال بالأحكام الموردة من لدنا، مع كونك أمياً، عارياً، خالياً عنها وعن ما يترتب عليها؟.

وبعد ما شرحنا لك صدرك لشعائر الإسلام ومعالم الدين ومراسم التوحيد[1]، اجتبيناك للرسالة والتبليغ إلى عموم الأنام.

﴿وَ﴾ بعد ما أمرناك بالرسالة ﴿وَضَعْنَا﴾ أي أزلنا ﴿عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ أي ثقلك الطارئ عليك من حِمل أعباء الرسالة وأداء التبليغ.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾ من غاية شدته وثقله ﴿أَنقَضَ﴾ أي قصم وكسر ﴿ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ لأنك أميٌ ذاهلٌ عن مطلق الأحكام، مأمورٌ بها؛ لذلك ثقُل، وضاق عليك الأمر.

﴿وَ﴾ بعدما وفَّقناك على تبليغ الرسالة، وأيدناك بالآيات الموردة المنزلة في موارد الأحكام ﴿رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ حيث قرنَّا اسمك باسمنا، وخلَّفناك عنا، واخترناك لخلافتنا ونيابتنا، لذلك أنزلنا في شأنك: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٤-النساء:٨٠]، ﴿وإِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [٤٨-الفتح:١٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وأي رفعٍ وكرامةٍ أعلى وأعظم من ذلك.

وبعد ما كرمناك بأمثال هذه الكرامات العلية، لا تيأس من سعة رَوحنا

---

(١) في المخطوط (التفسير).

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ....

ورحمتنا وإعانتنا وإغاثتنا، ولا تحزن على أذى قومك واستهزائهم، وتطاول مُعاداتهم وعنادهم معك.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ الذي قد عُرض عليك، ولَحِق بك من قِبلهم ﴿يُسْرًا ﴿٥﴾﴾ ناشئاً من قبل الحق، مقابلاً واصلاً إليك من حيث لا تحتسب.

ثم كرر سبحانه تأكيداً:

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ الذي ألم بك الآن ﴿يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ منا مترقباً كيفما اتفق.

وفي تعريف العسر وإعادته معرَّفة وتنكير اليسر وإعادته نكرةً أيضاً إشعارٌ بقلة طرق العسر وأسبابه، وكثرة طرق اليسر وموجباته.

يعني: لا تيأس من العسر الطارئ عليك أحياناً معهودةً معدودةً عن يسرٍ ملازمٍ لك في أكثر الأوقات والأزمان، مصاحبٍ معك في جميع حالاتك.

وبعد ما أمرناك بتبليغ الرسالة وأرسلناك لنشرها، فلك أن تمتثل بالمأمور على مقتضى الوحي والإلهام.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ عن الدعوة والتبليغ على مقتضى منصب النبوة والرسالة ﴿فَٱنصَبْ ﴿٧﴾﴾ نفسَك وأتعبها بالمجاهدات والرياضات القالعة لعرق لوازم الإمكان عن أصله على مقتضى رتبة الولاية.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لا إلى غيره من وسائل المظاهر وأسبابها ﴿فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾ في خلواتك وصلواتك، في عموم حالاتك ومقاماتك، بلا روية الوسائل في البين، والوسائط في العين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب الراغب إلى الله، القاصدُ للعكوف حول بابه: أن تفرغ همك عن مطلق الأماني والآمال وعموم الأشغال المانعة عن الوصول إلى فنائه، وترغبَ عن الدنيا وما فيها، وتتوجهَ نحو الحق من طريق الفناء، وتطرحَ لوازم الحياة المستعارة بالكلية، حتى تصل إلى مرتبة الموت الإرادي المستلزم للبقاء الأبدي السرمدي.

جعلنا الله من زمرة أرباب الرغبة إلى المولى وعن الدنيا، بمنِّه وجوده.

سُورَةُ التِّينِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾..............

فاتحة سورة التين

لا يخفى على من انكشف له رفعة رتبة الإنسان، ووضح دونه علو شأنه وسمو برهانه: أن من انحط عن الرتبة الإنسانية التي هي الخلافة الإلهية، وسقط عنها، فقد لحق بأنزل المراتب وأدنى المنازل، كما عبر عنه سبحانه بأسفل السافلين، لذلك أقسم سبحانه بمعظمات المظاهر لإثبات لحوق الإنسان بأسفل دركات النيران، بعد ما انحط وسقط عن أعلى غرفات الجنان، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي خلق الإنسان في أحسن التقويم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليه بأنواع التعظيم والتكريم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليه يوصله إلى روضات النعيم.

﴿وَ﴾ حقِّ ﴿ التِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ﴿١﴾﴾ هما جبلان في الأرض المقدسة، يكثر فيهما كلتا الفاكهتين.

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ أي الجبل الذي ناجى عليه موسى الكليم مع ربه ﴿ وَ﴾ لا سيما بحق ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ﴿٣﴾﴾ يعني مكةَ شرفها الله، سمّاها أميناً؛ لأن من دخله إيماناً واحتساباً كان آمناً من العذاب الأليم.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾﴾ ....

وبالجملة بحق هذه المقسمات العظام:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي جنسه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وأقوم تعديلٍ، إذ لا مظهرَ أعدل منه وأقومَ بحسب الظاهر والباطن، لذلك اصطفيناه لخلافتنا من بين خليقتنا.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما تعلق إرادتنا لرداءة فعله ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ وأحطناه من تلك المرتبة العليّة والدرجة السَّنيّة ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ وهي مقتضيات الإمكان، المستلزم لدركات النيران، وسلاسل أمانيها، وأغلال آمالها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة الحق ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المخلِّصة لهم عن قيود الإمكان، المقرِّبة لهم إلى فضاء الوجوب ﴿فَلَهُمْ﴾ بعد ما وصلوا إلى عالم اللاهوت ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ أي نِعَمٌ لا تنقطع، ولا يمنّ بها عليهم أصلاً.

وبعد ما نبه سبحانه على ما نبه بأبلغ وجه وأوكده، حثَّ عموم الإنسان على الإيمان، ورغَّبهم إلى اليقين والعرفان، فقال على وجه التقريع والتوبيخ:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي أيّ شيء يحملك على الكفر والطغيان والتكذيب والكفران أيها الإنسان المجبولُ على فطرة التوحيد والعرفان ﴿بَعْدُ﴾ أي بعد ما ظهر الحق، ولاحت دلائل التصديق وأمارات اليقين ﴿بِالدِّينِ ﴿٧﴾﴾ القويم، والسبيل المستقيم؟!.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على أمثال هذا الردِّ والخلق بالإرادة والاختيار ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ على كل ما شاء، وأراد، سواءً كان بدءاً أو إعادةً، فله أن يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الطالبُ للتقرر والثبوت على جادة التوحيد التي هي أحسن تقويم الإنسان، وأعدلُ طريقه: أن تتأمل في هذه الصورة حق التأمل، وتدَّخرَ لنفسك من فوائدها ما هو أهمّ، فعليك التوبة إلى الله، والإتيان بصوالح الأعمال، والاجتناب عن فواسدها.

وإياك إياك أن تتلطخ بقاذورات الدنيا، وتنغمس بأمانيها، فإنها ترديك وتردك إلى أدنى مراتب الإمكان الجالب لأسفل دركات النيران، وتغويك فيها بأنواع الخيبة والخذلان.

سُورَةُ العَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ....

فاتحة سورة العلق

لا يخفى علىٰ من أيقظه الحق عن منام الغفلة، ووفَّقه للخروج عن أقطار عالم الإمكان نحو فضاء الوجود: أن علامة العناية الإلهية وأَمَارةَ كرامته على الموفَّقين من لدنه، المنجذبين نحوه: أن يذكرهم ويلقِّن عليهم أولاً: تعديد أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، ويواظبهم عليها إلى أن نَبَعَ ينبوعُ الحكمة اللدنية المودَعة في قلبه، المترشحةِ من بحر الذات الأحدية، ثم يظهر على لسانه، وصار حينئذ على ذِكرٍ من ربه، متمكناً في مرتبة اليقين العلمي، ثم ترقى منها إلى أن صار علمُه عياناً، ثم صار عيانُه حقاً وبياناً.

لذلك أمر سبحانه حبيبه ﷺ أولاً بالقراءة والتذكرةِ بأسمائه بعدما أراد سبحانه تربيتَه وتكريمَه، فقال بعد التيمن:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي دبَّر أمر الإنسان بأحسن التدبير ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليه حيث سوَّاه أحسن التصوير ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليه حيث هداه إلى خير منقلبٍ ومصير.

﴿ٱقْرَأْ﴾ يا أكمل الرسل وتذكَّر بعد ما أدركتك العناية، وأحاطت عليك الكرامة الإلهية ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي داوم على تذكُّرِ عموم أسماء مربيك

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤
عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ ....

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ كلَّ شيءٍ، وأظهره من كتم العدم، حسب أسمائه وصفاته، وربَّاه بأنواع اللطف والكرم، وأباح عليه من جلائل النعم.

سيما ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وخصَّه من عموم الأكوان بمزيد الإنعام والإحسان، مع أنه خلَقَه وقدَّر وجوده ﴿مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ دماءٍ معلوقةٍ مسترذلةٍ، مكوَّنةٍ من مني مرذولٍ، مكوَّنٍ من الدم المسفوح، المتكوِّن من إجراء الأغذية.

وبعد ما أمر سبحانه حبيبه ﷺ بالقراءة، وتعديد الأسماء وإحصاءها، أمره بالقراءة ثانياً، للتأمل والتدبر في معانيها، والاستكشاف عن فحاويها ومرموزاتها فقال:

﴿ٱقْرَأْ﴾ قراءةَ تدبُّرٍ وتعمقٍ واستكشافٍ على ما في مطاويها من البدائع والغرائب المودعة فيها، ولا تنظر إلى كونك أمياً لستَ من أهل الإملاء ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ الكاملُ الكرامة والهدايةِ لأرباب العناية.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الخط والرَّقم ﴿بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ الذي هو بمراحلَ عن التعلم والتفهم.

لا تستبعد من كمال كرامته وعنايته، تعلمّك يا أكمل الرسل، إذ هو سبحانه:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ المصوَّرَ على صورة الرحمن ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ من البيان والتبيان، وأنواع طرق الكشف والعيان، فأنت يا أكمل الرسل من أعزِّ أفراد

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ ....

الإنسان شأناً، وأعلاه شرفاً وبرهاناً، وأرفعه قدراً ومكاناً.

وبعد ما أشار سبحانه إلى مبدأ الإنسان ومادته، وإلى منتهاه وغايته، تعجب سبحانه من حاله، واستبعد ما صدر عنه من الطغيان والكفران والبغي والعدوان، مع كمال عناية الله معه وكرامته إياه، فقال على سبيل الردع والزجر:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ المستحدَث من الأقذار المهانة، المترقيَ إلى نهاية الكرامة وأعلى المقامة ﴿لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾ ويتجاوز عن حده، ويستكبر على ربه، وينسى أصل منشئه، لأجل

﴿أَن رَّءَاهُ﴾ عَلِم نفسَه أنه ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ أي صار غنياً عن الله، مستغنياً عن الافتقار إليه، مستكبراً على عباده، يمشي على وجه الأرض خيلاءَ بما عنده من حُطام الدنيا ومزخرفاتها الفانية.

وكيف يتأتى لك الطغيان والاستكبار أيها المسترذَل المُهان المستحدَث من المهِين.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي أظهرك من كتم العدم، وأحدثك من الأمشاج المرذولة ﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ أي الرجوع المعهود في النشأة الأخرى، فسيجزيك بجميع ما صدر عنك، بعدما يحاسبك عليه بمقتضى العدالة والإنصاف.

ثم نصّ سبحانه على ذكر بعض الطاغين المستغنين، المستكبرين بما عندهم من الجاه والثروة، وهو أبو جهل اللعين، فقال:

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ....

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أيها المعتبر الرائي الباغي الطاغي ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي يمنع ويكفُّ ﴿عَبْدًا﴾ كاملاً في العبودية يعني محمداً ﷺ ﴿إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ وتوجَّه نحو ربه بجميع أجزائه وجوارحه، وأراد أن يصرفه عنه.

وذلك أن أبا جهل قال: لو رأيتُ محمداً ساجداً، لأطأن عنقه، فرآه ساجداً فجاءه ليطأه، ثم نكص واستدبر.

فقيل له: مالكَ؟!! فقال: إن بيني وبينه خندقاً مملوءاً من النار، وهولاً، وأجنحةً.

ثم خاطب سبحانه هذا الطاغيَ الناهيَ خطابَ تهديدٍ وتقريعٍ:

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي أخبرني أيها المفسد المتناهي في البغي والعناد ﴿إِن كَانَ﴾ العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ والرشاد.

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ وبالاجتناب عن مقتضيات الهوى، لتنهاه عن فعله هذا، وأمرِه وإرشادِه البتة.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أي أخبرني أيضاً أنك نهيته عن الصلاة ﴿إِن كَذَّبَ﴾ على الله ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ أي أعرض عن مقتضيات أوامره ونواهيه.

وبالجملة نهيتَه عن الصلاة مطلقاً سواءً، كان على الهدى أو أمر بالتقوى، مجتنباً على الهوى، أو مكذباً على المولى، معرضاً عما جرى عليهم من القضاء، يعني ليس سبب نهيك إلا العصبية والعناد، سواء كان محقاً في فعله أو مبطلاً.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ ....

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهذا المكابر الناهي:

﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ ذلك الناهي المباهي المبالغ في العتوّ والعناد ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الإنعام والانتقام ﴿يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ يعلم ويبصر جميع ما صدر عنه من المجادلة والمراء، فيجازيه على مقتضى علمه وخبرته، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً للناهي عما عليه من المكابرة والعناد ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الناهي المبالغ المباهي عما هو فيه من المكابرة والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ أي لنأخذن بناصيته[1] ولنسجننه مكباً على وجهه نحو النار المعدَّة؛ لتعذيب الكفرة، المبالغين في العتو والعناد، وأي ناصية.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي كاذبٍ خاطئٍ، وصف الناصيةَ بهما للمبالغة والتأكيد.

وبعد ما نسحبه كذلك، ونأخذه على ظلمه ﴿فَلْيَدْعُ﴾ وليناد حينئذٍ ﴿نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ أهل مجلسه وأعوانَه من قهرنا، مع أنا أيضاً ﴿سَنَدْعُ﴾ونأمر حتى ينصروا له وينقذه صارخاً عليهم مستغيثاً منهم يومئذٍ ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ أي الشرطة الموكَّلين على جهنم ليجروه نحو النار على وجه الهوان والصغار، ثم كرر سبحانه:

---

(١) في المخطوطة (جـ).

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ كَلَّا ﴾ تأكيداً لردعه وتشديداً عليه، ثم نهى سبحانه حبيبه ﷺ عن إطاعة ذلك الباغي والإصغاء إلى قوله والمؤانسة معه والالتفات إليه بقوله: ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي دُم يا أكمل الرسل على صَلاتك واثبتْ عليها، ولا تلتفت إلى هذياناته الباطلة ﴿وَاسْجُدْ ﴾ لربك على وجه الخضوع والخشوع ﴿ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ إليه وتقرَّب نحوه بإطراح لوازم ناسوتك، محرِّماً على نفسك حظوظَك من دنياك، مسقطاً مقتضيات بشريتك ولواحق مادتك مطلقاً.

وفي الحديث: «أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ العَبْدُ إِلَى رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ»[1] فسبح بحمد ربك، وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للتقرب نحو الحق والوصولِ إلى فضاء اللاهوت، أعانك الله في مطلبك هذا وطلبك: أن تداوم على الطاعات والعبادات على وجه الإخلاص والتذلل التام والانكسار المفرط، إذ ما يتقرب العبد إلى ربه إلا بالاستكانة والضراعة والإفناء عن لوازم نشأة الناسوت، والاتصاف بالموت الإرادي المورِث للحياة الأبدية والبقاء السرمدي.

جعلنا الله من المتصفين به بمنّه وجوده

(١) رواه مسلم بلفظ: (عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «أَقْرَبُ ما يَكُونُ الْعَبْدُ من رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» صحيح مسلم [١/ ٣٥٠ رقم / ٤٨٢/ باب: ما يقال في الركوع والسجود]، والمستدرك للحاكم [١/ ٣٩٥رقم/ ٩٦٩/ باب:التأمين]، والترمذي في السنن [٥/ ٥٦٩ رقم / ٣٥٧٩/]، وسنن أبو داوود [١/ ٢٣١ رقم/ ٨٧٥/ باب:الدعاء في الركوع والسجود].

سورة القدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة القدر

لا يخفى على من انكشف بسرائر إنزال الكتب وإرسال الرسل من الموفَّقين على الإطلاع والوقوف بسرِّ سريان الوحدة الذاتية الإلهية على صفحات الكثرات الفانية [في نسخةٍ: الفائتة] في الحصر والإحصاء: أن المقادير المحفوظة في لوح القضاء والتصاوير المضبوطةَ في حضرة العلم والقلم الأعلى، إنما هي في عالم العماء الغيبي المسمَّى ليلة القدر، وإنزالها منها نحو فضاء الشهادة و الجلاء إنما هو أيضاً فيه، ولا شك أن السر من إنزال الكتب الإلهية إنما هو لضبط تلك المقادير والإخبار عنها على الوجه الذي ثبت في حضرة العلم ولوح القضاء.

لذلك أخبر سبحانه حبيبَه ﷺ في مقام الامتنان بإنزال القرآن في ليلة القدر الغيبي، التي هي خيرٌ من ألف شهر من أزمنة نشأة الشهادة، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي قدّر عموم المقادير في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعباده بإنزال القرآن المنبِّه لهم طريقَ المعرفة والإيمان ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوقظهم عن نوم الغفلة ورقود النسيان.

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم لطفنا وجودنا لعموم عبادنا ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي القرآنَ المبيِّنَ لهم طريق النجاة من نيران الجهالات ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾﴾ الغيبي التي لا اطلاع لأحد عليها إلا لعلّام الغيوب، لذلك أبهم سبحانه على حبيبه ﷺ:

فقال ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي أيّ شيء أعلمك من مقتضيات بشريتك ولوازم ناسوتك ﴿مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾﴾ إذ هي خارجةٌ عن مدارك عالم الناسوت.

ثم بينها سبحانه على مقتضى أفهام البشر ومداركهم فقال:

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾﴾ من أيام عالم الشهادة ولياليها، إذ ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي سكان سواد الأعظم اللاهوتي ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ الأمين المدبِّرُ لأمور أشباح عالم الناسوت ﴿فِيهَا﴾ أي في تلك الليلة، ونزولهُم فيها إنما هو ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يأمرهم بالنزول فيها، ومع كلٍ منهم ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾﴾ من الأمور الجارية في عالم الشهادة:

﴿سَلَٰمٌ﴾ وتسليمٌ من قِبل الحق يسلم لهم سبحانه، ويفوض إليهم أمرَهم على مقتضى حكمته المتقَنة؛ ليقوم كلٌّ منهم به، ويحسن تدبيرَه على الوجه الذي أمرَ به، وبالجملة ﴿هِيَ﴾ أي حالهُم وشأنُهم هذا وهكذا ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾﴾ أي إلى طلوع شمس الذاتية الإلهية، المفنية بأشعتها الذاتية عمومَ أضواء الأظلال والعكوس مطلقاً.

كأن ليلةَ القدر التي سُترت في خلال ليالي السنة، أو في ليالي شهر رمضان، أو في ليالي العشر الأخير منها على ما قيل، هي منتخبةٌ ممثلةٌ من تلك الليلة القدرية الغيبية العمائية اللاهوتية.

لذلك ما عيَّنها الشارع، وما عرَّفها، بل أبهمها وأخفاها.

قيل: في تلك الليلة يقدَّر عموماً أحوالُ تلك السنة، وجميعُ ما يجرى فيها من الحوادث الكائنة، كما أن في أصلها ومنشئها التي هي ليلة القدر الغيبي، متى يقدر عموم المقادير الكائنة أزلاً وأبداً؛ لذلك من أحياها، فقد فاز بخيري الدارين.

رزقنا الله وَجْدَها والوصول إليها والتحقق دونها.

خاتمة السورة

عليك أيها العازم القاصد لإحياء تلك الليلة وإدراكِها: أن تشمِّر ذيلك لإحياء عموم الليالي الآتية عليك في أيام حياتك، إذ هي مستترةٌ فيها، وبالجملة لا تغفلِ عن الله في جميع حالاتك، حتى تكونَ عمومُ لياليك قدراً خيراً من الدنيا وما فيها.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ ....

فاتحة سورة البينة

لا يخفى على المستكشفين عن سرائر الآيات الواضحة والبينات اللائحة الموضِحة لمعالم الدين ومراسم التوحيد واليقين: أن ظهور طريق الحق وسلوكَ سبيل الهداية، إنما يحصل ببعثة الرسل وإنزال الكتب؛ لأن تبيين الحق ما هو إلا من قِبلِ الحق، بل بالحق، كما أخبر سبحانه عن حقيقة حال الكفرة في الإيمان والكفر، بعد ما تيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المظهِر لطريق الحق بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده بإيضاح البينات ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم بإيصالهم إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات.

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي عبدة الأوثان ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي لم يكونوا زائلين منفصلين في حينٍ من الأحيان عن الإيمان والاعتقاد بنبوة محمد ﷺ، إذ أهلُ الكتاب آمنوا بنبوته، بمقتضى ما وجدوا في كتبهم، والمشركون سمعوا من أسلافهم وصفَه ونبوتَه، واعتقدوا بعثتَه، فآمنوا له، ولم يزالوا على هذا الاعتقاد

حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ....

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ على مقتضى سنة الله، فظهرت الحجة الواضحة والبينة الموضِّحة، وتلك البينة والبرهان:

﴿رَسُولٌ﴾ مرسلٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مؤيدٌ من لدنه بالآيات الواضحة والبينات الإلهية ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا﴾ أسفاراً محفوظةً مصورةً معجزةً ﴿مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ عن مطلق الرذائل، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيلٌ منزلٌ من حكيم عليم.

﴿فِيهَا﴾ أي خلالها ومطاويها ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ أي مكتوباتٌ صادقةٌ حقةٌ من الأوامر والنواهي والأحكام المتعلقة لدين الإسلام، صادقةٌ مستقيمةٌ، لا عِوج لها ولا انحرافَ، ناطقةٌ بالحق الصريح. وبالجملة:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ﴾ واختلف في الإنكار والاعتقاد، والإيمان والكفر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ يعني ما تفرقت تلك الأمم عما هم عليه من تصديق النبي الموعود، إلا من بعد ما ظهر الرسول الموعود، ولاحت البينة الواضحة الدالة على صدقه في نبوته ودعوته، ألا وهو القرآن المعجزُ المبيِّنُ لشعائر الإسلام.

وبالجملة اختلفوا في نشأته ﷺ، وبعد بعثته، فمنهم من آمن له على مقتضى ما وجده في كتابه، ومنهم من كفر وأنكرَ عليه عناداً ومكابرةً، ولهذا حرَّف أوصافَه المذكورة في الكتب السالفة، مع أنهم لم يجدوا في دينه

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ
وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ....

وكتابه ما يخالف أحكام كتبهم وأديانهم.

﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿ مَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في كتبهم ﴿ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية والألوهية ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ مخصِّصين ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والانقيادَ بلا اشتراكٍ وإلحادٍ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن مطلق الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة لهم في أوقاتها الموعودة المحفوظة ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ المصفية لأموالهم على وجهها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أُمروا به في كتبهم هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ والملة المستقيمة التي ظهر عليه محمد ﷺ، بلا تغييرٍ وانحرافٍ فيه واختلافٍ. وهم بالجملة ما كفروا وأنكروا نبوته ورسالته ﷺ إلا عناداً ومكابرةً، بلا مستندٍ صحيحٍ لا عقلي ولا نقلي. وبالجملة:

﴿ إِنَّ ﴾ الكافرين المعاندين ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بنبوة محمد ﷺ ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَ﴾ من ﴿ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ داخلون ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الطرد والحرمان ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ﴾ لا يتحولون عنها أصلاً، إلا إلى عذابٍ فوق العذاب، وأشد منه. وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المطرودون عن ساحة عز القبول ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ الخليقة، وأردؤُهم، كأنهم مقصورون على الشرارة والرداءة مجسّمون منها.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ منهم بوحدة الحق وصدّقوا بنبوة محمد ﷺ، وقَبِلوا

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ
رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

دعوتَه ودينَه حسب ما وجدوا في كتبهم، وسمعوا وصفه من أسلافهم بلا تحريفٍ ولا تغيير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقرِّبة لهم إلى الله، والمرضية عنده سبحانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ وأحسن الخليقة.

﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ الذي استحقوها بإيمانهم وأعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ منتزهاتُ علمٍ وعينٍ وحقٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي جداول المعارف والحقائق المتجددة المرشحة من بحر الحقيقة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ دائمين فيها سرمداً، وبالجملة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ﴾ المفضلُ المنعمُ العليمُ الحكيمُ ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن أعمالهم ونياتهم وأخلاقهم فيها ﴿وَرَضُوا۟﴾ أيضاً ﴿عَنْهُ﴾ سبحانه بما قسّم الله لهم، وأفاض عليهم بمقتضى استعداداتهم وقابلياتهم، وبالجملة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأجر الجزيل والرضا الجميل ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ وخاف عن سخطه وغضبه، فامتثل بأوامره، واجتنب عن نواهيه، واتصف بالتقوى عن مطلق محارمه ومحظوراته.

جعلنا الله من زمرتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها الراجي لقبول الحق والرضاء: أن تصفي سرك عن مطلق الرعونات المنافية للرضا عما جرى عليه القضاء، وتخلي ضميرك عن الميل إلى مطلق البدع والأهواء المبعِدة عن التقرب نحو المولى، فلك التسليمُ والرضا، والتبتلُ نحو الحق في السراء والضراء، والتوكلُ عليه في الخصب والرخاء، فإنه لا تحرك في ملكه إلا ما يشاء.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) ....

فاتحة سورة الزلزلة

لا يخفى على المنكشفين بالنشأة الأخرى التي هي نشأة انتقال الأعمال وجزائها: أن الحكمة الإلهية الباعثةَ على إيجاد الموجودات وإظهار المخلوقات تقتضي أن يكون نشأة الاختبار والابتلاء سابقةٌ على نشأة الجزاء؛ لتظهر سرائر التكاليف الإلهية وفوائدُ الأوامر والنواهي والأحكام المنزلة من عنده، ويتميزَ مرتبةُ الربوبية عن مرتبة العبودية ومكانةُ الألوهية عن المألوهية.

وبعد ما اقتضت الحكمة المتقَنة الإلهية بترتب النشأة الأخرى عن الأولى، أشار سبحانه إلى أَمارات النشأة الأخرى وعلاماتها بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ المدبر لأمور عباده حسب النشأتين ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم في النشأة الأولى، حيث وضع التكاليف المثمرة لهم خير الجزاء ﴿ الرَّحِيمِ ﴾لخواصهم في النشأة الأخرى، يجزيهم الجزاء الأوفى.

اذكر يا أكمل الرسل لمن كذب بالنشأة الأخرى، وأنكر يوم العرض والجزاء كيف يفعل؟

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ أي هاجت واضطربت، بعد ما وصل إليها الأمر الإلهي المتضمنُ للتحريك والتهييج ﴿زِلْزَالَهَا (١)﴾ الذي قدر الله لها عند

وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ....

النفخة الأولى.

﴿وَ﴾ بعد ما هاجت وتحركت ﴿أَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ أي دفائنَها ومكنوناتها، وما في جوفها من الأموات.

﴿وَ﴾ بعد ما رأى الناس زلزالها وإخراجها ﴿قَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من كمال حيرته وتعجبه: ﴿مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ أي ما عرض على الأرض ولحق بها حتى اضطرتها إلى الحركة والاضطراب، مع أنها ساكنةٌ في حد ذاتها جامدةٌ. وبالجملة:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرضُ بإلهام الله إياها ﴿أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ أي الأعمال التي عمل عليها بنو آدم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أَتَدْرُوْنَ مَا أَخْبَارُهَا».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُوْلَ عَمِلَ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»(١)، وذلك

(١) رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل يا أيها الكافرون ربع القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن» ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه المستدرك [١/ ٧٥٤ رقم/ ٢٠٧٨/ باب: ذكر فضل سور وآي متفرقة] والترمذي في سننه [٥/ ١٦٦ رقم / ٢٨٩٤/ باب:ما جاء في ﴿إذا زلزلت﴾] وعبد الرزاق في المصنف [٣/ ٣٧٢ رقم / ٦٠٠٨/ باب: تعلم القرآن وفضله] إلا أن عبد الرزاق لم يذكر في روايته هذه فضل سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ .

(قلت): أما فضل سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ فقد وردت في الصحيحين، انظر: صحيح البخاري

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ
﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ أي أمرَها سبحانه، وأذِن لها بالكلام، وألهمها، فحينئذٍ تكلمت وتحدثت.

اذكر يا أكمل الرسل:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ ويرجعُ ويعودُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن موقف العرض والحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرِّقين متحزِّبين حسب مراتبهم في الحساب، كلٌّ منهم مع شاكلته ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ أي أجزئتهم المعدة لهم في الجنة والنار. وبالجملة:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي مقدار نملةٍ صغيرةٍ ووزنها ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ أي يرى جزاءها في الجنة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ أي جزاءها في النار.

وهذه الآية أحكم آيةٍ وأقسطها، من الآيات الدالة على كمال العدل الإلهي وأشملها حكماً، لذلك قال ﷺ: «إِذَا زُلزِلَتِ تَعْدِلُ نِصْفَ القُرْآنِ، و: قُلْ هُوَ اللهُ أُحَد تَعدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ، و: قُلْ يَا أَيُّهَا الكافِرُونَ تَعْدِلُ رُبُعَ القُرْآنِ»(١).

بروايات متعددة [٤/ ١٩١٥-١٩١٦] و [٦/ ٢٤٤٩-٢٦٨٥ حديث رقم /٤٧٢٦ - ٤٧٢٧ - ٦٢٦٧ - ٦٩٣٩/ باب فضل قل هو الله أحد]، ومسلم في صحيحه [١/ ٥٥٦ - ٥٥٧ حديث رقم /٨١١ - ٨١٢/ باب فضل قراءة قل هو الله أحد]، وغيرهم من أصحاب السنن والمسانيد، وقد ادعى المناوي التواتر فيه. راجع [فيض القدير: ٤/ ٥٢٠].

(١) في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول برقم: ٦٢٧٦ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الحق أن تأتي[1] وتتصف بصوالح الأعمال، وتجتنبَ عن فواسدها لترى أحسن الجزاء، وتزيد عليها على مقتضى إخلاصك فيها وخشوعك في إتيانها، فلك أن تجعل مضمون هذه الآية نصب عينيك في عموم أحوالك وأعمالك، لتكون على ذكرٍ تامٍ وفطنةٍ كاملةٍ، مما يترتب على أعمالك من الجزاء.

جعلنا الله من زمرة المتذكِّرين الممتثِلين بمقتضى هذه الآية.

أخرجه الترمذي.

(١) في المخطوط (أن تتأنى)

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العاديات

لا يخفى على المستكشفين من نفحات الحق، المستروحين نسمات النفسات الرحمانية من قبل يمن اللاهوت، بإرسال حضرة الرحموت: أن النَّيل والوصولَ إلى تلك المنازل البهية والمقامات العلية، إنما هو بعد رفض شواغل الناسوت، ورفعِ موانع بقعة الإمكان، وقطعِ آماله المتسقة، وأمانيه المتسلسلة.

وذلك لا يتيسر إلا بجذب الحق وتأييده، واجتهاد العبد، وبذلِ جهده ووسعه.

لذلك أقسم سبحانه بما أقسم من النفوس المتشوقة وقرن[1] مع القسم ما قرن من كفران الإنسان وخسرانه باشتغاله على ما لا يعنيه من لوازم الحجج الناسوتية، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ المدبِّر لأمور الإنسان حتى أوصله إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ عليه بخلقه على صورته ليليق بخلافته ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ له يربيه ويهديه إلى حيث يوصله إلى بحر وحدته.

---

(١) في المخطوط (المشوقة على القسيم ما أقرن كفران الإنسان).

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ أقسم سبحانه بالنفوس المقدسة الزكية عن مطلق الرذائل والأنسية وشبَّهها في سرعة العدو والجري بالخيول الجياد العادِيةِ المجاوزِة عن مضائق بقعة الإمكان، ومحابس نشأة الناسوت نحو فضاء الوجوب، ومراتب[1] عوالم اللاهوت، شوقاً إليها وتحنناً نحوها.

لذلك كلما قطعتْ عقبةً من العقبات الناسوتية تضبح ضبحاً.

والضبح هو صوت أنفاس الفرس عند العَدْو.

وتلك النفوس تضبح تشوقاً إلى مقعد الوجوب، وتنفساً عن كروب الإمكان وأحزان الهيولى والأركان.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾ أي النفوس المتحننة للسرعة، المستعجلةُ نحو الموطن الأصلي، بالميل الجِبلِّي، سيما بعد الجذب الإلهي الموري لحوافر مراكب الشوق عند عَدْوِها على أحجار الطبائع وجنادل الهيولى والأركان، نار المحبة والمودة، من شدة تشوقها وتلذذها إلى النيل والوصول، واستنشاقِها من نسائم روائح الحضور والقبول.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾ أي النفوس التي تغير في المبادرة والمسابقة نحو عالم اللاهوت، وتجتهد وتسعى أن تصل إليها قبل كلِّ واحدةٍ من النفوس المبادرة إياها والساعية نحوها.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ أي هيجن وحركن في ذلك الوقت الذي وصلن إليه ﴿نَقْعًا ﴿٤﴾﴾ ليكون علامةً تدل على وصولهن.

(١) في المخطوط (ومراتع).

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ
﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾
وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ....

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي دخلن بذلك الوقت ﴿جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ سكان عالم اللاهوت أي المطلقِينَ عن جميع القيود الناسوتية، وبالجملة بحق هذه المقسمات العظام

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المجبولَ على الكفران والنسيان ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ الذي ربّاه بأنواع الكرم والإحسان ﴿لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ كفورٌ مبالغ في الكفران والطغيان.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي الإنسان نفسه ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي كنوديته وكفوريته ﴿لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ لِظهورِ آثار الكفران والطغيان عليه دائماً.

وبالجملة هو نفسُه شاهدٌ على كفره وكفرانه، وشركِه وطغيانه، إلى حيث يلوح أثر عصيانه عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ من شدة بغيه وعدوانه وغفلته على الله وإحسانِه ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي المال والجاه والثروة والسيادة المبعِدة له عن كنف مولاه ﴿لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ قويٌ مبالغٌ فيه، مباهٍ متناهٍ فيه، حريصٌ في طلبه، متعبٌ نفسَه في تحصيله.

وحبُّه هذا ما هو إلا من غاية كفرانه بِنِعَم الله وحرمانه عن مقتضى كرمه وضعف يقينه بالله وموائد إنعامه وإحسانه. وبالجملة:

﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان الكفور الكنود المحبُّ للجاه والمال ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ أي بُعث ونُشر وحُشر ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾ من الموتى.

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿وَحُصِّلَ﴾ أي جُمِّع وميِّز ﴿مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ من المكنونات، خيراً كان أو شراً.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم ورباهم بأنواع الكرم ﴿بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾، وهو يوم القيامة التي فيه تبلى السرائر وتكشف الضمائر ﴿لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ بصيرٌ بعموم ما جرى عليهم في نشأة الاختبار، خيراً كان أو شراً، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، بلا فوت شيء من ذلك، ومع علمه سبحانه بهم وبما صدر عنهم، يعملون عملاً سيؤاخذون عليه.

نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

خاتمة السورة

عليك أيها الإنسان الكامل المجبول على حكمة المعرفة والإيقان: أن تشمِّر ذيلك إلى ما جُبِلت لأجله، وتخلِّيَ خلدك عن مطلق الأشغال العائقة عن التوجه الحقيقي نحو الحق، فلك أن ترى يومَ الجزاء بين يديك ونصب عينيك. وبالجملة لا تغفل عن الله فإنه يرقبك في أولاك وأخراك.

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة القارعة

لا يخفى على الموقنين المنكشفين بسرائر النشأتين: أن النشأة الأولى لاكتساب المعارف والحقائق الكاملة في مطاوي التكاليف الإلهية وسرائر أوامره وأحكامه. والثانية إنما هي للجزاء المترتب على تلك المعارف والحقائق، ولا شك أن من تهاون وتقاصر عن ما لزمه في الأولى فقد ضل وغوى واستحق الويل واللظى، ولحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وفي الآخرة يجازون بمقتضاها.

وللتهويل على أصحاب الغفلة وتقريعهم، سمى سبحانه يوم القيامة بالقارعة، وأبهمها تفظيعاً وتهويلاً، فقال بعد التيمن:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتصف بالقهر واللطف حسب النشأتين ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾على عموم المطيعين من عباده في النشأة الأولى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ على المخلصين منهم في النشأة الأخرى، يوصلهم إلى أقصى درجات النعيم.

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾ أي الساعة التي تقرع الأسماع من هولها وهيبتها، وتُدهشُ العقول من شدتها وصولتها، ثم أبهم سبحانه تهويلاً فقال:

مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ....

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾ المذكورة وأية شيءٍ هي، ثم أبهمها مرة أخرى على حبيبه ﷺ تأكيداً على تهويلها وفظاعة شأنها، فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأعلمك يا أكمل الرسل ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ العجيبة الشأن الفظيعة العظيمة الهائلة المهولة.

ثم عدّ سبحانه لوازمها وما يترتب عليها؛ لينتقل منها إليها.

وإنما أشار سبحانه بهذه الطريقة أيضاً إلى شدة هولها وفظاعتها؛ ليكون تهويلاً على تهويلٍ، وتأكيداً على تأكيدٍ. اذكر يا أكمل الرسل لمن تذكّر:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ من شدة أهوالهم وأفزاعهم ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ أي كالطير المتهافِت على النار من شدة اضطرابه، يعني يكون الناس يومئذ مثل الفراش المتفرق في الجهات من غاية الاضطراب، بحيث لا يتمالكون على نفوسهم، بل يركب بعضهم فوق بعض، ويطأ بعضهم بعضاً من شدة خشيتهم ورهبتهم وازدحامهم.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ من كمال قهر الله وغضبه ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ أي كالصوف الملون المندوف، تطير في جوّ الهواء يمنة ويسرة. وبالجملة:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ﴾ يومئذٍ ﴿مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾ أي رُجحت مقادير حسناته

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ
هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

على مقادير سيئاته:

﴿فَهُوَ﴾ يومئذٍ ﴿فِي عِيشَةٍ﴾ هنيئةٍ مريئةٍ ﴿رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ صاحبها عنها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ يومئذ ﴿مَوَازِينُهُۥ ۝٨﴾ أي خفت حسناته وثقلت سيئاته:

﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي مستقرُّه ومأواه، وما يأوي إليه ﴿هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ هي من أسماء جهنم، ثم أبهمها سبحانه تهويلاً وتفظيعاً فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ أي الهاوية، ثم فسرها ليكون أدخلَ في التهويل فقال:

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ أي ماهية الهاوية، وحقيقتها نار ذات حمى وحرارة، بحيث قد انتهت في الحرارة والسخونة غايتها.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لترجيح الحسنات على السيئات: أن ترغب في سرك ونجواك عن مستلذات الدنيا ومشتهياتها، وتركنَ إلى اللذات الروحانية من الأحوال والمواجيد الأخروية المستلزمة للدرجات العلية والمقامات السنية عند الله.

وإياك إياك الأماني وطول الأمل، فإنها توقعك في فتنةٍ عظيمةٍ وبليةٍ شديدةٍ، لا نجاة لك منها.

خلصنا الله وعموم عباده من غوائل الدنيا وما فيها.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة التكاثر

لا يخفى على من هداه الله إلى طريق المعرفة والإيمان، وكشف له سبيلَ الكشف والعيان، وأفاض عليه سبحانه الفضل والإحسان: أن الأموال والأولاد ومطلق المزخرفات الدنياوية الفانية، التي هي أسباب التكاثر والتفاخر وعلل الاستكبار والخيلاء في النشأة الأولى من العوائق العائقة عن الوصول إلى روضة الرضا وجنة المأوى.

فلا بد لأرباب الإرادة والولاء أن يتزهدوا عنها، ولا يلتفتوا إليها، ويتزودوا بزاد التقوى، فنعم الزاد التقوى، والرضا بما جرى عليه القضاء.

لذلك خاطب سبحانه في هذه السورة أهل المفاخرة والمباهاة بتكاثر الأموال والأولاد، وأوعدهم بما أوعدهم تسجيلاً على ضلالهم وانحرافهم عن جادة العدالة الإلهية وصراط التوحيد، فقال بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المتجلي بكمالاته في الإنسان؛ ليربيه على نشأة الإيمان والعرفان ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾عليه بأنواع اللطف والإحسان؛ ليتوجه نحوه في عموم الأحيان ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ له يهديه إلى مرتبة الكشف والعيان.

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ أي شغلتكم المفاخرة والمباهاة بكثرة الأموال

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ ....

والأولاد أيها المنهمكون في بحر الغفلة والضلال عن توحيد ربكم وطاعته، وكنتم على هذا طول عمركم.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ ولحقتم ﴿ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ وصرتم أمواتاً مثلهم، وما صدر عنكم، وما جُبلتم لأجله طول دهركم، ثم قال سبحانه ردعاً لهم وتهديداً:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أن أمركم وشأنكم ما هذا التفاخر والتكاثر، وستعلمون ما يترتب عليها.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ أن الأمر ليس هذا، كرره تأكيداً ومبالغةً في التهديد والوعيد، وتهويلاً للوعود، ثم سجَّل عليهم سبحانه جهلهم وضلالهم بقوله:

﴿كَلَّا﴾ يعني ما تتكاثرون وتفتخرون بهذه الزخرفة الفانية أيها الجاهلون المكابرون ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ أي لو علمتم يقيناً علمياً، وصدَّقتم تصديقاً قلبياً أنكم:

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ لما تكاثرتم وتفاخرتم بما تفاخرتم، وما خطر ببالكم هذه الخواطر الكاذبة، إلا أنكم جاهلون غافلون عن رؤيتها، بل منكرون لها، لذلك تفتخرون وتتكاثرون بالحطام الدنية الدنياوية، وتستلذون بلذاتها الفانية، وشهواتها الغير الباقية.

ثم كرر سبحانه أمر الرؤية تهويلاً عليهم وتنصيصاً على وعيدهم فقال:

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ أي الجحيم المعدة لتعذيبكم ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ أي يقيناً عينياً، حتى تعاينوا بها، وترون منازلكم فيها.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيها الناس الناسون لعهود الحق ومواثيقه ﴿يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ الفاني الذي يُشغلكم عن الحق ويلهاكم عن طاعته وعبادته، فحينئذٍ ظهر عليكم خطأ آرائكم وفساد أهوائكم التي كنتم عليها في النشأة الأولى.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتصف باليقين العلي بعموم المعتقدات الأخروية: أن تكون على ذكرٍ منها بحيث يكون علمك بها عيناً قبل حلولها ونزولها، فعليك ألا تركن إلى الدنيا[1] : مزخرفاتها ونعيمها ولذاتها، وتقنع بالكفاف وتتصفَ بالعفاف، وتلازمَ العزلةَ والخمولَ والفرارَ عن أصحاب الفضول فإن صحبة الأشرار يعوقك عن ملاحظة الأسرار ويمنعك عن مشاهدة الأنوار.

ربنا هب لنا من لدنك جذبةً تنجينا من فضول الكلام وتوصلنا إلى دار السلام.

(١) في المخطوط (فعليك أن تركن عن الدنيا).

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة العصر

لا يخفى على من انكشف له وحدة الحق واستقلاله في الوجود وسريانه في جميع الموجودات والمشهودات الظاهرة على صفحات الكائنات: أن ما سوى هذه الملاحظات والمشاهدات المتعلقة بكيفية شؤون الحق وتطوراته المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، إنما هو خسرانٌ مبينٌ ونقصانٌ عظيمٌ، إذ الفطرية الإنسانية إنما جُبلت لأجلها، فمن لم يتصف بها فقد خسر خسرانا مبيناً.

لذلك نبه سبحانه في هذه السورة على خسران الإنسان وحرمانه عن طريق العرفان ما لم يتصف بالإيمان والأعمال الصالحة، فقال سبحانه مقسماً بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ الذي خلق الإنسان على صورته ليتخلق بأخلاقه ﴿الرَّحْمَٰنِ ﴾ عليه حيث أظهره من كتم العدم وربّاه بأنواع اللطف والكرم ﴿الرَّحِيمِ ﴾ عليه يهديه إلى صراط مستقيمٍ موصلٍ إلى توحيده.

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ أقسم سبحانه بالعصر والدهر الذي هو عبارةٌ عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي ودوامه السرمدي:

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ المجبولَ على فطرة المعرفة والإيمان حسب حصته اللاهوتية ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ عظيمٍ وخيبةٍ بيّنةٍ بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم بشريته المتعلقة بحصة الناسوت.

﴿ إِلَّا ﴾ الموقنين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بوحدة الحق، وتفطَّنوا باستقلاله في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإذعان ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الدالة على إخلاصهم ويقينهم ونياتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً لسلوك طريق الحق وتوحيده ﴿وَتَوَاصَوْا۟ ﴾ أيضاً ﴿ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ على مشاقّ الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم، من قطع المألوفات الإمكانية، وترك اللذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية.

وفقنا الله على قلعها وقطعها.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد لقطع العلائق الإمكانية: أن تتصبر على عموم البلوى العارضة لك في نشأتك الأولى، وتسترجع إلى الله في جميعها، وتسنده إليه سبحانه أولاً وبالذات، بلا رؤية الوسائل في البين، وتوطنَ قلبك مع ربك في جميع حالاتك، وترضى عن الله في عموم ما جرى عليك في مقتضيات قضائه، وبالجملة كن فانياً في الله تفز بخير الدارين وفلاح النشأتين.

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الهمزة

لا يخفى على الموحدين المستكشفين عن سرائر التوحيد واليقين: أن الكمالات الدينية كلها منوطةٌ بالتخلق بأخلاق الله والتأدبِ بآدابه، فلا بد لأرباب الإرادة والطلب أن يهذِّبوا ظواهرهم أولاً بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المقتبسة من مشكاتي النبوة والولاية، وبواطنَهم بالخواطف الغيبية والهواتف اللدنية الملهَمة إليهم حسب القوى القدسية اللاهوتية المتعلقة باستعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلِّية، فمن رغِب عنها، ولم يتصف بها، فما له في الآخرة من خلاق.

لذلك حث وحرَّض سبحانه في هذه السورة أربابَ العناية والتوفيق على كسب الآداب، والتخلق بمحاسن الأخلاق والاتصاف بأوصاف الكمال بتوبيخ أصحاب الغفلة والضلال المسيئين الأدب مع الله ومع عباده، وبسوء منقلبهم ومآبهم عنده سبحانه، فقال بعد التيمن:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته في نوع الإنسان ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بأنواع اللطف والإحسان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لخواص عباده حيث خلَّقهم بأخلاقه.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ ....

﴿وَيْلٌ﴾ عظيمٌ وهلاكٌ هائلٌ شديدٌ لكل فردٍ من أفراد الأقوام ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ يمشي بين الناس بالهمز وكسر الأعراض، وصارت له هذه الديدنة القبيحة عادةً راسخةً مستمرةً، وأيضاً لكل ﴿لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ يطعن في أنساب الأنام وينسبهم إلى أنواع البغي والآثام، افتراءً ومراءً، وما جرَّأه وحمَّله على هذه الخصلة القبيحة والفعلة الوقحة إلا ثروته وماله وجاهه وسيادته، فإنه

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ وأمتعةً من الزخارف الدنية الدنيوية التي مالت قلوب أبنائها وأصحابها إليها ﴿وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾﴾ أي أدام وأبقى مالُه نفسَه وجعله مخلداً في الدنيا مستمراً فيها أبداً، بحيث لا يطرأ عليه زوالٌ وانتقالٌ.

وبالجملة اغتر بماله وجاهه إلى حيث خيل له الخلود به فيها والدوام عليها بطراً وغروراً، ثم قال سبحانه:

﴿كَلَّا﴾ ردعاً له عن حسبانه واغتراره وخطأِ رأيه وطغيانه، يعني من أين يتأتى ويتيسرله الخلود والدوام فيها؟!! والله ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ ويطرحن يوم الجزاء ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾ أي النارِ التي من شأنها أنها تحطم وتكسر وتفني من يطرح فيها، ثم أبهمها تهويلاً فقال:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ المعدة لتعذيبه، ثم فسرها لكونه أدخل في التهويل والتفظيع بقوله:

نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ﴾ وتعلو ﴿عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ والأكباد أي حرقُها وإيلامها غير مختص بظواهر الجلود، بل يسري إلى البواطن أيضاً، كما أن أثر الهمز واللمز اللذيَن هما سببا التعديل بهذه الحُطمة سيشمل ظواهر الناس وبواطنهم. وبالجملة ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار الموقدة الإلهية ﴿عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾﴾ أي مطبقةٌ عليهم، محيطةٌ بهم، محفوفةٌ بحواشيهم وحواليهم، وهم حينئذٍ مشدودون وموثَّقون بأيديهم وأرجلهم.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾﴾ أي أعمدة وأخشاب طوالٍ مثقوبة، ومن أعناقهم بالسلاسل والأغلال، ألا وهي مصورةٌ من سلاسل الآمال وأغلال الأماني التي هم مقيدون بها في بقعة الإمكان.

أعاذنا الله وعموم عباده منها.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الوجِل الخائف عن مقتضيات القهر الإلهي وموجبات غضبه: أن تعتدل في عموم أخلاقك وأطوارك، وتعيش بين بني نوعك هيّناً ليّناً فرحانَ، بلا مماراةٍ ومخاصمةٍ تصاحبهم وتداريهم على وجه الوفاق والملاطفة، بلا شوب الشقاق والنفاق.

وبالجملة ترجِّحهم على نفسك في كل الأمور، وتراعيهم حسب المقدور فإن رعايتك إياهم، وترجيح جانبهم يؤدي إلى مراعاة جانب الحق وترجيحه.

وبالجملة أحسن إليهم كما أحسن الله لك، فكن من المحسنين، واعبد ربك في كل ذرةٍ حتى يأتيك اليقين.

سُورَةُ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ....

فاتحة سورة الفيل

لا يخفى على من انكشف بحيطة الأوصاف الإلهية وشمول أسمائه الحسنى على عموم ذرائر الأكوان: أن من جملتها القادرة الغالبة المودَعة في أجزاء العالم كلها متى تعلق إرادته سبحانه بإظهار القدرة أظهرُ من كل ذرةٍ ونملةٍ حسب قدرته الغالبة أفعالاً عجيبةً وآثاراً بليغةً، تُدهش العقول وتُقرع الأسماع.

كما أخبر سبحانه في هذه السورة لحبيبه ﷺ تثبيتاً له وتوطيناً تتميماً لتربيته، فقال بعد ما تيمن:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ القادر المقتدر على كل ما دخل في حيطة علمه وإرادته ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ لعموم عباده حيث دبَّر أمورهم على مقتضى الحكمة المتقَنة البالغة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى الدرجة الرفيعة اللاهوتية.

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ولم تعلم يقيناً علمياً حاصلاً لك من طريق السمع إلى حيث وصل إلى مرتبة اليقين العيني من كثرة السماع من الثقات، وتكرره ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ الذي رباك يا أكمل الرسل لرسالته، وأظهر دينك على الأديان

بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ....

كلها، ونصرك على عموم أعدائك بقدرته الغالبة ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾﴾ وهو جيش أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي.

قصد هدم الكعبة عمّرها الله، فخرج مع جيشه، ومعه فيلٌ كثير، لكن فيها فيل عظيمٌ جسيمٌ في غاية الجسامة، مسمىً بمحمود، كانوا يأمرون له بهدم البنيان، فيهدمها في الحال، ولهذا سموه بهذا الاسم.

وسبب هذا القصد أن أبرهة بنى كنيسةً بصنعاء، فسماها قُليس، فعزم أن يصرف الحاج من مكة إليها، فلما انتشر الخبر، ذهب رجلٌ من كنانة إلى قُليس ذات ليلةٍ، فتغوط فيها ولطخ بها محاربها، فوصل الخبر إلى أبرهة فغار غيرةً شديدة، فحلف: والله لأهدمن الكعبة.

فخرج مع جيشه وفيله، حتى وصل إلى حوالي الحرم، وأراد أن يأمر الفيل بهدمها، فبرك ولم يبرح[1] نحوها، فضربوه وشددوا عليه، فلم يفِد، فكانوا إذا وجهوه إلى جهةٍ غير جهة البيت، هرول وأسرع، وأما نحوها فلم يمش قط، فصاروا متحيرين في شأنه. كما قال سبحانه:

﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ﴾ الذي كادوا به لهدم البيت وانصراف الزوار عنه نحو بيتهم الذي قد بنوا ﴿فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾﴾ ضياعٍ وهلاكٍ؟.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون في الضياع والخسار إذ ﴿أَرۡسَلَ﴾ سبحانه بمقتضى قدرته الغالبة ﴿عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ أفواجاً كثيرةً متفرقةً متفوقةً من

(١) في المخطوط (ولم يرح)

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

جنسٍ واحدٍ من الطير، مع كل واحدٍ منها ثلاثة أحجار:

﴿ تَرْمِيهِم﴾ يعني الطيرُ جيشَ أبرهة ﴿ بِحِجَارَةٍ ﴾ متخذةٍ ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ وهو معرب: سنك وكل

﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ من كثرة ما ترميهم بها ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ أي كتبنٍ يأكله الأنعام، وتروث به، فتفرقه الرياح، أي صاروا من شدة غضب الله إياهم هباءً منثوراً.

خاتمة السورة

عليك أيها السالك الخائف من بطش الله، المحترز عن مقتضى قهره وجلاله: أن تكون في عموم أحوالك وأطوارك بين الخوف والرجاء عن جلال الله وجماله، بحيث لا يجري عليك نفَسٌ من أنفاسك، وأنت فيه خالٍ عن كلا النقيضين.

وبالجملة لا تيأس من رَوح الله، ولا تتكل على كرمه، فاعلم أنه سبحانه يرقبك في حالاتك، ويعلم منك ما لم تعلم من نفسك، فكن من المخلِصين ولا تكن من القانطين، فإن ناقدك خبير بصير.

سورة قريش

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة قريش

لا يخفى على من تفطن بسرائر العبودية المستلزمة لأنواع التذلل والخضوع والانكسار التام والخشوع المفرط: أن الباعث عليها والداعي إليها إنما هو الإنعام العام والإحسان التام الذي هو القيام على عموم الحوائج اللازمة للهوية الشخصية المقوِّمة لها، المبقية لماهيتها.

ولا شك أن المتكفل المستقل لحوائج عموم المظاهر والمجالي هو الله الواحد الأحد الصمد القادر المقتدر على جميع المقدورات بالاستقلال والاختيار، المربي للكل بأنواع اللطف والكرم، وهو المستحق للإطاعة والانقياد استحقاقاً ذاتياً وصفياً.

وكيف لا، إذ لا معبود سواه، ولا إله غيره، لذلك أمر سبحانه حبيبه في هذه السورة بعبوديته وانقياده، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المظهِر للكل من كتم العدم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾على الكل بأنواع الكرم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾عليهم بإلزام العبودية والذمم. تعجبوا أيها المعتبرون!

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ﴿١﴾﴾ أي ائتلافهم وتآلفهم في ما بينهم واتفاقهم على أن ينصرفوا من حوالي بيت الله حين

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣
ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ واتفاقهم على الظعن والارتحال ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾ يعني: يرتحلون في كل سنة مرتين: مرةً في الشتاء نحو اليمن، ومرة في الصيف إلى الشام، والباعثُ على ترحالهم فَقْدُ الزاد في مكة، إذ هي بِوادٍ غير ذي زرع، فيشق عليهم الأمر، فيتجروا في كل سنة مرتين، فكرِه الله منهم هذا، وأمرهم بالمكوث والإقامة حول بيته، بقوله:

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾ وليعتكفوا في حواليه، وليتوكلوا عليه، ولا يتجروا، إذ هو القادر المقتدر:

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾ وأشبعهم ﴿مِّن جُوعٖ﴾ شملهم وأحاط بهم حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ لحقهم من أعدائهم مراراً ببركة هذا البيت، فلهم أن يسكنوا في حواليه، متوكلين على ربه، يكفي لهم مؤنة أرزاقهم بحوله وقوته، كما كفى لهم فيما مضى.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه إلى الله، المتوكلُ على كرمه وإحسانه: أن تمتثل بجميع ما أمرك الحق عليه، وتفوضَ أمورك كلها إليه، وترضى على عموم ما جرى عليك من القضاء، وتعتقدَ أن الأمر كله لله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

سورة الماعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الماعون

لا يخفى على من انكشف له سرائر الدين القويم وحِكَمُ الأحكام الموردة في الشرع المستقيم، ومصالح التكاليف الواردة من العليم الحكيم: أن سر العبودية والتدين والانقياد، إنما هو التأدب مع الله، وحسنُ القيام على أداء حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته، ولا شك أن من تقاصر فيها، وتهاون عليها، فقد انحرف عن جادة العبودية، واستحق الويل والثبور من الله المنتقم الغيور.

كما أشار إليه سبحانه في هذه السورة مستفهماً على سبيل التعجب والاستبعاد فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي وضع الدين بين الأنام ليهديهم إلى دار السلام ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليهم بإنزال التكاليف والأحكام ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ عليهم يوصلهم إلى أعلى المكانة وأرفع المقام.

﴿أَرَءَيۡتَ﴾ أي هل عرفت وأبصرتَ المعاند الكاذب ﴿ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ أي بيوم الجزاء والحساب الموعود؛ لتنقيد الأعمال والأفعال الجارية في نشأة الاختبار؟.

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ....

﴿فَذَٰلِكَ﴾ المكذِّب المنكِر هو ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ﴾ ويدفع بالعنف المفرط ﴿ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ الذي جاءه لينفعه من ماله الذي كان عنده؛ لكونه قيما لليتيم ووصيًا له، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل غيره، وما ذلك إلا من غاية بخله وخساسته.

﴿وَ﴾ من شدة بخله وخساسته وإمساكه المفرط ﴿لَا يَحُضُّ﴾ لا يحثُّ أحداً ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ يعني هو لا يطعم ولا يرضى أيضاً بإطعام الغير من شدة شحه وإمساكه، هذا أمَارة تكذيبه بالدين والجزاء بحسب الظاهر، أما بحسب الباطن:

﴿فَوَيْلٌ﴾ عظيمٌ وعذابٌ أليم ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ المكذِّبين بيوم الجزاء، المنكِرين لمعالم الدين المستبين؛ لأنهم

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ غافلون لا يحافظون عليها في أوقاتها المحفوظة لها، ولا يواظبون على إقامتها، بل هم:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ بها على رؤوس الملأ ويتركونها في خلواتهم؛ لعدم اعتدادهم واعتقادهم بها، وما يترتب عليها من الجزاء، مع تهاونهم وتكاسلهم في الصلاة التي هي عماد الدين وأعلى مراسم التوحيد واليقين.

وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ أي الزكاةَ المهذِّبةَ لنفوسهم عن الشح المستهجَن والتقتير المستقبح، والفتوات المؤدية إلى عموم الحسنات والخيرات المسقطة للمروءات.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لطريق الحق الحقيق بالإطاعة والإتباع: أن تهذب ظاهرك وباطنك عن مطلق الرذائل المنافية للعدالة الإلهية، وتخلي سرك عن الالتفات إلى ما سوى الحق؛ لتكون صلاتك منك ميلاً حقيقياً إلى الله، ومعراجاً معنوياً موصِلاً إلى توحيده.

وإياك إياك المراء والمجادلة مع بني نوعك، والاستكبار عليهم، وإظهار الثروة والسيادة فيما بينهم بالمال والجاه، فإنه يميت قلبك، ويزيد في هواك، ويبعدك عن مولاك، تضرك في أولاك وأخراك.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الكوثر

لا يخفى على من وصل إلى بحر الحقيقة وورد على الحوض المورود والمقام المحمود الذي هو الوجود الإلهي المنبسط بمقتضى الجود الذاتي إلى عموم الموجودات: أن الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى الذي هو التوحيد الذاتي المعبَّر بالحوض الكوثر، الذي هو عبارةٌ عن كثرة الخير والبركة، ما تيسر والتقى جماهير الأنبياء والرسل للحضرة الختمية الخاتمية المحمدية صلوات الله عليه وسلامه، لذلك خُتم ببعثته أمر الإرسال والتشريع، ولهذا نبَّه سبحانه في هذه السورة على عظم شأنه وجلالة قدره ومكانه، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على حبيبه ﷺ بعموم كمالاته؛ ليكون مرآةً يتراءى منه ﷺ آثار جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على عموم الأنام ببعثته ﷺ حين يهديهم إلى دار السلام ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾للخواص منهم، يرشدهم إلى التوحيد الذاتي الذي هو المُنجي عن ظلمات

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾

الأوهام.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام عظيم جودنا ومحض كرامتنا ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل إعطاءً وكرامةً ﴿ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ الذي هو التحققُ بوحدة الذات والانكشافُ بها والوقوفُ عليها، وبعد ما أعطيناك ما أعطيناك، وخصَّصناك بالكرامة التي لم نُعط أحداً من الأنبياء والرسل الذين مضَوا قبلك

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ودُم على التوجه نحوه، وأخلص فيه، واستقم عليه ﴿وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ بدنة ناسوتك، بعد ما وصلتَ إلى كعب الذات، وفزتَ بعرفات الأسماء والصفات، تقرباً إلى الله، ولا تلتفت إلى من يشينك ويعيبك من الجهلة المكابرين.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ الذي يشينك ويبغضك في شأنك وأمرك هذا ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ المقطوع العقب والأثر، من كل خيرٍ، وأثرُك يبقى إلى قيام الساعة.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي القاصد للورود إلى الحوض والكوثر والشرب منها: أن تتوجه في عموم أوقاتك وحالاتك إلى الله على وجه التبتل والإخلاص، وتميتَ بهيمة بدنك[1] بالموت الإرادي وتهديها في طريق

---

(١) في المخطوط (بهيمة بذلك).

سورة الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحق تقرباً إليه سبحانه؛ لتنال خير الدارين وفلاح النشأتين.

فاتحة سورة الكافرون

لا يخفى على أهل الخبرة والوقوف بأمَارات مقصد التوحيد وعلامات مسلك الفناء في الله والبقاء ببقائه: أن الطرق إلى الله متفاوتةٌ، والمعارج نحوه متنوعةٌ مختلفةٌ، إذ لكلٍ وجهة هو موليها.

وأكمل الطرق وأشملها وأسلمها هو الذي ركب واستقام عليه الحضرة الختمية الخاتمية؛ لأن طريقه ﷺ مستوعبٌ لعموم الطرق والسبل، إذ هو مبني على التوحيد الذاتي المشتملِ على توحيد الصفات والأفعال مطلقاً، ولا يهتدي إليه أحدٌ من الخلق إلا بجذبٍ من جانب الحق، وتوفيقٍ من لدنه، ومن لم يؤيَّد من قبل الحق، ولم تدركه العناية من لدُنْه، ما اهتدى إليه سبيلاً.

لذلك أمر سبحانه في هذه السورة حبيبه ﷺ حين دعاه الكفرة ليعبد ﷺ سنةً إلى ما عبدوا من آلهتهم الباطلة، حتى يعبدوا الله الواحد الأحد المستحق للعبودية والتذلل سنةً أخرى مجازاةً لها مقابلةً إياها بأن لا يلتفت إلى قولهم الباطل ورأيهم الزائغ الزائل، فقال بعد ما تيمن:

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ ....

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المطلعِ لما في ضمائر عموم عباده من الهداية والضلال ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بإرسال الرسل يدعوهم إلى سبيل السلامة والرشاد ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يوصلهم إلى خير المنقلب والمآب.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل منادياً لمن دعاك إلى عبادة آلهته الباطلة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ الساترون شمس الحق الظاهر في الأنفس والآفاق بغيوم هوياتكم الباطلة.

﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ أي لا أنقاد وأتوجه، سيّما بعد ما وفَّقني الله إلى توحيده، وهداني نحو شمس ذاته، وشرفني بمطالعة وجهه الكريم ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ من الآلهة الباطلة والأظلال الهالكة العاطلة التي اتخذتموها آلهةً من تلقاء أنفسكم أنتم وآباؤكم مع أنه ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ، بل ما تتبعون أنتم وهم باتخاذهم إلا الظن وما تهوى الأنفس، من غير ورود الهداية، لأنه من قبل الحق.

﴿وَلَآ أَنتُمْ﴾ أيضاً ﴿عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ من الحق الوحيد الفريد، الحقيق بالعبادة والإطاعة، بالاستقلال والانفراد، إذ لا إله معه، ولا شيء يماثله حتى يشاركه في أخص أوصافه التي هي الألوهية، إذ ليس في وسعكم واستعدادكم الإيمان به والإيقان بوحدته واستقلاله في ملكه وملكوته، ومع ذلك ما وفقكم الحق عليه وأقدركم به.

وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ إذ لا يليق بالألوهية حتى أعبد له.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ إذ لا يتيسر لكم الإيمان به والاطلاع على وجوده والاتصاف بمعرفته وشهوده، فكيف تعبدون أنتم الله الواحد الأحد الصمد بلا جذبٍ من جانبه وتوفيقٍ من لدنه، وأنا أيضاً لا أعبد لمعبوداتكم الباطلة التي هي بمراحل عن رتبة الألوهية والعبودية. وبالجملة:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه وطريقكم الذي تتوجهون إليه، بعدما لم يوفقكم الحق على الهداية والإيمان ﴿وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الذي أنا عليه. لا تتركوا دينكم بديني، ولا أنا أيضاً تاركٌ ديني بدينكم، بل لكم دينكم ولي ديني، والتوفيق بيد الله والهداية والضلال.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد المحمدي الحنيف المائل عن كل الأديان والمذاهب المنافية لصرافة شرب التوحيد، ألا تجالس مع أهل الغفلة والضلال، المترددين في أودية الجهلات بأنواع الخيالات الباطلة والأوهام العاطلة المترتبة على هوياتهم العدمية وتعيناتهم الوهمية، ولا تصاحبهم في حال من الأحوال، فإن صحبتك معهم تبعدك عن الحق وتغريك نحو الباطل، فإن النفوس الإنسانية أسرع عدواً وأشد ميلاً إلى البدع والأهواء الفاسدة

سورة النصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والآراء العاطلة الباطلة.

فاتحة سورة النصر

لا يخفى على من فتح عليه الحقُ بابَ العناية، وكشف له سبيلَ الهداية والكرامة: أن كل من دخل في كنف حفظ الحق وجواره، وتوكل عليه، وفوّض الأمور كلها إليه، فقد أعانه الله ونصره على جميع أعاديه، وأنجح عموم مطالبه ومآربه، وجميع ما قدر له من الكمالات التي أودعها الحق في استعداده الفطري وقابليته الجِبلِّية.

ولا شك أن أكمل الناس استعداداً، وأكمله قابليةً، وأفضله كمالاً وشرفاً، هو الحضرة الختمية الخاتمية التي طويت المراتب كلها دون مرتبته ﷺ، ولهذا كمُل جميع مكارمه وكمالاته المنتظرة في نشأته الأولى، ليكون مقدمةً وعنواناً على تكميل كمالاتها الأخروية، كما نبه عليه سبحانه في هذه السورة بعد التيمن والتبرك:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المدبِّر لأمور حبيبه ﷺ على الوجه الأكمل الأحكم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عليه لنصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ له حيث فتح له

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾

أبواب الفتوحات الغيبية والشهادية، والفيوضات اللدنية الفائضة عليه من عالم اللاهوت.

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا جاءك يا أكمل الرسل وعد الله الذي وعدك أن ينصرك على جميع أعدائك، ويظهرَ دينك على الأديان كلها ﴿وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾﴾ الذي أخبرك الحق بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [٤٨-الفتح:١].

﴿وَ﴾ بعد ما جاءك الفتح والنصر الموعود آن لك وكمُل ظهورك واستيلاؤك على عموم الأعادي، وظهر دينك على سائر الأديان ﴿رَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾﴾ فوجاً فوجاً، فرقةً فرقةً، بعدما كانوا يدخلون فيه فرادى فرادى.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل شكراً لما أعطاك جميعَ ما وعدك، وفتح عليك الآفاق، وأتم ببعثتك وظهورِك محاسنَ الشيم ومكارمَ الأخلاق ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾(١) واطلب منه العفو والغفران من لدنه هضماً لنفسك وفرطاتك، إذ قلما يخلو المبشر من الخطر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾(٢) يغفر من استغفر له، ويقبل توبة من أناب إليه أيضاً، سيما إذا كانت مقرونة بالإخلاص.

---

(١) في نسخة: «واطلب منه الرجوع إلى مَن عن نورِه صدرت، لأنك مظهر أسراره وأنواره، وإليه يرجع الأمر كله بعد إظهاره».

(٢) في نسخة: «رجّاعاً لأوليائه إلى مستقر قدسه وحضرة أنسه».

وبعد ما نزلت هذه السورة، وأمر سبحانه ﷺ بالحمد والاستغفار، تغمم الأصحاب وتحزنوا، وفهِموا منها أن أجلَ رسول الله ﷺ قد قرُب، فودَّعه الحق، وأمره بالحمد والاستغفار، لذلك سموا هذه السورة سورة التوديع أيضاً.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب للنجاة الأخروية والراغب إلى اللذات اللدنية الروحانية الموعودة فيها: أن تستغفر إلى الله وتسترجع نحوه في أوقاتك وحالاتك، وتفوض أمورك كلها إليه، وتتخذه وكيلاً، وتجعله حسيباً وكفيلاً، فلك أن تواظب على الطاعات والعبادات، وتجتنب عن مطلق المحارم والمنكرات، يحفظك الحق عن جميع الملمات، ويوصلك إلى عموم المهمات بفضله ولطفه.

سُورَةُ المَسَد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ....

فاتحة سورة المسد

لا يخفى على من انكشف له الغناء الذاتي الإلهي، وظهر عنده أن الدنيا وما فيها ما هي إلا سرابٌ باطلٌ، وظلٌ زائلٌ، لا ثبات لنعيمها، ولا قرار لمقيمها: أن الاغترار بها وما يترتب على حطامها وأمتعتها الفانية والأباطيل الزائفة والغفلة عن الله وعن اللذات الأخروية المعدة عنده سبحانه لأرباب العناية، كما أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض المسرفين المتحجبين عن الله، المستسلمين عن مقتضيات ألوهيته وربوبيته من غاية اغتراره بماله وجاهه وثروته وسيادته بين الأنام، فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الغني بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بإفاضة الوجود ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليهم يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود في اليوم الموعود، لو أخلصوا في الطاعة والتوجه نحو الخلاق الودود.

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي خابت وخسرت يداه كناية عنه ، وما ذلك إلا أنه من غاية نخوته وغروره، بحيث هلك في نار فظيعة كنفسه الجهنمية التي

وَتَبَّ ﴿١﴾ ....

خيبته خيبة أبدية وخسراناً سرمدياً حينما ظهر على رسول الله ﷺ بأنواع المكروه، وعارض معه على وجه لا يليق بشأنه ﷺ اتكالاً على ماله وجاهه وثروته وسيادته.

وذلك لما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [٢٦-الشعراء: ٢١٤] صعد رسول الله ﷺ ذات يوم إلى الصفا، فنادى: يا بني فهر ! يا بني عدي ! لبطون قريش حتى اجتمعوا، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تقبل عليكم، أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً.

قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد.

فقال أبو لهب على سبيل الاستهزاء: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟!!

فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١١١-المسد:١] لمجادلته مع رسول الله ﷺ ومرَائِهِ معه[1]، وقصدِ استحقاره واستهانته إياه ﷺ ﴿وَ﴾ قد ﴿تَبَّ ﴿١﴾﴾ وهلك ذلك اللعين المفرط على الوجه الذي أخبر الله بهلاكه إلى حيث

(١) متفق عليه ولفظ البخاري: عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النبي ﷺ على الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يا بَنِي فِهْرٍ يا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حتى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إذا لم يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ ما هو فَجَاءَ أبو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فقال أَرَأَيْتَكُمْ لو أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم، ما جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا. قال: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بين يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فقال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لك سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ صحيح البخاري [٤/ ١٧٨٧ رقم/ ٤٤٩٢/ باب: ولا تخزني يوم يبعثون] وصحيح مسلم [١/ ١٩٣ رقم/ ٢٠٨/ باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾].

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ ودفع ﴿عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ الذي يتكل عليه، ويستظهر به شيئاً من غضب الله ﴿وَ﴾ ما نفع له ونصر عليه﴿مَا كَسَبَ ۝٢﴾ وجمعَ من الأموال والأولاد والأتباع.

قيل مات بالعدسة، بعد وقعة بدر بأيامٍ معدودةٍ، وتُرك ثلاثة أيام حتى أُنتن، ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبارٌ عن الغيب، وقد وقع على وجهه. هذا مآل أمره في النشأة الأولى، وفي النشأة الأخرى

﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ ويدخل ذلك اللعين ﴿نَارٗا﴾ وأي نارٍ، ناراً ﴿ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾ واشتعالٍ عالٍ من شدة سورتها وفظاعتها.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ التي تمشي بالنميمة بين الناس، وتوقدُ نار الفتنة والعداوة بينهم تصير هي ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ بنار جهنمَ، تحتطب لها من الضريع والزقوم، أو هي حمالةُ الحطب فيها على قراءة الرفع، يعني صُورت نميمتها التي قد مشت بها في الدنيا بإيقاد نار الفتن على هذه الصورة، فتلازم عليها.

﴿فِي جِيدِهَا﴾ وعنقها ﴿حَبۡلٞ﴾ سلسلةٌ متخذةٌ ﴿مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾ مفتولٍ قد فُتل من الحديد، تحمل بها الحطب، مع أنها من أشراف قريش، هي وزوجها أيضاً.

خاتمة السورة

عليك أيها المعتبر المستبصر عصمك الله من تباب الدارين وخسارهما وبوارهما: أن تتأمل في مرموزات القرآن من القصص والأحكام والعبر والأمثال، فتأخذ حظك منها مقدار ما يسر الله لك، وأودعه في وسعك وطاقتك.

فاعلم أن كل ما في القرآن إنما نُزل للإرشاد والتكميل، فلك أن تأخذ من إشارات هذه السورة حسنَ المعاشرة وآدابَ المصاحبة وحقارةَ مزخرفات الدنيا وما يترتب عليها من اللذات الوهمية الساقطة عن درجة الاعتبار الزائغة الزائلة بلا قرار ومدار.

سُورَةُ الإخْلَاصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الإخلاص

لا يخفى على من اتصف بالمعرفة الإلهية وانكشف بوحدته واستقلاله سبحانه في الوجود والوجوب الذاتي واستغنائه سبحانه في ذاته عن عموم المظاهر والمجالي وتعاليه عن لوزام الافتقار والاحتياج المؤدي إلى وصمة الإمكان وسمة الاستكمال والنقصان: أن الذات الأحدية منزهةٌ عن مطلق التحديد والتوصيف الذي يصف به الواصفون ذاتَه عن عموم المظاهر والمجالي وعراءٌ عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدي إلى بعض الإمكان.

لذلك بين سبحانه ذاتَه في هذه السورة ووصفه الذاتي بمقتضى علمه الحضوري بذاته تنبيهاً وتعليماً على عباده وإرشاداً لهم فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ الذي لا يُكتنه ذاتُه بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقاً ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليهم بتوصيف ذاته إياهم ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لخواصهم يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده.

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن سأل عنك بقوله: صف لنا ربك الذي تدعونا إلى الإيمان به وعبادته !

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ أي هو الذات المتصف بالألوهية الغيبية والشهادية، المتعالية عن كليهما بحسب ذاته المتصفة بالألوهية والربوبية، المستجمعةِ لجميع شرائط الكمال، حسب الأسماء والصفات الكاملة الكامنة في تلك الذات المتصفة بالأحدية المطلقة المنزهة عن التعدد والكثرة مطلقاً، المستقلِ في الوجود والحياة والقيومية، المستلزمةِ للديمومية والبقاء الأزلي الأبدي السرمدي، الذي كان لا يُكال بقاؤه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير، ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتقادير، فكيف كان سبحانه محلاً للتقدير إذ هو:

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ أي السيد السند الذي يَقصد نحوه ويَرجع إليه عمومُ ما ظهر وبطن من الكوائن والفواسد الكائنة في نشأتي الغيب والشهادة، والأولى والأخرى، وهو في ذاته مستغنٍ عن جميعها مطلقاً.

وكيف لا يكون مستغنيا إذ هو الله الذي:

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إذ الإيلاد إنما هو للأخلاف، وخوف الانعدام والانقضاء، وهو سبحانه بمقتضى قيوميته ووجوب وجوده ودوام بقائه، لا يطرأ عليه أمثال هذه النقائص المستلزِمة لضبط العاقبة والمآل، إذ لا يجر عليه انقضاءٌ وانتقالٌ، ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ لذلك، إذ كل ما ظهر وبطن، أزلاً وأبداً، إنما هو منه وبه وله وفيه، وكل ما فُرض من الموجود أزلاً وأبداً ما هو

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

خارجٌ عن حيطة أظلال أسمائه، وعكوس صفاته، فكيف يُتصور أن يسبقه شيءٌ هو غيره، مع أنه لا غير في الوجود مطلقاً حتى يلده.

﴿وَ﴾ بالجملة هو سبحانه منفردٌ في توحده، متوحدٌ في انفراده، ومستقلٌ في استقلاله، بحيث ﴿لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ لا قبلَه ولا بعدَه، بل لا إله سواه، ولا موجود غيره.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحِّد المحمدي المنكشف بالتوحيد الذاتي، مكَّنك الله في مقر عزك وتمكينك: أن تصرف عنان عزمك وهمتك، بعد ما كوشفت بتوحيده الذاتي وكمالات أسمائه وصفاته نحو سوابغ آلائه ونعمائه الفائضة منه سبحانه حسب رقائق أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى، وتشاهدَ آثار قدرته الغالبة التي تتحير منه العقول والآراء.

وإياك إياك أن تغفل عن الله طرفةً فإنها تورثك حسرةً طويلةً، إذ كلُّ نفس من النفسات الإلهية التي جرت عليك في أوقات حياتك مشتملةٌ على عجائب صنع الله وبدائع حكمته المتقَنة البالغة، بحيث ما مضى مثلها أزلاً ولا سيأتي شبهها أبداً.

فعليك أن تغتنم الفرصة وتتعرض للنفحات الإلهية، ولا يشغلك شيء منها.

جعلنا الله من المتعرضين بنفحات الحق، المستنشقين من نسمات روحه وراحته بمنِّه وجوده.

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ....

فاتحة سورة الفلق

لا يخفى على من اعتصم بالله ودخل في كنف حفظه وجواره، مفوضاً أموره كلها إليه: أنه سبحانه يوقيه من كل ما يضره ويغويه، ويحفظه عن كل ما يرديه ويوديه، لذلك أمر حبيبه ﷺ حين قصد إليه أعداؤه بالسوء، وسحروا له حسداً على ظهوره واستيلائه وانتشار صيته الحسن في الآفاق والأقطار، بالاستعاذة والاستلجاء نحوه بكمال الخلوص والوثوق فقال بعد التيمن:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ المراقب على محافظة خلّص عباده من جميع ما يضرهم ويؤذيهم بعد ما رجعوا إليه، وتعوذوا به مخلِصين ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ عليهم بإنزال الرُّقى وتلقين الدعاء ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ لهم يبرؤهم ويشفيهم، بعد ما أخلصوا في التعوذ والالتجاء

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما أصابتك من أعدائك مصيبةٌ وعرضتك بشؤم أعينهم عارضةٌ، إزالةً لها ودفعاً لضررها: ﴿ أَعُوذُ ﴾ وألوذ مخلصاً ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ أي بالذي فلقَ وشق ظلام الليل بنور الصبح المنير، وفلق ظلمة العدم بإشراق نور الوجود.

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿مِن شَرِّ﴾ جميع ﴿مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ في عالم الكون والفساد من النفوس الخبيثة.

﴿وَ﴾ كذا ألوذ به سبحانه ﴿مِن شَرِّ﴾ كل ﴿غَاسِقٍ﴾ مظلم محيل ﴿إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾ دخل وانغمس في ظلامه ليحيل ويمكر.

﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن شَرِّ﴾ النساء السواحر ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ النافخات بريق أفواههن ﴿فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ التي عقدن على الخيط؛ ليسحرن الناس بها.

﴿وَ﴾ بالجملة أعوذ برب الفلق ﴿مِن شَرِّ﴾ كلِّ ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ وقصد أن يحسد، فإنه سبحانه يكفي مؤنة شرورهم عنك، بحوله وقوته.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي الملتجئُ إلى الله، المستعدُّ بفضله وحوله وقوته: أن تداوم على ذكر الله وقراءة القرآن وتكرار الأذكار والتسابيح المأثورة من النبي المختار في عموم أوقاتك وحالاتك، سيما في خلال الليالي والأسحار، وفي آناء الليل وأطراف النهار، لعل الله يرقيك عن فتنة ما ذرأ وبرأ في الليل والنهار، ويكفي عنك مؤنة شرور من عاداك بالسحر وغيره، بحوله وقوته.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الناس

لا يخفى على من انكشف له سرائر التوحيد واليقين، وانتفح عليه معالم أسرار الدين القويم والصراط المستقيم: أن من تمسك بحبل التوفيق الإلهي واستمسك به، لا بد وأن يحفظ نفسه دائما من فتنة شياطين القوى الأمّارة التي توسوس دائماً في صدور الأنام بأنواع الوسوسة، وتوقعهم في أصناف الفتن والمضائق الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة المتعلقة بنشأة الناسوت، حتى تزيغ قلوبهُم، وتضلهم عن الطريق المستبين.

لذلك لقن سبحانه ﷺ تتميماً لتربيته، وتنبيهاً على من تبعه من المؤمنين، وإرشاداً لهم، فقال لهم بعد التيمن باسمه الأعلى:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ المدبِّر لمصالح عباده بمقتضى جوده ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ عليهم لحفظهم عما يتعدى بهم عن كنف حفظه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ عليهم ينبّههم على ما يضرهم، ويغويهم ليتمكنوا على الدين القويم، ويترسَّخُوا على الصراط المستقيم.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما مكنك الحق في مقعد التوحيد، وهداك الوصولَ إلى ينبوع بحر الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية ملتجئاً إلى الله، مستمسكاً بعروة عصمته: ﴿أَعُوذُ﴾ وألوذ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم وربّاهم بأنواع اللطف والكرم، لكونه:

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ إذ ظهور الكل منه ورجوعه إليه.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الموسوِس المثير للفتن في قلوب الناس ﴿ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ الدفَّاعِ الرجّاعِ للناس فإنه منبسط على قلب الإنسان فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض وإذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام إذا جاء أحدهما طرد الآخر مثله كمثل الواهمة تساعد في المقدمات فإذا آل الأمر إلى النتيجة رجع وارتدع مثلاً إذا قيل الميت جماد والجماد لا يخاف منه أقرت وإذا قيل فالميت لا يخاف منه فرت كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وجعلوا إنجاح قضية أهوائهم من همهم.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ بيانٌ للوسواس، أو للذي، أو متعلق

بيوسوس، أي يوسوس في صدورهم من جهة الجِنَّة والناس، بأن يلقي إليهم، أنهما يضران وينفعان بالتأثير والاستقلال، فيرجون منهما المطالب والآمال، فيقعون في تيه الحيرة وهاوية الضلال.

أعاذنا الله وعموم عباده من شر كلا الفريقين بفضله وجوده.

خاتمة السورة

إياك إياك أيها الطالب للخلاص، الراغبُ في الإخلاص: أن تتبع الهوى وتنكب على الشهوات.

فإن الإنسان إن اتبع الهوى وطاعةَ قضيةِ القوى صار القلبُ عش الشيطان ومعدنه؛ لأن الهوى هو مرماه ومرتعه، وإن جاهد الشهوات، ولم يسلطها على نفسه، صار القلب مستقرَ الملائكة ومهبطه.

ومهما غلب على القلب ذكرُ الدنيا ومقتضيات الهوى، وجد الشيطان مجالاً واسعاً، فيوسوس بالشر وما يجري إلى سوء المعاقبة، ويطرحه في الهاوية، ومتى أعرض عن الشهوات وجاهدها إلى حيث ينبغي، وأقبل على الطاعات كما ينبغي، يلهمه الملك بالخيرات، ويعينه في أسباب النجاة، ويرشده إلى الفوز بالجنات، فإن الخواطر مبدأ الأفعال، إذ الخواطرُ تحرك الرغبةَ، والرغبةُ تحرك العزمَ والنيةَ، والنيةُ تحرك الأعضاءَ وترسخُ العقائد، فإن كانت من الخواطر المحمودة الإلهامية، يفضي إلى الصلاح والنعمة، وإن كانت من الوساوس الشيطانية يسري إلى الفساد والنقمة.

أعاذنا الله تعالى من مهادنة النفس ومساعدة الهوى، وأعاننا على مجاهدة الشهوات ومعاندة فرط القوى، بحرمة سيد السادات، وصفوة الكائنات صلوات الله التامات وتسليماتهم الزاكيات عليه وعلى آله وأزواجه الطاهرات وذرياته السادات، وخلفائه الراشدين، وأصحابه أجمعين.

يا رب بهم وبآلهم عجل بالنصر وبالفرج.

والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً.

تم الجزء الرابع على يد أفقر الورى إلى ربه اللطيف الساتر: الرشيدي السيد عبد القادر ابن السيد مصطفى ابن السيد عبد الرحمن الرشيدي، الحنفي مذهباً، القادري طريقةً، غفر الله له ولوالديه، ولمن أحسن إليه، وللمسلمين أجمعين آمين.

قَصِيدَةُ الْمُنَاجَاتِ بِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

شَرَعْتُ بِتَوْحِيدِ الإِلَهِ مُبَسْمِلاً
سَأَخْتِمُ بِالذِّكْرِ الْحَمِيدِ مُجَمِّلاً

وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ
تَنَزَّهَ عَنْ حَصْرِ الْعُقُولِ مُكَمَّلاَ

وَأَرْسَلَ فِينَا أَحْمَدَ الْحَقِّ مُقْتَدَى
نَبِيًّا بِهِ قَامَ الْوُجُودُ وَ قَدْ خَلاَ

فَعَلَّمَنَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ مُؤَبَّدٍ
وَأَظْهَرَ فِينَا الْحِلْمَ وَالْعِلْمَ وَالْوَلاَ

فَيَا طَالِبًا عِزًّا وَكَنْزًا وَ رِفْعَةً
مِنَ اللهِ فَادْعُوهُ بِأَسْمَائِهِ الْعُلاَ

فَقُلْ بِانْكِسَارٍ بَعْدَ طُهْرٍ وَ قُرْبَةٍ
فَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ نَصْرًا مُعَجَّلاَ

بِحَقِّكَ يَا رَحْمٰنُ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي
أَحَاطَتْ فَكُنْ لِي يَا رَحِيمُ مُجَمِّلاَ

وَيَا مَلِكُ، قُدُّوسُ قَدِّسْ سَرِيرَتِي
وَسَلِّمْ وُجُودِي يَا سَلاَمُ مِنَ الْبَلاَ

وَيَا مُؤْمِنُ هَبْ لِي أَمَانًا مُحَقَّقًا
وَسِتْرًا جَمِيلاً يَا مُهَيْمِنُ مُسْبَلاَ

عَزِيزُ أَزِلْ عَنْ نَفْسِيَ الذُّلَّ وَاحْمِنِي
بِعِزِّكَ يَا جَبَّارُ مِنْ كُلِّ مُعْضِلاَ

وَضَعْ جُمْلَةَ الْأَعْدَاءِ يَا مُتَكَبِّرُ
وَيَا خَالِقُ خُذْ لِي عَنِ الشَّرِّ مَعْزِلاَ

وَيَا بَارِئَ النَّعْمَاءِ زِدْ فَيْضَ نِعْمَةٍ
أَفَضْتَ عَلَيْنَا يَا مُصَوِّرُ أَوَّلاَ

رَجَوْتُكَ يَا غَفَّارُ فَاقْبَلْ لِتَوْبَتِي
بِقَهْرِكَ يَا قَهَّارُ شَيْطَانِي أَخْذِلاَ
بِحَقِّكَ يَا وَهَّابُ عِلْمًا وَحِكْمَةً
وَلِلرِّزْقِ يَا رَزَّاقُ كُنْ لِي مُسَهِّلاَ
وَبِالْفَتْحِ يَا فَتَّاحُ نَوِّرْ بَصِيرَتِي
وَبِالْعِلْمِ نِلْنِي يَا عَلِيمُ تَفَضُّلاَ
وَيَا قَابِضُ اقْبِضْ قَلْبَ كُلِّ مُعَانِدِ
وَيَا بَاسِطُ ابْسُطْنِي بِأَسْرَارِكَ الْعُلاَ
وَيَا خَافِضُ اخْفِضْ قَدْرَ كُلِّ مُنَافِقٍ
وَيَا رَافِعُ ارْفَعْنِي بِرَوْحِكَ أَسْئِلاَ
سَأَلْتُكَ عِزًّا يَا مُعِزُّ لأَهْلِهِ
مُذِلُّ فَذِلَّ الظَّالِمِينَ مُنَكِّلاَ
فَعِلْمُكَ كَافٍ يَا سَمِيعُ فَكُنْ إِذًا
بَصِيرًا بِحَالِي مُصْلِحًا مُتَقَبِّلاَ

فَيَا حَكَمُ، عَدْلُ، لَطِيفُ بِخَلْقِـهِ
خَبِيرٌ بِمَا يَخْفَى وَ مَا هُوَ مُجْتَلاَ
فَحِلْمُكَ قَصْدِي يَا حَلِيمُ
وَأَنْتَ عَظِيمٌ عِظْمُ جُودِكَ قَدْ عَلاَ
غَفُورٌ وَ سَتَّارٌ عَلَى كُلِّ مُذْنِبٍ
شَكُورٌ عَلَى أَحْبَابِهِ وَ مُوَصِّلاَ
عَلِيٌّ وَ قَدْ أَعْلَى مَقَامَ حَبِيبِهِ
كَبِيرٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالْجُودِ مُجْزِلاَ
حَفِيظٌ فَلاَ شَيْءٌ يَفُوتُ لِعِلْمِـهِ
مُقِيتٌ نَقِيبُ الْخَلْقِ أَعْلَى وَ أَسْفَلاَ
فَحُكْمُكَ حَسْبِي يَا حَسِيبُ تَوَلَّنِي
وَأَنْتَ جَلِيلٌ كُنْ لِغَمِّي مُنَكِّلاَ
إِلهِي كَرِيـمٌ أَنْتَ فَأَكْرِم مَوَاهِبِي
وَكُنْ لِعَدُوِّي يَا رَقِيبُ مُجَنْدِلاَ

دَعَوْتُكَ يَا مَوْلَى مُجِيبًا لِمَنْ دَعَا
قَدِيمَ الْعَطَايَا وَاسِعَ الْجُودِ فِي الْمَلاَ
إِلَهِي حَكِيمٌ أَنْتَ فَاحْكُمْ مَشَاهِدِي
فَوُدُّكَ عِنْدِي يَا وَدُودُ تَنَزَّلاَ
مَجِيدٌ فَهَبْ لِي الْمَجْدَ وَالسَّعْدَ وَالْوَلاَ
وَيَا بَاعِثُ اِبْعَثْ نَصْرَ جَيْشِي مُهَرْوِلاَ
شَهِيدٌ عَلَى الأَشْيَاءِ طَيِّبْ مَشَاهِدِي
وَحَقِّقْ لِي يَا حَقُّ الْمَوَارِدَ مَنْهَلاَ
إِلَهِي وَكِيلٌ أَنْتَ فَاقْضِ حَوَائِجِي
وَيَكْفِي إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ مُوَكِّلاَ
مَتِينٌ فَمَتِّنْ ضَعْفَ حَوْلِي وَقُوَّتِي
أَغِثْ يَا وَلِيُّ عَبْدًا دَعَاكَ تَبَتُّلاَ
حَمِدْتُكَ يَا مَوْلَى حَمِيدًا مُوَحِّدَا
وَمُحْصِي لِزَلاَّتِ الْوَرَى وَ مُعَدِّلاَ

إِلَهِي مُبْدِئَ الْفَتْحِ لِي أَنْتَ وَالْهُدَى
مُعِيدٌ لِمَا فِي الْكَوْنِ إِنْ بَادَ أَوْ خَلاَ
سَأَلْتُكَ يَا مُحْيِي حَيَاةً هَنِيئَةً
أَمِتْ يَا مُمِيتُ أَعْدَاءَ دِينِي مُعَجِّلاَ
وَيَا حَيُّ أَحْيِ مَيْتَ قَلْبِي بِذِكْرِكَ
الْقَدِيمِ فَكُنْ قَيُّومَ سِرِّي مُوَصِّلاَ
وَيَا وَاجِدَ الأَنْوَارِ أَوْجِدْ مَسَرَّتِي
وَيَا مَاجِدَ الأَنْوَارِ كُنْ لِي مُعَوِّلاَ
وَيَا وَاحِدُ مَا ثَمَّ إِلَّا وُجُودُهُ
وَيَا صَمَدُ قَامَ الْوُجُودُ بِهِ عَلاَ
وَيَا قَادِرُ ذَا الْبَطْشِ أَهْلِكْ عَدُوَّنَا
وَمُقْتَدِرُ قَدِّرْ لِحُسَّادِنَا الْبَلاَ
وَقَدِّمْ لِسِرِّي يَا مُقَدِّمُ عَافِنِي
مِنَ الضُّرِّ فَضْلاً يَا مُؤَخِّرُ ذَا الْعُلاَ

وَأَسْبِقْ لَنَا الْخَيْرَاتِ أَوَّلُ أَوَّلاَ
وَيَا آخِرُ اِخْتِمْ لِي أَمُوتُ مُهَلِّلاَ

وَيَا ظَاهِرُ أَظْهِرْ لِي مَعَارِفَكَ الَّتِي
بِبَاطِنِ غَيْبِ الْغَيْبِ يَا بَاطِنًا وَلاَ

وَيَا وَالٍ أَوْلِ أَمْرَنَا كُلَّ نَاصِحٍ
وَيَا مُتَعَالٍ أَرْشِدْ وَأَصْلِحْ لَهُ الْوَلاَ

وَيَا بَرُّ يَا رَبَّ الْبَرَايَا وَ مُوهِبَ
الْعَطَايَا وَ يَا تَوَّابُ تُبْ وَ تَقَبَّلاَ

وَمُنْتَقِمُ مِنْ ظَالِمِيَّ نُفُوسِهِمْ
كَذَاكَ عَفُوٌّ أَنْتَ فَاعْطِفْ تَفَضُّلاَ

عَطُوفٌ، رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ وَمُسْعِفُ
لِمَنْ قَدْ دَعَا يَا مَالِكَ الْمُلْكِ مَعْقِلاَ

فَأَلْبِسْ لَنَا يَا ذَا الْجَلاَلِ جَلاَلَةً
فَجُودُكَ وَالإِكْرَامُ مَا زَال مُهْطِلاَ

وَيَا مُقْسِطُ ثَبِّتْ عَلَى الْحَقِّ مُهْجَتِي
وَيَا جَامِعُ اجْمَعْ لِي الْكَمَالاَتِ فِي الْمَلاَ
إِلَهِي غَنِيٌّ أَنْتَ فَاذْهَبْ لِفَاقَتِي
وَمُغْنٍ فَاغْنِ فَقْرَ نَفْسِي لِمَا خَلاَ
وَيَا مَانِعُ امْنِعْنِي مِنَ الذَّنْبِ فَاشْفِنِي
عَنِ السُّوءِ مِمَّا قَدْ جَنَيْتُ تَعَمُّلاَ
وَيَا ضَارُّ كُنْ لِلْحَاسِدِينَ مُوَبِّخًا
وَيَا نَافِعُ انْفَعْنِي بِرُوحِ مُحَصَّلاَ
وَيَا نُورُ أَنْتَ النُّورُ فِي كُلِّ مَا بَدَا
وَيَا هَادِ كُنْ لِلنُّورِ فِي الْقَلْبِ مُشْعِلاَ
بَدِيعَ الْبَرَايَا أَرْجُو مِنْ فَيْضِ لُطْفِهِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْتَ بَاقٍ لَهُ الْوِلاَ
وَيَا وَارِثُ اِجْعَلْنِي لِعِلْمِكَ وَارِثًا
وَرُشْدًا أَنِلْنِي يَا رَشِيدُ تَجَمُّلاَ

صَبُورٌ وَ سَتَّارٌ فَوَفِّقْ عَزِيمَتِي
عَلَى الصَّبْرِ وَاجْعَلْ لِي اخْتِيَارًا مُزَمِّلاَ

بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى دَعَوْتُكَ سَيِّدِي
وَآيَاتِكَ الْعُظْمَى ابْتَهَلْتُ تَوَسُّلاَ

فَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِفَضْلِهَا
فَهَيِّئْ لَنَا مِنْكَ الْكَمَالَ مُكَمَّلاَ

وَقَابِلْ رَجَائِي بَالرِّضَا عَنْكَ وَاكْفِنِي
صُرُوفَ زَمَانٍ صِرْتُ فِيهِ مُحَوَّلاَ

أَغِثْ وَاشْفِنِي مِنْ دَاءِ نَفْسِي وَاهْدِنِي
إِلَى الْخَيْرِ وَأَصْلِحْ مَا بِعَقْلِي تَخَلَّلاَ

إِلَهِيَ فَارْحَمْ وَالِدَيَّ وَإِخْوَتِي
وَمَنْ هَذِهِ الأَسْمَاءَ يَدْعُو مُرَتِّلاَ

أَنَا الْقَادِرِيُّ الْحَسَنِيُّ عَبْدٌ لِقَادِرٍ
دُعِيتُ بِمُحْيِي الدِّينِ فِي دَوْحَةِ الْعُلاَ

وَصَلِّ عَلَى جَدِّي الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ
بِأَحْلَى سَلاَمٍ فِي الْوُجُودِ وَأَكْمَلاَ
مَعَ الآلِ وَالأَصْحَابِ جَمْعًا مُؤَيَّدًا
وَبَعْدُ فَحَمْدُ اللهِ خَتْمًا وَأَوَّلاَ

يازمه باغشچلر ٢٢٤ - يازمه باغشچلر ١٢٦٥
دوگمولو بابا ٤٩٦

اَلْقَصِيدَةُ الْخَمْرِيَّةُ

وسمِّيت الوسيلة والغَوْثيَّة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَقَانِي الْحُبُّ كَاسَاتِ الْوِصَالِ
فَقُلْتُ لِخَمْرَتِي نَحْوِي تَعَالِي
سَعَتْ وَمَشَتْ لِنَحْوِي فِي كُؤُوسٍ
فَهِمْتُ بِسَكْرَتِي بَيْنَ الْمَوَالِي
وَقُلْتُ لِسَائِرِ الْأَقْطَابِ لُمُّوا
بِحَانِي وَادْخُلُوا أَنْتُمْ رِجَالِي
وَهِيمُوا وَاشْرَبُوا أَنْتُمْ جُنُودِي
فَسَاقِي الْقَوْمَ بِالْوَافِي مَلاَلِي
شَرِبْتُمْ فَضْلَتِي مِنْ بَعْدِ سُكْرِي
وَلاَ نِلْتُمْ عُلُوِّي وَاتِّصَالِي

مَقَامُكُمُ الْعُلَى جَمْعًا وَلٰكِنْ
مَقَامِي فَوْقَكُمْ مَا زَالَ عَالِي

أَنَا فِي حَضْرَتِ التَّقْرِيبِ وَحْدِي
يُصَرِّفُنِي وَحَسْبِي ذُو الْجَلاَلِ

أَنَا الْبَازِيُّ أَشْهَبُ كلِّ شَيْخٍ
وَمَنْ ذَا فِي الرِّجَالِ أَعْطِي مِثَالِي

دَرَسْتُ الْعِلْمَ حَتَّى صِرْتُ قُطْبًا
وَنِلْتُ السَّعْدَ مِنْ مَوْلَى الْمَوَالِي

كَسَانِي خِلْعَةً بِطِرَازِ عِزٍّ
وَتَوَّجَنِي بِتِيجَانِ الْكَمَالِ

وَأَطْلَعَنِي عَلَى سِرٍّ قَدِيمٍ
وَ قَلَّدَنِي وَأَعْطَانِي سُؤَالِي

طُبُولِي فِي السَّمَا وَ الْأَرْضِ دُقَّتْ
وَ شَاوُسُ السَّعَادَةِ قَدْ بَدَا لِي

أَنَا الْحَسَنِيُّ وَالْمَخْدَعُ مَقَامِي
وَأَقْدَامِي عَلَى عُنُقِ الرِّجَالِ
وَ وَلاَّنِي عَلَى الْأَقْطَابِ جَمْعًا
فَحُكْمِي نَافِذٌ فِي كُلِّ حَالِي
نَظَرْتُ إِلَى بِلاَدِ اللهِ جَمْعًا
كَخَرْدَلَةٍ عَلَى حُكْمِ اتِّصَالِي
فَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فَوْقَ نَارٍ
لَخَمِدَتْ وَ انْطَفَتْ فِي سِرِّ حَالِي
وَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فَوْقَ مَيْتٍ
لَقَامَ بِقُدْرَةِ الْمَوْلَى مَشَى لِي
وَلَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فِي جِبَالٍ
لَدُكَّتْ وَ اخْتَفَتْ بَيْنَ الرِّمَالِ
وَ لَوْ أَلْقَيْتُ سِرِّي فِي بِحَارٍ
لَصَارَ الْكُلُّ غَوْرًا فِي الزَّوَالِ

وَمَا مِنْهَا شُهُورٌ أَوْ دُهُورٌ
تَمُرُّ وَ تَنْقَضِي إِلَّا أَتَى لِي
وَتُخْبِرُنِي بِمَا يَأْتِي وَيَجْرِي
وَتُعْلِمُنِي فَاقْصِرْ عَنْ جِدَالِي
بِلَادُ اللهِ مُلْكِي تَحْتَ حُكْمِي
وَ وَقْتِي قَبْلَ قَبْلِي قَدْ صَفَا لِي
مُرِيدِي لاَ تَخَفْ وَاشٍ فَإِنِّي
عَزُومٌ قَاتِلٌ عِنْدَ الْقِتَالِ
مُرِيدِي لاَ تَخَفْ اللهُ رَبِّي
عَطَانِي رِفْعَةً نِلْتُ الْمَعَالِي
مُرِيدِي هِمْ وَطِبْ وَاشْطَحْ وَغَنِّ
وَ افْعَلْ مَا تَشَا فَالْإِسْمُ عَالِي
وَكُلُّ وَلِيٍّ لَهُ قَدَمٌ وَ إِنِّي
عَلَى قَدَمِ النَّبِيِّ بَدْرِ الْكَمَالِ

أَنَا الْجَيْلِيُّ مُحْيُ الدِّينِ اِسْمِي
وَأَعْلاَمِي عَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ
وَعَبْدُ الْقَادِرِ الْمَشْهُورُ اِسْمِي
وَجَدِّي صَاحِبُ الْعَيْنِ الْكَمَالِ

پرتو پاشا، رقم: ٦١٥ ازمر: ٧٩١ مكتبة السليمانية

فهرس الجزء السادس

سورة الحديد.. ٥
سورة المجادلة ٢٦
سورة الحشر ٤٣
سورة الممتحنة..٥٩
سورة الصف..٧١
سورة الجمعة ٨١
سورة المنافقون ٨٩
سورة التغابن ٩٧
سورة الطلاق..١٠٨
سورة التحريم ١١٩
سورة الملك ١٣٠
سورة القلم..١٤٣
سورة الحاقة..١٥٧
سورة المعارج..١٦٩
سورة نوح ١٨٠
سورة الجن..١٩٠
سورة المزمل..٢٠١
سورة المدثر..٢١٣
سورة القيامة..٢٣٠
سورة الإنسان..٢٤١

سورة المرسلات ٢٥٥
سورة النبأ ٢٦٧
سورة النازعات ٢٧٨
سورة عبس ٢٩٠
سورة التكوير ٢٩٩
سورة الانفطار ٣٠٧
سورة المطففين ٣١٣
سورة الانشقاق ٣٢٤
سورة البروج ٣٣١
سورة الطارق ٣٤٠
سورة الأعلى ٣٤٦
سورة الغاشية ٣٥٣
سورة الفجر ٣٦٠
سورة البلد ٣٦٩
سورة الشمس ٣٧٥
سورة الليل ٣٨٠
سورة الضحى ٣٨٥
سورة الشرح ٣٨٩
سورة التين ٣٩٣
سورة العلق ٣٩٦
سورة القدر ٤٠٣
سورة البينة ٤٠٥

سورة الزلزلة ٤١٠
سورة العاديات ٤١٤
سورة القارعة.. ٤١٨
سورة التكاثر ٢١
سورة العصر ٤٢٤
سورة الهمزة ٤٢٧
سورة الفيل.. ٤٣١
سورة قريش ٤٣٤
سورة الماعون.. ٤٣٦
سورة الكوثر ٤٣٩
سورة الكافرون.. ٤٤١
سورة النصر ٤٤٤
سورة المسد.. ٤٤٧
سورة الإخلاص.. ٤٥١
سورة الفلق.. ٤٥٤
سورة الناس ٤٥٧
قَصِيدَةُ الْمُنَاجَاتِ بِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى ٤٦٣
اَلْقَصِيدَةُ الْخَمْرِيَّةُ ٤٧٣

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية

- فهرس الأحاديث النبوية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فهرس الآيات الكريمة للجزء الأول

الآيــة..الصفحة

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا ...﴾ [الأنعام: ١٢٢] ٢٩

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ...﴾ [الشورى: ٥٢] ٢٩

﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ ...﴾ [٧- الأعراف: ١٧٢] ٥٩

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[١٩-مريم٥٧]...............................٢١٢

﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [٢-البقرة٨٧]...............................٢١٣

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [٩٤-الشرح١] ٢١٣

﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٢] ٢١٣

﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٣]...............................٢١٣

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [٩٤-الشرح٤]...............................٢١٣

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [٤٨-الفتح:١٠]...............................٢١٣

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [٥-المائدة٣]...............................٢١٤

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [١١٢-الإخلاص١]...............................٢٤٦

الآيـة .... الصفحة

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [٥٥-الرحمن٢٩] ٢٤٦

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [١١-هود٥٦] ٢٤٦

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [٢-البقرة١٥٦] ٢٤٧

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ [٢١-الأنبياء٩٣] ٢٤٧

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [٤١-فصلت٤٢] ٢٤٧

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [٢-البقرة٢٥٣] ٢٦٧

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [٣-آل عمران١٦٩] ٣٣١

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٤-النساء٨٠] ٥١٥

فهرس الآيات الكريمة للجزء الثاني

الآيــة .... الصفحة

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [٤-النساء٨٠] ٥٦

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ﴾ ٥٦

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ...﴾ ٥٧

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣] ٨٤

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٨-الأنفال ٧٠،٥٧الحديد ٢٨] ٢٢٨

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ﴾ [٤٠-غافر٧٨] ٢٢٥

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٥-المائدة ٣] ٢٥٤

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [١٠-يونس٢٣] ٣١٥

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:٢٥] ٣١٤

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢١-الأنبياء٣٥] ٣١٤

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [١١-هود٦] ٣٧٠

إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [١١-هود٤٠،٢٣-المؤمنون٢٧] ٣٩٢

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [١١-هود١١٢] ٤٢٦

فهرس الآيات الكريمة للجزء الثالث

الآيــة.. الصفحة

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [٣-آل عمران١٤] ١٨

﴿مِنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [٧-الأعراف ١١، ١٥-الحجر٩٨] ٣٢

﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ [٢-البقرة: ١١٧،٣-آل عمران:٤٧-٥٩، ٣٦-يس:٨٢]............ ٧١

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [٥٠-ق:٢٩]........................ ٨٤

﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ [٦-الأنعام:١٣٩] ٩٢

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [٦-الأنعام:١٤٦]........٩٣

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٥-المائدة:٣]........................٩٦

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [٥٣-النجم: ٨ - ٩] ١٠٥

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [١٧-الإسراء:٢٢] ١٢٣

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [١١١-المسد:١] ١٢٧

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣٤- سبأ:٩]............... ١٥٧

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [٢-البقرة:٢٦٩] ٢٣٢

الآيـــة .... الصفحة

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [١٧-الإسراء:٨٥] ٢٣٢

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [١٩-مريم:٣٤] ٢٥١

﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [٢٦-الشعراء: ٨٤] ٢٥٨

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [١٩- مريم: ٩٣] ٢٧٧

﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [٧٣-المزمل:٩] ٣٧٨

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [٥٣-النجم:١٩] ٤١٠

فهرس الآيات الكريمة للجزء الرابع

الآيــة .... الصفحة

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ...﴾ [٢٥-الفرقان:٧] ١٧

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤].. ٢٠

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤].. ٢٠

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [٢٥-الفرقان:٢٤].. ٢١

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ...﴾ [٢٥-الفرقان:٦٣].. ٤٨

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [٧-الأعراف:٧٧،٧٠ و ١١-هود:٣٢ و ٤٦-الأحقاف:٢٢] .. ٩٩

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [٨-الأنفال:٣٢] ٩٩

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [٢٦-الشعراء:١٨٧]...................................... ٩٩

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [٢٨-القصص:٨٨].......... ٢١٢

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [٥٠- ق: ٢٩].. ٢٧٩

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ...﴾ [٢- البقرة: ٢١٤]........................ ٣٦٣

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [٥-المائدة:٣]...................................... ٣٧٩

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [٢٨-القصص:٤٦ و ٣٢-السجدة:٣ و ٣٦-يس:٦] ٤٨١

فهرس الآيات الكريمة للجزء الخامس

الآيــة.. الصفحة

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ [٣٧-الصافات:١١].. ١١

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ [٣٧-:الصافات:١٨٠].. ٥٢

﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [١٨-الكهف:١٠٦،١٠٥،١٠٤]............ ٥٥

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [١١-هود:١١٩ و ٣٢-السجدة:١٣]١٣٧

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾ [٣-آل عمران:١٦٩] الآية ٣٤٣

فهرس الآيات الكريمة للجزء السادس

الآيــة... الصفحة

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾[٢-البقرة:٢٢٨]............ ١١٢

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [٥٦-الواقعة:٧٤ ، ٩٦ و ٦٩-الحاقة:٥٢] ١٦٨

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [٧-الأعراف:١٧٩] ٢٥٦

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [٢٠-طه:١٢] ٣٤١

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ [٢٠-طه:١٢،١٣]........... ٣٤١

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[٢٠-طه:١٣] ٣٤١

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [٤-النساء:٨٠]......................... ٣٩٠

﴿وإِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [٤٨-الفتح:١٠]................... ٣٩٠

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [٤٨-الفتح:١] ٤٤٥

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[٢٦-الشعراء:٢١٤]............................... ٤٤٨

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [١١١-المسد:١] ٤٤٨

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
للجزء الأول

طرف الحديث	الصفحة
«تَخَلَّقُوْا بِأَخْلَاْقِ الله»	٢٩
«الصَّلَاةُ مِعْرَاجُ المؤْمِن»	٤٠
«لَا صَلَاةَ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»	٤٠
«...كُنْتُ سَمْعَهُ... وَبَصَرَهُ... وَيَدَهُ... وَرِجْلَهُ...»	١١٢
«لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي»	١١٧
«الْصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِيْ بِهِ»	١٦١
«مَنْ أَطَاعَنِيْ فَقَدْ أَطَاعَ الله»	٢١٣
«مَنْ رَآنِيْ فَقَدْ رَأَى الْحَقّ»	٢١٣
«رَأَيْتُ رَبِّيْ»	٢١٤
«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»	٢١٤
«وَسِعَنِيْ قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِن»	٢١٩
«مَا نَقَصَتْ زَكَاةٌ مِنْ مَالٍ قَطّ»	٢٣٤

طرف الحديث .... الصفحة

«ضَعْهَا فِيْ رَأْسِ المِائَتَيْنِ والثَّمَانِيْنَ مِنَ البَقَرَة» ٢٣٦

«والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ بَاهَلُوْا لَمُسِخُوْا» ٢٨٥

«كَذَبَ أَعْدَاءُ اللهِ، مَا مِنْ» ٢٩٢

«أَلَا طَالَ شَوْقُ الأَبْرَار» ٢٩٥

«أَتَدَّعُوْنَ الجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ» ٣٠٦

«رَأَيْتُ فِي مَنَامِيْ بَقَرَةً مَذْبُوْحَةً حَوْلِيْ» ٣١٨

«لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَن يَلبسَ» ٣١٨

«إِنَّ هَؤُلاءِ فِي أُمَّتِي قَلِيلٌ إِلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ» ٣٢٣

«بَدَأ غَرِيْبَاً، وَسَيَعُودُ غَرِيبا» ٣٥٩

«لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الإِسْلَام» ٣٦٥

«مَا آيَسَ الشَّيْطَانُ مِنْ ابْنِ آدَمَ» ٣٧٤

«مَنْ دَعَا لِأَخِيْهِ المُسْلِمِ بِظَهْرِ الغَيْبِ» ٤٢٠

«لَا هِجْرَةَ بَعَدَ الفَتْح» ٤٢٨

«مَنْ أَحَبَّنِيْ أَحْبَبْتُهُ، وَمَنْ أَحْبَبْتُهُ قَتَلْتُهُ» ٤٣١

«القُرْآنُ حَبْلُ اللهِ مَمْدُوْدٌ» ٤٧٣

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

للجزء الثاني

طرف الحديث .... الصفحة

«مَنْ رَآنِيْ فَقَدَ رَأَى الحَقَّ».. ٥٦

«رَأَيْتُ رَبِّيْ فِيْ لَيْلَةِ المِعْرَاجِ» ٥٦

«...كُنْتُ سَمْعَهُ... وَبَصَرَهُ... وَيَدَهُ... وَرِجْلَهُ...» ٦٢

«افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ» ٨١

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ».. ٨٤

«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ» ١٤٩

«اللَّهُمَّ أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» ١٧٥

«إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيْجُ بِالنَّاسِ» ١٧٧

«سِيْرُوْا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ».. ١٩٣

«وَبِيْ يَسْمَعُ وَبِيْ يُبْصِرُ وَبِيْ يَبْطُشُ» ٢٣٣

«أنا أتمم مكارم الأخلاق» ٢٥٤

«آدم ومن دونه تحت لوائي» ٢٥٤

«من أطاعني فقد أطاع الله».. ٢٥٤

طرف الحديث	الصفحة

«شَيَّبَتْني سُوْرَةُ هُوْد» ٤٢٢
«هَذِهِ الآيَةُ قَصَمَتْ ظُهُوْرَ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ» ٤٢٢
«كُنْ فِيْ الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ» ٤٢٧
(اشْدُدْ حَيَازِيْمَكَ لِلْمَوْتِ وَالرَّحِيْلِ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيْلٍ) ٤٢٧
«رَأَيْتُ يُوْسُفَ الصِّدِّيْقَ عَليهِ السَّلامْ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ» ٤٤٤
«رَحِمَ اللهُ أَخِيْ يُوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ» ٤٥٢
«أَلاَ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيْ» ٤٦٨

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
للجزء الثالث

طرف الحديث .... الصفحة

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ» ٩٦
«لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَ أَعْدَائِيْ أَنَا أَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْنَنِيْ» ١٢٧
«هَذَا مَصْرَعُ فُلَان، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَان» ١٣٦
«أَلَا طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيْ» ١٧٢
«ائْتُونِي غَدَاً أُخْبِرُكُمْ عَنْهَا» ١٨٧
«رَحِمَ اللهُ أَخِيْ مُوْسَى اسْتَحَى فَقَالَ ذَلِكَ، » ٢١٨
«إِذا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسأَلُوا الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ» ٢٣١
«أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ» ٢٣٤
«أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّركِ،» ٢٣٤
«لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ غَيْرُ خَالِقِها» ٣٥٨
«البِكْرُ بِالبِكْرِ جَلْدُ مِائة وَتَغْرِيْبُ عَامْ» ٤٧٢
«المُتَلَاعِنَان لَا يَجْتَمِعَان أَبَدَاً» ٤٧٦
«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ! أَدْخُلُ أَمْ لَا؟ ثلاث مرات» ٤٨٧

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

للجزء الرابع

طرف الحديث .... الصفحة

«مِنْ أَعْظَمِ المَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللهِ تَعَالَى» ١٤٩

«لِلْقُرآنِ ظَهْراً وَبَطْناً، وَلِبَطْنِهِ بَطْناً إِلَى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ».................. ١٥٧

«قُلْ يَا عَمّ مَرَّةً لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَحَاجُّ بِهَا لَكَ عِنْدَ رَبِّي» ١٨٨

«كفى بضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم» ٢٤٧

«البِضْعُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ» ٢٦٢

«تَصَدَّقْ بِهِ» ٢٦٣

«سيَشْتَدُّ الأَمْرُ بِاجْتِمَاعِ الأَحْزَابِ عَلَيْكُم » ٣٦٣

«إِنَّهُمْ سَائِرُوْنَ إِلَيْكُمْ بَعْدَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرٍ» ٣٦٣

«مَنْ كَانَ سَامِعاً وَمُطِيْعاً، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنْي قُرَيْظَةَ» ٣٦٦

«لَقَد حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ يَا سَعْدُ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ» ٣٦٦

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ» ٣٧٩

«مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» ٤٢٦

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ كَعَابِرِ سَبِيْلٍ» ٤٤٣

«أنه ﷺ رَأَى جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ » ٤٤٦

طرف الحديث .... الصفحة

«إِنِّي أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» ٤٦٤

«لَا تَمْكُرُوْا وَتُعِيْنُوْا مَاكِرَاً» ٤٧٥

«يُقَالُ لِلْعَبْدِ: كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيْدَاً» ٥٠٧

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة للجزء الخامس

طرف الحديث .... الصفحة

«يُنْصَبُ الْمَوَازِيْنَ يَوَم الْقِيَامَةِ» ١٠٨

« إِذَا أَوَى أَحَدُكُم إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ » ١٢٣

«عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَأَبْنَاؤُهُمَا» ٢٣٦

«لَمْ يَنْظُر مُوْسَى إِلَى اللهِ تَعَالَى» ٢٤٩

«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِم بِالسَّبْعِ الشِّدَادِ » ٢٨٧

«مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا لَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ ب» ٢٩٢

أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّوْمِ» ٢٩٦

«اكتب ما يريدون» ٣٧٤

«أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ» ٣٨٦

«يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي» ٤٢٥

«مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ» ٤٨٥

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

للجزء السادس

طرف الحديث .... الصفحة

«حَرُمْتِ عَلَيْهِ» ٢٧

«يَدْخُلُ عَلَيْكُمْ الآنَ رَجُلٌ قَلْبُهُ قَلْبُ جَبَّارٍ» ٣٧

«الصَّعُوْدُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيْهِ سَبْعِيْنَ خَرِيْفاً» ٢١٨

«مَا نَقَضَ العَهْدَ قَوْمٌ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ» ٣١٤

«أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ العَبْدُ إِلَى رَبِّهِ إِذَا سَجَدَ» ٤٠١

«فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ» ٤١١

«إِذَا زُلزِلَتِ تَعْدِلُ نِصْفَ القُرْآنِ» ٤١٣

«يا بني فهر ! يا بني عدي ! لبطون قريش» ٤٤٨


Bibliotheca Alexandrina
0667539
